١٩٠٧

مكتبة نوبل

رادیارد کیبلینغ

حرب أصحاب

وقصص أخرى



ترجمة: توفيق الأسدي

حرب أصحاب
وقصص أخرى



مكتبة نوبل

Author : RUDYARD KIPLING
Title : A Shaibs' War and Other Stories
Translator: Tawfik Al-Assadi
Al- Mada P. C.
First Edition 2001

اسم المؤلف : راديارد كيبلينغ
عنوان الكتاب : حرب أصحاب وقصص أخرى
ترجمة : توفيق الأسدي
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : عام ٢٠٠١

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

١٩٠٧
مكتبة نوبل

رادیارد کیبلینغ

حرب أصحاب

وقصص أخرى

ترجمة

توفيق الأسدي



الفهرس

راديارد كيبلينغ

ولد راديارد كيبلينغ ابن جون لوكوود كيبلينغ مؤلف " الحيوان والإنسان في الهند " في بومباي في عام (١٨٦٥) . تلقى تعليمه في كلية يونايتد سيرفيسيز ، ويستوورد هو. وقد انخرط في العمل الصحفي في الهند من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٨٨٩ . وترتكز شهرته جوهرياً على قصصه القصيرة التي تعالج الهند والبحر والغابة و حيواناتها ، و الجيش و البحرية وعدداً كبيراً من المواضيع الأخرى . أما شعره المتنوع من حيث الموضوع كما هو نثره فقد تمتع أيضا بشعبية كبيرة . و من بين منشوراته الأكثر شعبية " حكايات بسيطة من الجبال " (١٨٨٨) و "معوق مدى الحياة " (١٨٩١) و" أغاني غرفة البرّاكة " (١٨٩٢) و" كيم" (١٩٠١) .

نال كيبلينغ جائزة نوبل للآداب في عام (١٩٠٧) و توفي في عام (١٩٣٦).

مقدمة

اختيرت هاتان المجموعتان من القصص القصيرة [1] من بين خمس مجموعات قصصية أتيحت لدار بنغوين بوكس للنشر من قبل دار ماكميلان أند كو ليمتد ، وهي : " نقليات واكتشافات " (١٩٠٤) ، " أفعال وردود أفعال " (١٩٠٩) ، " تنوع في المخلوقات " (١٩١٧) ، " المدينون و الدائنون " (١٩٢٦) و " حدود وتجديدات " (٢٣٩١) . وتشكل هذه المجموعات أفضل أعمال كيبلينغ القصصية النثرية بعد عام (١٩٠٠) ، وذلك بمعزل عن " كيم " (١٩٠١) والقصص القصيرة التي جمعت في الكتاب المسمى " بك من بوكس هيل " (١٩٠٦) و " مكافآت وجنّيات " (١٩١٠) .

إن قصص كيبلينغ مزيج غني من الابتكار مع التجربة ، تجربته أو تجارب الآخرين ، كما توحي سيرته الذاتية التي عنوانها " شيْ ما عن نفسي " (١٩٣٧) بأصول كثير من هذه الحكايات . فقصتا " حرب أصحاب " و " الأسير " مستمدتان كلتاهما من معرفته المباشرة بالممارسات البريطانية والبويرية في جنوب أفريقيا . أما " الثعالب الصغيرة " فقد بناها على نادرة رواها له ضابط كان مشرفاً على "حملة

(١)" حرب ' أصحاب ' و قصص أخرى " و " النهر الودود و قصص أخرى "

صيد جيحون " الأصلية ، وبنى " ريغولوس " على ذكرياته من أيام المدرسة في" وستورد هو " . وكانت فتاة حانة رآها في أوكلاند وملاحظات من ضابط صف سفينة تنصت عليه في قطار قرب " كيب تاون " هي نقاط الانطلاق لقصة " السيدة باتهيرست " . أما اهتمامه بحركة " الماسونيين الأحرار " (قصة " حول مصالح الأخوة ") فيعود تاريخه إلى انضمامه إلى "لودج" متعددة الأجناس والأديان في لاهور في عام (١٨٨٥) . وفي منزل في " توركاي " ، الذي سكنت فيه سابقا ثلاث عوانس عجائز ، أحس هو و زوجته في عام (١٨٩٦) بـ" كآبة متنامية أحاطت بنا كلينا : سواد متراكم في الذهن وأسى في القلب " ، وقد عزا ذلك إلى " روح " المنزل نفسه ، وأعاد خلق الأعراض التي أصابت شخصياته في قصة " جرّاح المنزل " ، بينما قدمت تجاربه في " بيتمان " ، وهو اسم منزلهما في ساسكس ، تقنيات قصة " تحت سدّ المطحنة " و كذلك تبصّراته في الحياة والشؤون الريفية واستمدّ منها قصصاً مثل " نهر ودود " و " كنّتي " و " سكنى مفروضة بالقوة ".

في سيرة الحياة الرسمية إنما الأقل تحفظاً التي كتبها تشارلز كارينغتون تحت عنوان " راديارد كيبلينغ : حياته و أعماله " (١٩٥٥) نجد مستويات عاطفية أعمق . فخلف الشفقة الرقيقة في قصة " هُم " مثلا يكمن حزن كيبلينغ على وفاة ابنته الصغيرة جوزفين في عام (١٨٩٩) ، هذا و رغم أن قصة " ماري بوستغيت " كتبت قبل أن يقتل ابنه الوحيد في " لوس " Loos في عام (١٩١٥) ، فإن معرفتنا بخسارته تعطي حدة إضافية لقصة مثل " الجنائني " . مثل هذه المعلومات غير ضرورية على أي حال لفهمنا واستمتاعنا بالقصص نفسها ، والتخمين الإضافي

سيكون معاكسا لطلب كيبلينغ نفسه (في " الاستدعاء ") بأن فنه يجب أن يحكم عليه على نحو لا شخصي ، كما أن خصوصيته قد احترمت بعد وفاته مثلما تأكد هو من أن تكون كذلك خلال حياته :

((إن كنت قد متعتكم
بأي شيء فعلته ،
فلأرقد بهدوء في تلك الليلة
التي لن تكون ليلتكم قريبًا

أما بالنسبة للامتداد الصغير الصغير
يحمل الأموات في الذهن ،
و لا ينشدون التساؤل عن أي شيء آخر عدا
الكتب التي أخلفها ورائي .))

تقدم هذه المختارات من خمسة من الكتب التي خلفها كيبلينغ، تقدم كيبلينغ القرن العشرين الذي تطور من الأعجوبة الأكثر إلفة التي عرفتها الثمانينات والتسعينات [من القرن التاسع عشر]، كما أنها توضح المدى والتنوع والأصالة التقنية لفنه القصصي لتلك الفترة [٢]. هناك حكايات أقل هنا عن الإمبراطورية البريطانية مّمّا قد يتوقعه القراء

---

(٢) القصائد التي ترافق القصص في هذه المجموعات لم يتم إرفاقها (رغم أنها ذات صلة موضوعية بها) باستثناء قصيدة " أغنية ماك دوناو " التي تم اقتباسها والإشارة إليها في " سهل مثل أ ب . ج . " ، ويجب أن تعتبر على أنها عنصر أساسي في القصة نفسها .

بسبب ذلك النموذج الشائع عن كيبلينغ : وكما توضح قصة " الثعالب الصغيرة "، فقد كان لا يزال متشبثا بقوة بالمثل والأحكام المسبقة التي ألهمت الكثير من أعماله في العقدين السابقين، ولكن العجز الشامل الذي كشفته " حرب البوير " (٣) خفف من ثقته في قدرة بريطانيا على الاستمرار بلعب دورها الإمبريالي ، بينما كانت إرادتها بالذات على القيام بذلك ، أو حتى تحضيرها للدفاع عن نفسها أمام القوى الأوربية المعادية ، قد أوهنهما – كما بدا له – الفساد واللامسؤولية السياسية . لذلك كان منهمكاً على نحو متعاظم بحالة إنكلترا نفسها ، بينما راح يقرّعها على عماها وحماقتها و اغتباطها بنفسها، وراح ينشد الطمأنينة في مجموعات وأنماط أو أفراد قد يكونون قادرين بعد على إصلاح ارتداد بريطانيا عن الطريق القويم . وفي الآن ذاته ، فقد وجد نفسه منهمكا في عملية اكتشاف ساحرة للريف وناسه وتقاليده جاءت كوحي له ما أن استقر في ساسكس. كتب يقول لصديق له في عام (١٩٠٢) : " إنكلترا أرض رائعة . إنها الأروع بين كل الدول الأجنبية التي سبق لي أن زرتها . " ومع ذلك ، وبينما كان يجعلها خاصته على نحو عجيب ، فقد كان واعياً (كما نرى في " تحت سدّ المطحنة ") بالتأثير السام للتراث الخامد والحاجة إلى التقدم التكنولوجي . كان يشعر تجاه المثقفين الطفيليين اجتماعياً، وخاصة أولئك المذكورين في " اليسار غير المعتدل " بالاحتقار الوحشي المعبّر عنه في قصة " كنّتي " ، إلاّ أن حكايته الخرافية عن الانحطاط في قصة " خلية النحل الأم "

---

(٣) حرب البوير : (١٨٩٩– ١٩٠٢) حرب جمهورية جنوب أفريقيا (ترانسفال) و دولة أورانج الحرة ضد بريطانيا العظمى . وقد دارت هذه الحرب بين المستوطنين البيض من أصل هولندي والجيش البريطاني .(المترجم)

تذهب أبعد من عدائه المحلي ، لتشخّص المرض السياسي - الأخلاقي في مجتمع كامل ، بينما نرى الشك في الديموقراطية ، الذي شاركه به كثير من الكتاب الرئيسيين في هذا القرن منعكسا في مستقبل طوباوي على نحو غامض في القصة التي عنوانها " سهل مثل أ. ب . ج. " .
إن مثل هذه المواضيع السياسية تحتل حيزاً كبيراً في" الجزء الأول " ، بينما يحتل انهماكه في " الحرب الكبرى " حيزاً كبيراً في " الجزء الثاني". ولكن تتواجد هذه في آن واحد مع اهتمامات أكثر صلة بعلم النفس وأكثر روحانية ، وخاصة في سنواته اللاحقة . ويبقى البشر الأفراد ، شخصياتهم وتصرفاتهم وسلوكهم تحت الضغط هم اهتمامه الأساسي. وباستخدام تنوع رائع من الخلفيات والشخصيات المسرحية ، يقدم قصصاً في مدى متميز من الموضوعات : حكايات عن الانتقام ، الذي يرى أحياناً كعدل جامح وأحيانا كاستحواذ مرضي ؛ حكايات عن الغفران البشري ؛ حكايات عن ما فوق الطبيعي تفهم حرفياً تارة ورمزياً تارة أخرى ، ولكن ليس بابتذال أبداً كمجرد تسلية تبعث على القشعريرة في العمود الفقري ؛ حكايات عن الكره والقسوة ، ولكنها أيضاً حكايات عن التعاطف والحب ، عن العمل والمهارة الحرفية ، عن البراعة الفنية ؛ حكايات عن الرفاقية والعزلة ، وحكايات عن الشفاء الجسدي والأخلاقي والروحي أو النفسي في أكثر الأحيان .

فنياً ، تبدي لنا قصصه تنوعاً قابلاً للمقارنة، ولكن بالنسبة إلى القراء المعاصرين فإن التطور الأكثر أهمية على الأرجح هو تطويره لتلك الصيغة المعقدة المنظمة على نحو وثيق والموجزة والرمزية من صيغ الكتابة والتي تضعه في مصاف المساهم غير المتوقع في " الحداثة "

والمجدّد الرئيسي في فن القصة القصيرة . هذه الصيغة ، بنواحيها الغامضة والتهكمية ، في مستوياتها المتعددة من المعنى وما وصفته الآنسة ج.م.س. تومبكينز على أنه " تعقيدات في المادة و ... الطريقة " ، جرت محاولتها لأول مرة في قصة "السيدة باتهيرست " و " هم " ، ولكننا نجدها وقد تطورت بالكامل في قصصه اللاحقة ، وخاصة تلك التي تعود إلى عام (١٩٢٤) ثم لاحقاً في " الجزء الثاني " من هذه المختارات . ويمكننا أن نجد نقاشاً مفصّلاً لهذه النواحي وغيرها من نواحي مهارته الفنية في دراسات مثل " فن راديارد كيبلينغ " من تأليف الآنسة تومبكينز (١٩٥٩) و " وجوه فن كيبلينغ" (١٩٦٤) بقلم سي . أ. بودلسن ، و " ذهن و فن كيبلينغ " من تحرير أندرو رذرفورد (١٩٦٤) و " راديارد كيبلينغ : الواقعي وكاتب الخرافات " (١٩٦٧) بقلم بونامي دوبري .

أندرو رذرفورد

حرب " أصحاب "[1]

(١٩٠١)

(١) " أصحاب " : جمع " صاحب " وهو لقب بمعنى " سيد " يخاطب به الهنود شخصاً أوربياً ذا مكانة اجتماعية أو منصب رئيسي (قاموس المورد) .
وكلما وردت كلمة " صاحب " أو " أصحاب " في هذه القصة فهي تعني هذا المعنى بالذات دون غيره .(المترجم)

جواز مـرور ؟ جواز مرور ؟ جـواز مرور ؟ لديّ مـسـبقاً جـواز مرور يسمح لي بالذهاب بالسكة الحديدية من كرونشتات إلى إشتلنبوش ، حيث توجـد الجيـاد ، وحيث سيـتم دفع حسـابي وصرفي من الخدمة ، ومنهـا سأعـود إلى الهند . أنا فارس من " غورغـاون ريسـالا " (فوج الخيـالة) ، فـوج خيـالة البنجـاب الواحـد والأربعين بعـد المائة . لا تحسـبني واحـداً من أولئك " الكفيريين " [٢] السود ، فأنا من " السيـخ " [٣]: فارس من فرسان الدولة . ألا يفـهـم " الصـاحب – الملازم الأول " لغـتي ؟ أليس هناك من " صاحب " واحد في هذا البلد للذي اخترعـه الشيطان ، والذي لا تجد فـيه دقيـقاً و لا زيتـاً و لا بهـارات و لا فلفـلاً أحـمر و لا احـتـرامـاً يُبـذل لشـخص من السيـخ ؟ ألا من عون ؟ ... الحمد لله ، هاهو " صـاحب " كهذا هنا ! حامي الفـقـراء ! مـولود سـمـاوي! قـولوا لـ " الصـاحب – الملازم الأول " الشـاب إن اسمي هو " أومر سينغ " . أنا – أعني كنت – خادمـاً لـ " كوربان صـاحب " ، المتوفى الآن . ولديّ جواز مرور لأذهب إلى إشـتلنبـوش ، حيث توجد الجياد . لا تجعله يحسبني واحداً من أولئك الكفيريين السود ! ... أجل ، سأجلس قرب هذه العربة حتى يشرح المولود السـماوي الأمر لـ " الصـاحب

---

(٢) الكفيري : من الشعوب الناطقة بلغة "البانتو" في جنوب أفريقيا .(قاموس المورد)

(٣) "السـيخ " : معتنقو ديانة هندية موحّدة أنشأها حوالي عام (١٥٠٠) ب .م . هندوسي متأثر بالإسلام ، ويتميز السيخ برفضهم الوثنية والعزل الطبقي (قاموس المورد) .

– الملازم الأول " الشاب الذي لا يفهم لغتنا .

* * *

أي أوامر ؟ ألن يعوقني " الصاحب – الملازم الأول " الشاب ؟ حسناً ! سأذهب إلى إشتلنبوش بالقطار التالي ؟ حسناً ! هل سأذهب إلى إشتلنبوش بالقطار التالي ؟ حسناً ؟ أ سأذهب مع المولود السماوي ؟ إذن في هذا اليوم أنا خادم المولود السماوي . هل يمكن للمولود السماوي أن يجلب شرف حضرته إلى مقعد ؟ هاهي عربة فارغة : سأنشر بطانيتي فوق إحدى الزوايا هكذا – فالشمس حارة ، رغم أنها ليست حارة شأن شمس بنجابنا في شهر أيار (مايو) . سأرفعها عاليا هكذا ، وسوف أرتب هذا القش هكذا ، حتى يجلس "الحضرة " مرتاحاً وحتى يرسل الله لنا قطاراً متجهاً إلى إشتلنبوش ...

أ يعرف " الحضرة " البنجاب ؟ لاهور ؟ أمريتسار ؟ أتاري ربما ؟ قريتي في الشمال عبر الحقول على مسافة ثلاثة أميال من أتاري، قرب المنزل الأبيض الذي نسخه عن مكان معين يخص الملكة العظيمة شخص يسمى – لقد نسيت الاسم – هل يستطيع " الحضرة "تذكره ؟ سردار ديال سينغ أتاريوالاً ! أجل هذا هو اسم الرجل ، ولكن كيف يعرف " الحضرة " ؟ لقد ولد وترعرع في الهند ، أليس كذلك ؟ أوه ! هذه مسألة مختلفة تماما . كانت مرضعة " الصاحب " امرأة من " سورتي " من ناحية بومباي ؟ يا للأسى ! كان يجب أن تكون امرأة من داخل البلاد فأولئك يكنّ عادة مرضعات قويات . لا أرض كالبنجاب . ولا شعب كالسيخ. اسمي " أومر سينغ " ، أجل . عجوز ؟ أجل . فارس فقط بعد كل هذه

السنوات ؟ أجل . انظر إلى بزتي ، إن كان "الصاحب" يشك في ذلك . لا ، لا ، "الصاحب" ينظر عن كثب . لقد نزعت كل علامات الرتبة عنها منذ زمن طويل ، ولكن - هذا صحيح - ليست بزتي من القماش العادي الشائع الذي يستعمله الفرسان لمعاطفهم ، و - لـ "الصاحب" عينان ثاقبتان - فالعلامة السوداء هي ما تتركه السلسلة الفضية حين ترتدى لفترة طويلة على الصدر . أيقول "الصاحب" إن الفرسان لا يرتدون سلاسل فضية ؟ لا . ألا يرتدي الفرسان وسام الهند البريطاني ؟ لا . لا بدّ أن "الصاحب" كان في شرطة البنجاب . أنا لست فارساً ، ولكني كنت خادماً لـ "صاحب" منذ عام تقريباً : حمالاً وخادماً وكنّاساً ، أي واحد من هؤلاء الثلاثة وجميعهم . أيقول "الصاحب" إن السيخ لا يقبلون أداء الخدمات الوضيعة ؟ صحيح ، ولكني فعلتها لأجل "كوربان صاحب" - كوربان صاحبي أنا - الذي مات منذ ثلاثة أشهر .

* * *

شاب بوجه أميل إلى الحمرة - له عينان زرقاوان ، يطفر على قدميه حين يكون مسروراً ، ويطقطق بأصابعه . كان هذا هو شأن أبيه من قبله ، وكان ذاك نائب مفوض في أيام أبي حين كنت فارساً في الغورغاون ريسالا . أبي ؟ جوالا سينغ . سيخي أصيل . لقد قاتل الإنكليز في "سوبراون" وحمل العلامة حتى وفاته . لذلك كنا مرتبطين كأنما برابطة الدم ، أنا و "كوربان صاحبي" . أجل . كنت فارسا في البداية ، لا ، لقد رقيت إلى "لانس - دوفادار" ، على ما أذكر ، وأعطاني أبي حصاناً كميتاً من تربيته في ذلك اليوم. وقد كان "بابا"

baba آنئذ صغيراً لا يزال جالسا على جدار قرب ساحة الاستعراض مـرتديا " آيا " ayah كلها بيـضـاء أيهـا " الصـاحب " - يضـحك في نهـاية تدريبـاتنا . وقـد تحـادث أبوه وأبي مـعـاً ، و أومـأ أبي إليّ ، فترجلت ، ووضع يده في يدي - لقد مضت الآن ثمانـية عشر عاماً ، خمسة وعشرون ، سبعة وعشرون عـاما - كوربان صاحب - كوربان صاحبي أنا ! أوه ، لقد أصبحنا صديقين عظيـمين بعد ذلك ! لقد سنّن على مقبض سيفي كما يقول المثل . كان يناديني بـ " أومر سينغ الكبير " : " بووا أوموا سينغ " ، فـهو لـم يكن قـادراً على الكلام على نحـو واضح بعـد . كـان طوله بهـذا الارتفاع فحسب ، أيها " الصاحب " ، من أسفل هذه العـربة، ولـكنه كـان يعـرف كل الفـرسان بالاسم : كل واحـد منهم .... وقد ذهب إلى إنكلترا وأصبح شاباً، ثم عـاد ، يطفر قليلا في مشيته ، ويطقطق بأصابعه : عـاد إلى فـوجه الخـاص و إليّ . لم يكن قـد نسي لغتنا و لا عادتنا . كان واحداً من " السيخ " في أعماقـه أيها " الصاحب " . كـان غـنياً و كـريماً وعـادلاً ، وصـديقاً للفرسان الفـقـراء ، حاد البـصر، مرحاً ولا مـبـالياً . أستطيع أن أحكي حكايات بحالها عنه في سنواته الأولى . ما كان ليخفي عني إلاّ النزر اليسير . كنت " أومر سينغ " خاصته ، وحين نكون على انفراد كان يناديني بـ "أبي " وكنت أناديه بـ " ابني " . أجل ، هكذا كنا نتخاطب . كنا نتحدث بحرية معاً حول كل شيء : الحرب والنساء والمال والتقدّم ، و كل موضوع آخر .

تحـدثنا عن هذه الحـرب أيضـاً ، قـبل أن تندلع بوقت طويل . كـان هناك الكثير من عمال الاسطبلات والباعة الجوالين مع قلة من "الباثان " في هذا البلد ، وخاصة في مدينة " يوناسباغ " (جوهانسبرغ ") ، و

كانوا يرسلون أسبوعياً أنباء تقول إن " الأصحاب " كانوا قابعين دون أسلحة تحت نعال البوير ، وكيف أن المدافع الكبيرة قد نقلت عبر الشوارع ليبقى "الأصحاب " منظمين ؛ و كيف أن "صاحباً " يدعى "إيغير صاحب " (إدغار ؟) قد قتل بدعابة من قبل البوير . أيعرف " الصاحب " كيف أننا نحن الهنود نسمع بكل ما يجري على الأرض ؟ لم يُصل مدفع واحد في " يوناسباغ " ولم يصل صداه إلى الهند خلال شهر واحد .
" الأصحاب " أذكياء جداً ، ولكنهم ينسون أن ذكاءهم قد أوجد " الدك " (البريد) ، و أنه لقاء " آ نة " [٤] واحدة أو اثنتين تصبح كل الأشياء معروفة . نحن الهنود أصغينا و سمعنا و تساءلنا . و حين أصبح الأمر مؤكداً ، كما أفاد الباعة الجوالون وبائعو الخضار، بأن " الأصحاب " في " يوناسباغ " أضحوا عبيداً للبوير ، فقد طرح البعض منا الأسئلة وانتظر العلامات . أخطأ آخرون بيننا معنى تلك العلامات . لماذا أيها " الصاحب " تلك الحرب الطويلة في " التيراه " ! عرف كوربان صاحب هذا الأمر وتحدثنا فيه . قال : " لا داعي للعجلة . في الوقت الحاضر سنحارب ، وسنحارب من أجل الهند كافة في ذلك البلد حول " يوناسباغ " . هنا قال الحقيقة . ألا يوافق " الصاحب " ؟ تماماً . إنه لأجل الهند يحارب " الأصحاب " في هذه الحرب . لا تستطيعون أن تسودوا في مكان وأن تخدموا في آخر . إمّا أن يكون عليكم أن تسودوا في كل مكان أو تطيعوا في كل مكان . لا يجعل الله الأمم ringstuaked صحيح - صحيح - صحيح !
وهكذا نضجت الأمور : خطوة في كل مرة . لم يعن الأمر شيئاً لي

(٤) آنة ٠ وحده النقد السابقة في بورما و الهند وباكستان ، تساوي ١/ ٦١ من الروبية (قاموس المورد) ٠

باستثناء أني أعتقد – و "الصاحب " يرى ذلك أيضا ، أليس كذلك ؟ – أنه من الحماقة أن تؤسس جيشاً وتحطم قلبه من العطالة . لماذا لم يرسلوا في طلب رجال " التوتشي" – رجال " التيراه" و رجال " البونر " ؟ حماقة ، ألف مرة . ولكنّا استطعنا جميعاً القيام بالأمر بمنتهى السهولة .

ثم جرى في أحد الأيام أن أرسل " كوربان صاحب " ورائي وقال : " هوه ، دادا ، أنا مريض ، وقد منحني الطبيب إجازة لأشهر كثيرة ." ثم غمزني وقلت : " سأحصل على إذن و أمرّضك يا بني . هل أحضر بزتي ؟ " قال : " نعم ، وسيفاً لرجل مريض حتى يتكئ عليه . سنذهب إلى بومباي ، و من هناك سنركب البحر إلى بلد " الأحباش " (الزنوج) . " انتبه لذكائه ! كان الأول بين رجالنا كافة في الأفواج الأهلية الذي يحصل على إجازة مرضية ليأتي إلى هنا . و الآن لن يدعوا ضباطنا يرحلون ، سواء كانوا مرضى أو معاقين ، إلاّ إذا وقّعوا على صك بألاّ يشاركوا في هذه اللعبة الحربية في طريقهم [إلى الوطن] (٥). ولكنه كان ذكياً . لم تكن هناك حتى همسة عن الحرب حين نال إجازته المرضية . و قد أتيت معه أيضاً ؟ بكل تأكيد. ذهبت إلى كولونيلي [عقيدي]، وبينما كنت جالسا على الكرسي (أنا – أعني كنت – أحمل تلك الرتبة التي تسمح لي بالجلوس على كرسي خلال مخاطبتي للكولونيل – قلت : " ابني مريض . امنحني إجازة لأني مسنّ و مريض أيضاً ".

فقال الكولونيل الذي جعل للكلمة معنيين مزدوجين بين

(٥) العبارات الواردة ضمن هذه الأقواس [ ] هي من وضع المترجم .

الإنكليزية ولغتنا : " نعم ، أنت بالفعل سيخ"[٦]، ثم نعتني بالشيطان العجوز - مزاحاً كما قد يمازح جندي جندياً آخر - وقال إن " كوربان صاحب " خاصتي كان كذاباً فيما يخص صحته (وكان هذا صحيحاً أيضاً) ، وأخيراً نهض وصافحني وأمرني بالذهاب وبأن أعيد " صاحبي " سليماً من جديد . " صاحبي " سليماً من جديد : يا لحسرتي !

و هكذا مضيت إلى بومباي مع " كوربان صاحب " ، ولكن هناك ، ولدى مشاهدته " حمى الاستدماء البولي " ، فإن " وجيب علي " ، حمّاله ، توقف و قال إن أمه قد ماتت . ثم قلت لـ "كوربان صاحب " : " و ما الفرق لو نقصنا مسلماً واحداً ؟ أعطني مفاتيح الصندوق ، و سوف أحضر القمصان البيض لأجل العشاء " . ثم ضربت " وجيب علي " خلف فندق واتسونز ضرباً موجعاً ، وفي تلك الليلة حضّرت أمواس حلاقة " كوربان صاحب " . أقول أيها " الصاحب " إني أنا السيخي من " خالسا " ، الرجل الذي لا يقصّ شعره ولحيته ، قد حضّرت أمواس "كوربان صاحب ". ولكني لم أكن أرتدي بزتي حين فعلت ذلك . ومن ناحية أخرى ، فإن "كوربان صاحب " قد استأجر لي ، على ظهر الباخرة ، قمرة مشابهة لقمرته من كل النواحي ؛ وكان من شأنه حتى أن يعيّن لي خادماً . وقد تحدثنا عن أمور كثيرة في طريقنا إلى هذا البلد . حكى لي " كوربان صاحب " عن رأيه في مجريات الحرب . قال : " لقد أخذوا المشاة ليحاربوا الفرسان ، و هم سيظهرون الرحمة تجاه حماقة هؤلاء البوير لأنهم يعتقدون أنهم من البيض ." قال : " هناك خطأ واحد فقط في هذه الحرب ، وهو أن الحكومة لم تستخدمنا نحن ،

---

(٦) زاوج هنا بين كلمتي sikh -sick(المترجم)

بل جعلتها حرب " أصحاب " بكل معنى الكلمة . وهكذا سيقتل رجال كثيرون ولن يكون هناك ثأر ." كلام صحيح - كلام صحيح ! وقد جرى ما تنبأ به " كوربان صاحب ".

ثم وصلنا إلى هذا البلد ، وحتى كيب تاون عبر ذلك المكان هناك ، وقال "كوربان صاحب " : "احمل الأمتعة إلى الكوخ الكبير وسوف أبحث عن عمل ملائم لرجل مريض ." ارتديت البزة الملائمة لرتبتي وذهبت إلى الكوخ الكبير المسمى " ماون نيهال سين " (ماونت نلسون) ، و وضعت الأمتعة الثقيلة في ذلك المكان المنخفض المعتم - هل هو معروف لـ " الصاحب " ؟ - كان قد سبق له أن امتلأ بالسيوف وأمتعة الضباط . أصبح أكثر امتلاء الآن وذلك بمجموعات الرجال الموتى جميعاً ! كنت حريصاً على أخذ إيصال بكل القطع الثلاث . أحفظها في حزامي . يجب أن تعود إلى البنجاب .

حالاً جاء "كوربان صاحب " ، يطفر بخفة ونشاط ، وكانت تلك علامة أعرفها ، وقال : : نحن مولودان في ساعة حظ . سنذهب إلى إشتلنبوش للإشراف على شحنة من الخيول . " تذكر أن "كوربان صاحب " كان قائد سرية خيالة في " غورغاون ريسالا " ، وكنت أنا " أومر سينغ " . لذلك قلت وأنا أحادثه كما نفعل - كما كنا نفعل - حين لا يكون أحد إلى القرب منا : " أنت سائس خيل و أنا قاطع حشائش ، ولكن أهذه ترقية يا بنيّ ؟ " ضحك من هذا الكلام وقال : " هذه هي الطريق نحو الأمور الأفضل . اصبر يا أبي ."(أجل ، كان يناديني بأبي حين لا يكون أحد إلى القرب منا) . " لن تنتهي هذه الحرب غداً و لا اليوم الذي يليه . لقد رأيت ' الأصحاب ' الجدد" ، هكذا قال ، " وهم آباء

البومة ... جميعهم ... جميعهم ... جميعهم !" وهكذا مضينا إلى إشتلنبوش حيث الخيول . وراح "كوربان صاحب " يقوم بأعمال الخدم في تلك المهمة . وكان الأمر كله يدار دون تفكير مسبق من قبل " أصحاب " جدد لا يعلم إلاّ الله من أين هم ، و هؤلاء لم يروا في حياتهم خيمة تنصب أو وتداً يثبت . كانوا ممتلئين بالحماسة إنما يخلون من المعرفة . ثم جاء بالتدريج أولئك الباثان من الهند - كانوا أشبه بتلك الجوارح التي هناك أيها " الصاحب " - فهم يلحقون بالمذابح دوماً . ثم وصل إلى إشتلنبوش بعض السيخ - رغم أنهم من الموزبي - وبعض الرجال السعادين من مدراس . جاؤوا مع الخيول . والله أعلم ما فعله الجيش بها ، إلاّ إذا كانوا قد أكلوها نيئة . كانوا يستخدمون الجياد كما تستخدم المحظية الزيت : باليدين كلتاهما . كانت تلك الجياد في حاجة إلى الكثير من الرجال . وقد عيّنني "كوربان صاحب" قائداً (ويا لها من قيادة لي !) على بعض أولئك الأحباش ذوي الرؤوس الصوفية الذين كان ملمسهم وظلّهم تلوّثاً. كانوا شديدي النهم ، ينامون على بطونهم ويضحكون دون سبب . تماماً كالحيوانات . كان بعضهم يدعى بـ" الكفيريين الحمر " ، ولكنهم كانوا جميعا من الكفيريين : قذارة لا توصف . علمتهم السقاية والعلف والتنظيف والفرك . أجل كنت مراقباً على عمل الكنّاسين - " جيمادار الميهاتار " (رئيساً لمجموعة من رجال التنظيفات) ، وقد كان "كوربان صاحب" في منصب أفضل قليلاً ولفترة دامت خمسة أشهر ! هذا وقد جرت الحرب كما توقع "كوربان صاحب" . ذُبح رجالنا الجدد ولم يثأر لهم أحد. كانت حرب حمقى مسلحين بأسلحة السحرة . مدافع تذبح من مسافة مسيرة نصف يوم ورجال يسيرون - كونهم جدداً

– كالعميان بين الأعشاب الطويلة ويقادون كالقطيع من قبل البوير !
أما فيما يخص مدينة إشتلنبوش ، فلست "صاحباً" ، بل مجرد رجل من السيخ . كنت سأنزل جماعة واحدة من " الغورغاون ريسالا " إلى تلك المدينة – جماعة صغيرة فحسب – وكنت سأربّي تلك المدينة حتى يتعلم رجالها كيف يقبّلون ظل حصان الحكومة على الأرض . يوجد الكثير من " الملاّوات " (القساوسة) في إشتلنبوش . كانوا يعظون بـ " الجهاد " ضدنا . هذا صحيح : كان المعسكر كله يعرف ذلك . وكانت معظم المنازل مسقوفة بالقش ! حرب حمقى بالفعل !

في نهاية الأشهر الخمسة قال "كوربان صاحبي " الذي أضحى نحيلاً : " جاءت المكافأة . سنتجه نحو الجبهة بالجياد غداً ، و ما أن نصبح بعيدين ، سأكون مريضاً إلى حد لا أستطيع معه العودة . جهّز الأمتعة ". و هكذا انطلقنا مع بعض " الكفيريين " المكلفين برعاية الجياد الجديدة لفوج من الأفواج وصل بسفينة . وفي اليوم الثاني لنا في أحد القطارات ، وحين كنا نسقي الخيل في مكان مقفر ليس فيه أي نوع من أنواع السوق ، فقد انسلّ من بين الخيول شخص يسمى " سيكندر خان " و هو " جيمادار سايس " (رئيس ساسة الخيل) في إشتلنبوش . وكان بالخدمة فارساً في فوج من أفواج الحدود . قرّعه "كوربان صاحب" تقريعاً شديداً على فراره من الخدمة، ولكن ذلك الباثان رفع يديه كأنما ليعذر نفسه ، ولان قلب "كوربان صاحب" وضمّه إلى خدمتنا . وهكذا أصبحنا ثلاثة : "كوربان صاحب" ورجل من السيخ و "ساغ" (كلب) . ولكن الرجل قال عن حق : نحن بعيدان عن وطننا وكلانا خادم للراجا [أمير هندي] . فلنتهادن حتى نرى الإندوس مجدّدا." كنت قد أكلت من الطبق نفسه

الذي أكل منه سيكندر خان : لحم عجل أيضا و لا أبالي البتة ! قال في الليلة التي سرق فيها بعضاً من لحم الخنزير في علبة صفيح من خيمة إطعام إن كتابه - القرآن- يقول إن من ينخرط في حرب مقدسة يحق له التحرر من بعض الالتزامات الشعائرية . واه ! لم يكن فيه دين بقدر ما يستطيع رأس السيف أن يلتقط من السكّر والماء عند العماد . لقد سرق لنفسه حصاناً من مكان عسكر فيه فوج جديد من الأغرار . كما تدبرت لنفسي فرساً رمادية هناك . كانوا يدعون جيادهم تسرح كثيراً تلك الأفواج الجديدة .

كان من شأن بعض الأفواج الوقحة أن تخلصنا جيادنا على الطريق. كانوا يبرزون الوثائق الرسمية وطلبات مصادرة الجياد ، وكادوا مرة أو مرتين أن يفكوا العربات ، و لكن "كوربان صاحب" كان حكيماً ، وأنا لست بالأحمق إجمالاً. على الجبهة لا تجد الكثير من الأمانة . من الجدير بالملاحظة أنه كانت هناك مجموعة من لصوص الخيول العنيدين ؛ "أصحاب" طوال القامة و رشيقون يتكلمون عبر أنوفهم في معظم الأحيان ، ويقولون في كل المناسبات : " أواه يا للجحيم ! " وهذا يعني بلغتنا " جهنم كو جاو" . كان كل رجل منهم يضع ورقة كرمة على بزته ، و كانوا يركبون أحصنتهم مثل " الراجبوت" . لا ، بل كانوا يركبونها كالسيخ : كانوا يركبون كالأستراليين . كان الأستراليون الذين قابلناهم لاحقاً يتكلمون أيضا عبر أنوفهم ليس بالقليل ، و كانوا جميعاً سمراً بعيون رمادية صافية وأهداب ثقيلة كما للجمال - رجال ممتازون - نوع جديد من " الصاحب " بالنسبة إليّ . كانوا يقولون في كل المناسبات : " لا خوف " ، وهذا يعني في لغتنا " دورو موت " (لا تخف) ،

لذلك دعوناهم " دورو موت " . كانوا رجالاً سمراً طوال القامة ، رجالاً ممتازين جداً ، ذوي حرارة و غضب ، ويشنّون الحرب على أنها حرب ، ويشربون الشاي كما تشرب الكثبان الرملية الماء . لصوص ؟ قليلا أيها " الصاحب " . لقد أقسم لي سيكندر خان - وهو ينتمي إلى عشيرة من لصوص الجياد تعود إلى عشرة أجيال - أقسم أن الباثاني مجرد طفل رضيع في سرقة الجياد بالمقارنة مع "الدورو موت ." لا يستطيع " الدورو موت " السير على أقدامهم إطلاقاً . إنهم كالدجاج على الطرقات العامة . لذلك كان عليهم أن يحصلوا على جياد . رجال ممتازون عن حق ، مع توق عادل إلى الحرب . آه - " لا خوف " يقول " الدورو موت". لقد رأوا مدى قيمة "كوربان صاحب" . لم يطلبوا منه أن يكنس الإسطبلات . و ما كانوا يدعونه يرحل بأي حال من الأحوال . لقد أحلّوه محل أحد قادة مجموعاتهم الذي أصيب بالحمى ، في يوم طويل في بلد مليئة بالجبال الصغيرة : مثل " فم [ممر]خيبر ."وحين عادوا في المساء ، قال " الدورو موت " : " أيها الخادم ! هذا رجل . اسرقه !"لذلك سرقوا "كوربان صاحبي" كما قد يسرقون أي شيء آخر كانوا في حاجة إليه ، و أرسلوا الضابط المريض إلى إشتلنبوش بدلاً عنه . وهكذا عاد " كوربان صاحب " إلى مكانته الحقيقية وأصبحت حمّاله وأصبح سيكندر خان طبّاخه . كان القانون صارماً بأن هذه هي " حرب أصحاب " ، ولكن لم يكن هناك أمر يقضي بألاّ يركب الحمال والطباخ مع " صاحبهما " - و لم يكن لدينا ما نرتديه عدا بزّتينا . وقد تجولنا في أنحاء هذا البلد الملعون ، حيث لا تجد سوقاً و لا دقيقاً و لا زيتاً و لا بهارات و لا فلفلاً أحمر و لا حطباً . لا شيء سوى الذرة النيئة وبعض البقر . لم تجر معارك كبيرة

كما رأيت ، ولكن جرى الكثير من إطلاق نار المدافع . حين نكون كثرة ، كان البوير يخرجون حاملين القهوة لتحيتنا وإبراز " البيروانا " (التصاريح) التي منحها إياهم جنرالات إنكليز حمقى مرّوا بتلك الطريق من قبل ، لتشهد بأن هؤلاء مسالمون حسنو السلوك . وحين نكون قلة ، كانوا يختبئون خلف الصخور ويطلقون علينا النار . والآن كان الأمر يقول إن هؤلاء هم من " الأصحاب " و أن هذه حرب " أصحاب ". حسناً ! و لكن كما أفهم أنا الأمر ، فإنه حين يذهب "الصاحب " إلى الحرب ، يرتدي هذا ملابس الحرب ، ولن يشارك في تلك الحرب إلاّ من يرتدي تلك الملابس. حسناً ، هكذا أفهم الأمر أنا أيضاً. ولكن هؤلاء الناس كانوا أشبه بمن هم في بورما أو شأن Afridis. كانوا يطلقون النار حسب رغبتهم ، وحين يكونون في حالة من الضيق ، كانوا يخفون البندقية ويبرزون " التصاريح " أو يقبعون في منزل ويقولون إنهم من المزارعين . مثل هؤلاء المزارعين هم من قضى على قوات مدراس في هليندا تالون في بورما ! مثل هؤلاء المزارعين هم من ذبح "كافانياري صاحب " والأدلاء في كابول! لقد روّضنا أولئك الرجال ، هذا أكيد – خمسة عشر ، بل عشرون ذات صباح دفعوا من الشرفة في بالا هيسار . تطلعت إلى أن يتذكر " جونغ – إي – لا صاحب " (القائد العام) الأيام الغابرة ، ولكن لا . كان الناس كلهم يطلقون علينا النار في كل مكان ، و هو يصدر البيانات التي تقول إنه لن يحارب ضد الشعب ، بل سيحارب جيشاً معيناً ، ولكن ذاك الجيش كان في الحقيقة كل السكان من البوير الذين لم يكونوا يرتدون من البزات [العسكرية]ما يكفي لتغطية العورة . حرب حمقى من البداية إلى النهاية ؛ وإنه لأمر واضح

أن من يقاتل يجب أن يشنق إذا قاتل ببندقية في يد و" تصريح " في الأخرى ، كما فعل هؤلاء الناس جميعاً . و مع ذلك فإننا ، حين نال أولئك الناس كفايتهم في ذلك الحين ، استقبلناهم بشرف ومنحناهم التصاريح و أنعشناهم و أطعمنا زوجاتهم وأطفالهم ، وعاقبنا بشدة جنودنا الذين استولوا على طيورهم . لذلك كان لا بدّ من القيام بالعمل ليس مرة واحدة مع عدد قليل من الموتى ، بل ثلاث أو أربع مرات . تحادثت كثيرا مع "كوربان صاحب" حول هذا الأمر ، و كان يقول : " إنها حرب أصحاب . هذه هي الأوامر ". وفي إحدى الليالي ، حين كمن سيكندر خان خارج حدود المعسكر مع سكينه ، وأراهم كيف يكون العمل على الحدود ، فقد ضربه "كوربان صاحب" بين عينيه و كاد يكسر له رأسه . ثم تحدث سيكندر خان إليه و قد وضع ضمادة فوق عينيه ، حتى لقد بدا كجمل مريض ، ما يقرب من نصف مسيرة ، و قد كان أكثر حيرة مني ، و أخذ على نفسه عهدا أن يعود إلى إشتلنبوش . ولكن "كوربان صاحب" أسرّ إليّ أنه كان علينا أن نفلت السيخ والغورخا Gurkha على أولئك الناس حتى يستسلموا و جباههم في التراب. فالحرب لم تكن من ذلك النوع الذي يفهمونه .

هل كانوا يطلقون النار علينا ؟ بكل تأكيد كانوا يطلقون النار من منازل مزينة بالعلم الأبيض . ولكن حين عرفوا عادتنا ، كانت أراملهم تبعث بالرسائل مع رسل من " الكفيريين " ، و سرعان ما يتوقف إطلاق النار ." لا خوف ! " كل البوير الذين تعاملنا معهم كانوا يحملون " تصاريح " وقعها جنرالات مجانين يشهدون فيها بأن هؤلاء مخلصون للدولة . كانت لديهم أيضاً بنادق ليست بالقليلة ، وكانوا يخبئونها في أسقف المنازل .

بكت النساء كثيراً حين كنا نحرق مثل تلك المنازل ، ولكنهن ما كنّ ليقتربن كثيراً بعد أن تكون النيران قد وصلت إلى السقف المصنوع من القش ، خشية الطلقات المتفجرة . نساء البوير ذكيات جداً . أذكى من الرجال . هل البوير أذكياء ؟ لا ، لا ، أبداً ! بل " الأصحاب " هم الحمقى ! وحتى يحافظوا على شرفهم يكون على "الأصحاب " أن يقولوا إن البوير أذكياء ، ولكن حماقة "الأصحاب" الرائعة هي التي جعلت البوير أذكياء . كان يجب على "الأصحاب " إرسالنا نحن لنلعب تلك اللعبة .

ولكن " الدورو موت " أبلوا بلاء جيداً . لقد تعاملوا بإخلاص مع كل تلك البلاد - ليس كما كان من شأننا نحن الهنود أن نكون قد فعلنا - ولكنهم لم يكونوا حمقى تماماً . في إحدى الليالي حين كنا قابعين فوق قمة تل في البرد ، رأيت من بعيد نوراً في منزل يضاء لفترة سدس ساعة ثم يختفي . في وقت آخر ظهر مجدداً ثلاث مرات خلال جزء من اثني عشر جزءاً من الساعة . و قد جعلت "كوربان صاحب" يرى ذلك ، إذ كان ذلك منزلاً تم استثناؤه ، لأن أصحابه كان معهم الكثير من " التصاريح " و أقسموا ولاء الإخلاص عند معلاق ركابنا . قلت لـ "كوربان صاحب" : " أرسل نصف جماعة يا بني و دمّر ذلك المنزل . إنهم يرسلون الإشارات إلى أخوتهم ." وقد ضحك وهو مضطجع هناك وقال : " لو أصغيت إلى حمّالي أومر سينغ لما بقيت عشرة منازل في كل هذه البلاد . " قلت : " وما الحاجة إلى أن تترك و لو منزلاً واحداً ؟ هذا أمر مشابه لما حدث في بورما . إنهم مزارعون اليوم و مقاتلون غداً . فلنعاملهم كما يستحقون . " ضحك والتوى على نفسه في بطانيته ، ورحت أراقب النور البعيد في المنزل

حتى بزغ النهار . لقد خدمت على الحدود في ثماني حروب علاوة على بورما . الحرب الأفغانية الأولى ، الحرب الأفغانية الثانية ، حربا "محسود وزيري " (هذه أربع) ، حربا الجبل الأسود ، إن كنت أتذكر على النحو الصحيح ، ثم حرب المالاكاند و حرب التيراه. لا أضع في الحسبان حرب بورما أو بعض الأمور الصغيرة . و أنا أعرف متى يرسل منزل إشارات إلى آخر .

دفعت سيكندر خان بقدمي وقد رأى الإشارات أيضا . قال : " يعيش أحد أفراد البوير الذي جلب اليقطين أمس إلى جماعة الإطعام ، ذلك اليقطين الذي قليته الليلة الماضية، في ذلك المنزل ." قلت : " كيف تعرف ؟" قال : " لأنه غادر المعسكر راكباً من طريق أخرى ، ولكنني لاحظت كيف أن حصانه كان يعانده عند منعطف الطريق . وقبل أن يهبط النور انسللت من المعسكر لأجل صلاة المغرب مع منظار "كوربان صاحب" ، و من تلة صغيرة رأيت الحصان متعدد الألوان لبائع اليقطين ذاك يسرع إلى ذلك المنزل ." لم اقل شيئا ، ولكنني أخذت منظار "كوربان صاحب" من يديه المدهنتين ونظفته بمنديل حريري و أعدته إلى علبته . لقد حكى لي سيكندر خان أنه كان أول رجل في " وادي زينب " يستخدم المنظار - وقد وضع حداً لنزاعين دمويين خلال إجازة من ثلاثة أشهر . ولكنه كان كاذباً خلاف ذلك .

في ذلك اليوم أرسل "كوربان صاحب" مع حوالي عشرة فرسان ليستكشف الأرض التي سيقام عليها معسكرنا . كان " الدورو موت " يتحركون ببطء في ذلك الحين . كانوا مثقلين بالحبوب والعلف والعربات ، وكانوا يتمنون كثيرا لو استطاعوا تركها كلها في بلدة من البلدات

ومتابعة المسيرة خفيفين للقيام بالعمل الملحّ. لذلك بحث "كوربان صاحب" عن طريق مختصرة لهم ، تبعد قليلاً عن خط المسيرة . و قد قطعنا اثني عشر ميلاً أمام القسم الرئيسي من القوات ، و وصلنا إلى منزل تحت تل عال مشجر، له واد صغير شديد الانحدار يسمى " دونغا " ، إلى الخلف من المنزل، وله من أمامه بناء عتيق من الحجارة المكومة يسمونه " كرال " [زريبة]كانت شجيرتان من الشوك تنموان على جانبي الباب ، مثل شجيرات السنط [الصمغ] ، و كانتا مغطاتين بزهور ذهبية اللون ، و السقف كله كان من القش . أمام المنزل كان واد من الحجارة يصعد إلى هضبة أخرى مغطاة بالشجيرات . كان هناك رجل عجوز في الشرفة ، رجل عجوز بلحية بيضاء و ثؤلول على الجانب الأيسر من عنقه ، و امرأة بدينة لها عينا خنزير وفك خنزير ، و شاب طويل القامة يخلو من العقل . كان رأسه أقرع ، ليس أكبر من برتقالة ، وكان مرض ما قد أكل منخريه . راح يضحك و يريّق ويعبث مازحاً أمام "كوربان صاحب" . جلب الرجل القهوة و أبرزت لنا المرأة تصاريح من ثلاثة " جنرالات – أصحاب " ، تشهد على أنهم أناس مسالمون ذوو نيات طيبة . هاهي التصاريح ، أيها " الصاحب " . هل يعرف "الصاحب" الجنرالات الذين وقعوا عليها ؟

لقد أقسموا بأن المكان كان خالياً من البوير . رفعوا أيديهم و حلفوا اليمين . كان وقت العشاء قد حان . وقفت قرب الشرفة مع سيكندر خان الذي كان يتشمّم مثل ابن آوى رائحة مفقودة ما . و أخيراً أخذني من ذراعي و قال : " أترى هناك ؛ هناك الشمس على نافذة المنزل الذي أرسل الإشارات في الليلة الماضية . هذا المنزل يستطيع رؤية ذلك

المنزل من هنا ." ثم نظر إلى الهضبة المغطاة بالشجيرات من خلفه ، و استنشق الهواء . عندئذ رقص الأحمق ذو الرأس المنكمشة إلى القرب مني و رمى برأسه إلى الخلف ، و نظر إلى السقف و ضحك مثل ضبع ، و تكلمت المرأة البدينة بصوت مرتفع لتغطي على ضجة ما . بعد ذلك مررت إلى مؤخرة المنزل مدعياً أني أريد بعض الماء لأصنع الشاي ، و شاهدت روث حصان جديداً على الأرض ، و أن الأرض كانت متثلمة بآثار جديدة للحوافر . كانت "فشكة" واحدة قد سقطت في التراب . بعدها ناداني "كوربان صاحب" بلغتنا قائلاً : " هل هذا مكان جيد لصنع الشاي ؟" و أجبت عارفاً ما يعنيه : " هناك الكثير من الطباخين في المطبخ . اركب و امض يا بنيّ. " ثم عدت وقلت مبتسماً للمرأة : " حضّري الطعام ، و حين نكون قد أرخينا سروجنا سنعود لنأكل . " و لكنه قال لرجاله : " ابتعدوا عن هذا المكان ! " لا . لم يوجه بندقيته إلى الرجل العجوز و المرأة البدينة . لم يكن ذلك دأبه . رفع أحد الحمقى من " الدورو موت " صوته ، إذ كان جائعاً ، ليجادل في أمر الهروب ، و قبل أن نركب جيادنا ، انهمرت طلقات كثيرة من السقف : من بنادق أقحمت في السقف المصنوع من القش . عند ذلك سرنا عبر وادي الحجارة ، و أطلق علينا النار رجال من الوادي الصغير شديد الانحدار و كذلك من سقف المنزل – كانت طلقات كثيرة حتى أنها بدت كقرع الطبول في التلال . ثم قال سيكندر خان وقد انحنى فوق حصانه : " هذه اللعبة ليست لنا وحدنا ، ولكنها لبقية الدورو موت . قلت : " اسكت . ابق في مكانك ! " فقد كان مكانه خلفي ، و كنت أسير بحصاني خلف "كوربان صاحب" . ولكن تلك الرصاصات الجديدة كانت قادرة على اختراق خمسة رجال على صف واحد ! لم نصب – و لا واحد منا – ووصلنا إلى تلّ الصخور و تفرقنا

بين الصخور، والتفت "كوربان صاحب" في سرجه وقال: " انظروا إلى الرجل العجوز ! " كان ذاك واقفاً في الشرفة يطلق النار بسرعة من بندقية ، و المرأة إلى جواره و الأبله أيضاً ، و كل منهما يحمل بندقية . ضحك "كوربان صاحب" ، و أمسكت به من رسغه ، ولكن مصيره المحتوم كان قد كُتب في تلك الساعة . مرت الرصاصة من تحت إبطي وأصابته في كبده ، و قد جذبته إلى الخلف بين صخرتين كبيرتين منحدرتين . "كوربان صاحب" ، "كوربان صاحبي ! "من الوادي الصغير شديد الانحدار خلف المنزل و من التلال جاء البوير بأعداد تنوف عن المائة ، وقال سيكندر خان : "الآن نرى معنى إشارة الليلة الماضية . أعطني البندقية " . و أخذ بندقية "كوربان صاحب" – في حرب الحمقى هذه فإن الأطباء فقط هم من يحمل السيوف – وارتمى على بطنه ليسدد ، و لكن "كوربان صاحب" التفت إليه وقال : " اهدأ . هذه حرب أصحاب ." ثم رفع "كوربان صاحب" يده هكذا ثم دارت عيناه في محجريهما باتجاهي و سقيته بعض الماء حتى يموت على نحو أسرع . و مع الماء تلقّت روحه الإذن ...

هكذا جرت حربنا أيها " الصاحب ". نحن " الدورو موت " كنا على القمة نشقّ طريقنا من الشمال إلى الجنوب حيث كان الجزء الأكبر من قوتنا ، وكان البوير في واد يشقون طريقهم من الشرق إلى الغرب . كان هناك أكثر من مائة منهم ، وكان رجالنا عشرة ، ولكنهم استطاعوا أن يبقوا البوير في الوادي وهم يشقون الطريق على امتداد القمة نحو الجنوب . رأيت ثلاثة من البوير يسقطون أرضاً في العراء . ثم اختبؤوا جميعاً وراحوا يطلقون النار بكثافة على الصخور التي كانت

تخفي رجالنا . ولكن رجالنا كانوا أذكياء ولم يظهروا أنفسهم ، إنما راحوا يتحركون مبتعدين ، دائماً باتجاه الجنوب. وقد انسحب ضجيج المعركة جنوباً ، حيث كنا قادرين على سماع صوت المدافع الكبيرة . وهكذا هبط الظلام الحالك ، ووجد سيكندر خان وكراً كبيراً عتيقاً لابن آوى بين الصخور، وفيه زلقنا جثمان "كوربان صاحب" عمودياً . أخذ سيكندر خان منظاره ، و أخذت أنا منديله و بعض الرسائل و شيئاً معيناً كنت أعرف أنه معلّق حول رقبته، وإن سيكندر خان شاهد على أني لففتها جميعاً بالمنديل . ثم أقسمنا اليمين معاً، ولبثنا ساكنين، ورحنا نتفجّع على "كوربان صاحب" . بكى سيكندر خان حتى الفجر ، حتى هو " الباثاني" المحمدي ! و طوال تلك الليلة رحنا نسمع إطلاق النار إلى جهة الجنوب ، وحين انبلج الفجر كان الوادي كله مليئاً بالبوير في عربات وعلى أحصنة. تجمعوا عند المنزل ، كما كنا قادرين على مشاهدتهم عبر منظار "كوربان صاحب" ، و قد راح الرجل العجوز، الذي أظنّ أنه كان قسيساً ، يباركهم ويعظ حول الحرب المقدسة ، ملوّحا بذراعه . وراحت المرأة العجوز تقدم القهوة بينما الأبله يطفر بينهم مرحاً ويقبل جيادهم . في الوقت الحاضر رحلوا مسرعين . ذهبوا إلى الجبال واختفوا . ثم خرج عبد أسود وغسل عتبة الباب بماء لامع . رأى سيكندر خان عبر المنظار أن البقعة كانت دماً ، وضحك قائلا : " يقبع هناك جرحى . لا بدّ من الانتقام ."

حوالي الظهر رأينا دخاناً رقيقاً عالياً باتجاه الجنوب ، وهو دخان أشبه بما ينطلق من منزل يحترق تحت نور الشمس ، وقال سيكندر خان الذي يعرف كيف يشق طريقه عبر جبل : " أخيراً أحرقنا منزل بائع

اليقطين الذي انطلقت منه الإشارة ." قلت :" ما الفائدة الآن وقد ذبحوا ابني ؟ دعني أتفجّع ." كان الدخان عالياً ، و خرج الرجل العجوز ، كما رأيت ، إلى الشرفة ليراه ، وهزّ قبضتيه باتجاهه . وهكذا قبعنا حتى الشفق دون طعام أو ماء ، فقد كنا قد أقسمنا على الصوم عن الأكل أو الشرب حتى ننجز المسألة . كان لا يزال معي القليل من الأفيون ، فأعطيت منه سيكندر خان النصف لأنه كان يحب "كوربان صاحب" . وحين حلّ الظلام شحذنا سيوفنا على صخرة طرية معينة ، وهي إذ تمزج مع الماء تشحذ الفولاذ جيداً ، وخلعنا أحذيتنا و مضينا إلى المنزل ونظرنا عبر النوافذ بهدوء شديد . كان الرجل العجوز جالساً يقرأ في كتاب بينما تجلس المرأة عند المدفأة ؛ أما الأبله فكان مضطجعاً على الأرض ورأسه على ركبتها ، وكان يعدّ أصابعه و يضحك ، و تضحك هي ثانية . لذلك عرفت أنهما أم وابن، وضحكت أنا أيضاً ، فقد كنت قد ظننت ذلك حين طالبت سيكندر خان بحياتها وجثتها لدى مناقشتنا مسألة الغنائم . ثم دخلنا بسيوفنا المجردة ...وبالفعل ، فإن هؤلاء البوير لا يفهمون الفولاذ ، فقد أسرع الرجل العجوز نحو البندقية التي في الزاوية ، ولكن سيكندر خان صدّه بضربة من سطح السيف على يديه ، فجلس أرضاً و رفع يديه ، ووضعت أصابعي على شفتيّ لأشير لهم أن يصمتوا . ولكن المرأة بكت و تحرك شخص ما في غرفة داخلية ، وفُتح باب ، ووقف رجل ، ملفوف الرأس بخرق ، يعبث بمسدس بكل غباء. سقط رأسه كله داخل الباب ، و لم يتبعه أحد . كانت ضربة جميلة جداً من شخص باثاني . ثم هدؤوا ، وراحوا يحدقون إلى الرأس الذي على الأرض، وقلت لسيكندر خان : " أحضر حبالاً ! لن ألوّث

سيفي حتى لأجل كوربان صاحب . " وهكذا ذهب ليفتش عن حبال وعاد مع ثلاثة حبال طويلة من الجلد، وقال : " هناك أربعة جرحى مضطجعون في الداخل ، ولا شك أن كل واحد منهم يحمل تصريحاً من جنرال " ، ثم مط الحبال وضحك . ربطت يديّ الرجل العجوز خلف ظهره وكذلك يدي الأبله دون رغبة، فقد ضحك في وجهي وكاد يعبث بلحيتي . عندها عادت المرأة ذات عيني الخنزير وحنك الخنزير نحو الأمام ، و قال سيكندر خان : " هل أضرب أم أوثق ؟ كانت ملكاً لك عند القسمة ." قلت : " أمسك ! لقد صنعت سلسلة لربطها . افتح الباب . " دفعت الاثنين عبر الشرفة إلى الظل الأشد عتمة لشجرات الشوك ، وقبعت هي على ركبتيها وتمددت على الأرض، و راحت تعبث بأصابعها بحذائي و تعوي . ثم حمل سيكندر خان المصباح قائلاً إنه كبير الخدم و يودّ أن ينير المنضدة . وقد بحثت عن غصن يحمل الفاكهة . إلاّ أن المرأة أعاقتني كثيرا بصراخها وحركاتها، و راحت تتحدث بسرعة بلغتها ، فأجبتها بلغتي : " أنا ثاكل الليلة بسبب غدركم ، و ابني كان ممدوحاً بين الرجال ومحبوباً من النساء . كان سينجب رجالاً و ليس حيوانات . أمامك سنوات تعيشينها أكثر مما لديّ ، ولكن حزني هو الأعظم ."

انحنيت لأتأكد من الأنشوطة على رقبة الأبله ، ثم رميت نهاية الحبل فوق الغصن، ورفع سيكندر خان المصباح حتى ترى هي جيداً . و لكن ظهرت فجأة ، قليلاً خلف نور المصباح، روح "كوربان صاحب" . كان يرفع يده إلى جنبه، حيث أصابته الرصاصة ، ويرفع الثانية أمامه هكذا ، وقال : " كلا . إنها حرب أصحاب !" و قلت : " انتظر قليلاً يا بنيّ ، و سوف تنام ." ولكنه اقترب أكثر، ممتطياً، نحو عبنيّ وقال : " كلا .

إنها حرب أصحاب ". وقال سيكندر خان : " هل هو ثقيل جدا ؟" ثم وضع المصباح و رجع إليّ . و بينما كان يستدير ليرقب الحبل ، وقفت روح "كوربان صاحب" ضمن مسافة ذراع منّا ، و كان وجهه غاضباً جداً ، وقال للمرة الثالثة : " كلا . إنها حرب أصحاب !" و هبت ريح صغيرة أطفأت المصباح ، وسمعت أسنان سيكندر خان تصطك في رأسه.

لذلك بقينا جنباً إلى جنب والحبال في أيدينا ، لفترة طويلة جداً ، لأننا لم نستطع التلفظ بأي كلمات . ثم سمعت سيكندر خان يفتح زمزميته و يشرب . وحين أطفأ ظمأه ، مررّها لي و قال : " نحن في حلّ من قسمنا ." لذلك شربت و انتظرنا معاً الفجر في ذلك المكان الذي كنا نقف فيه، والحبال في أيدينا . بعد أن صاح ثالث ديك سمعنا حوافر الخيل و عربات المدافع من بعيد جداً ، وما أن وصل النور انفجرت قذيفة على عتبة المنزل ، وسقط سقف " الأنداه" المغطى بالقش و احترق أمام النوافذ . و قلت : " ماذا عن البوير الجرحى في الداخل ؟" وقال سيكندر خان : " لقد سمعنا الأمر . إنها حرب أصحاب . قف هادئاً ." ثم وصلت قذيفة أخرى: خط جيد ولكنه قصير ، و نثرت الغبار علينا حيث كنا نقف . ثم وصلت عشر من القذائف الصغيرة السريعة من المدفع الذي يتكلم مثل شخص فأفاء : أجل ، يسميه " الأصحاب " : "بومبوم" ، و انهارت مقدمة المنزل مثل أنف و ذقن رجل عجوز مهمهم ، ثم سقطت واجهة المنزل . ثم قال سيكندر خان : " لو كان مصير الجرحى الموت في الحريق ، فلن أمنع ذلك ." ثم مرّ نحو مؤخرة المنزل و عاد ووراءه أربعة من البوير الجرحى ؛ كان اثنان منهم لا يقدران على المشي منتصبين. وقلت : " ما الذي فعلته ؟ " فقال : " لم أحادثهم و لا

وضعت يدي عليهم . لقد تبعوني على أمل الرحمة ." قلت : " إنها حرب أصحاب ". فلينتظروا الرحمة من الأصحاب ". و هكذا تمددوا بهدوء ، الرجال الأربعة و الأبله و المرأة البدينة ، تحت شجرة الشوك ، و راح المنزل يحترق بضراوة . ثم بدأ الصوت المألوف للخراطيش يصدر عن السقف : واحدة أو اثنتان في البداية ، ثم سيل منها ، وأخيراً ضجة عالية واحدة وطار السقف هنا وهناك ، وراح الأسرى يزحفون جانباً من شدة الحرارة التي كانت تذبل أشجار الشوك ، وكذلك بسبب قطع الخشب والآجر التي كانت تتطاير عشوائياً . ولكني قلت : " هدوءاً ! هدوءاً ! كونوا أصحاباً، وهذه حرب أصحاب ، يا أيها الأصحاب " . لا يوجد أمر يقول إن عليكم أن تغادروا هذه الحرب ." لم يفهموا كلماتي . و مع ذلك فقد انصاعوا للأمر وعاشوا .

والآن وصل خمسة من فرسان " كوربان صاحب" ، و كان أحدهم يتكلم لغتي ، إذ كان قد أبحر من كلكوتا مراراً مع الأحصنة . لذلك حكيت له حكايتي كلها ، مستخدماً لغة السوق التي يفهمها نوعه من "الأصحاب ". و في النهاية قلت : " لقد وصلنا أمر من الأموات بأن هذه حرب أصحاب . و أنا استشهد بروح كوربان صاحبي لتشهد على أني أسلم إلى عدالة الأصحاب هؤلاء الأصحاب الذين أثكلوني ." ثم أعطيته الحبال وسقطت دون إحساس ، و قلبي مترع بالأسى ، و لكن بطني كانت فارغة ، باستثناء ذلك المقدار الضئيل من الأفيون .

وضعوني في عربة مع أحد الجرحى ، وبعد فترة فهمت أنهم كانوا يقاتلون البوير منذ يومين و ليلتين. كان الأمر كله مصيدة كبيرة ، أيها " الصاحب " ؛ ونحن مع " كوربان صاحب" ، لم نشهد منها سوى الحافة

الخارجية . كانوا غاضبين جداً، " الدورو موت "، غاضبين جداً بالفعل . لم يسبق لي أن رأيت أصحاباً بهذا الغضب . و قد دفنوا " كوربان صاحب" حسب طقوس معتقده فوق القمة المطلة على المنزل ، وتلوت أنا الصلوات الملائمة للمعتقد ، وصلى سيكندر خان بأسلوبه وسرق خمس شمعات إشارة ، لكل واحدة منها ثلاث فتائل ، وأنار القبر و كأنه قبر وليّ في يوم جمعة . بكى بمرارة شديدة طوال تلك الليلة، وبكيت معه ، وأمسك بقدميّ ورجاني أن أمنحه ذكرى من " كوربان صاحب" . لذلك قسمت أحد مناديل " كوربان صاحب" إلى نصفين – ليس المناديل الحريرية ، فتلك أعطته إياها امرأة معينة . كما أعطيته زراً من معطف و حلقة فولاذية لا قيمة لها كان " كوربان صاحب" يضع فيها مفاتيحه ، وقد قبلها ووضعها في صدره . و لديّ البقية هنا في هذه الرزمة الصغيرة ، وعليّ أن أحصل على الأمتعة من الفندق في كيب تاون : أرسلنا أربعة قمصان للغسيل ، ولكننا لم نستطع انتظارها حين توغلنا في البلاد . وعليّ أن أعطيها جميعاً إلى "الكولونيل – صاحب" خاصتي في سيالكوت في البنجاب ،.إن ابني قد مات : "بابا"ي قد مات !....

كنت أستطيع القدوم من قبل ؛ فما كانت هناك حاجة إلى البقاء ، فالابن قد مات . و لكننا كنا بعيدين عن السكة الحديدية ، وكان " الدورو موت " أشبه بالأخوة لي ، وكنت قد بدأت أنظر إلى سيكندر خان على أنه صديق نوعاً ما ، وقد حصل لي على حصان و ركبت معهم . ولكن الحياة قد غادرت . و الله يعلم ما كانوا يسمونني : حاجباً أو " تشابراسي " (مراسلاً) أو طباخاً أو كنّاساً ، لم أعرف و لم أكترث . ولكني عرفت

السرور ذات مرة . عدنا خلال شهر بعد جولات واسعة إلى ذلك الوادي نفسه . كنت أعرفه حجراً حجراً ، وذهبت إلى القبر ، وكان " صاحب" ماهر من "الدورو موت " (تركنا مجموعة واحدة هناك لمدة أسبوع لترويض أولئك الناس أصحاب التصاريح) قد نقش كلمات على صخرة عظيمة . و قد ترجموها لي ، وكانت نكتة من شأن " كوربان صاحب" نفسه أن يحبها . أوه ! لديّ الكلمات منسوخة هنا جيداً . اقرأها بصوت عال أيها " الصاحب " ، وسوف أشرح النكات. هناك اثنتان جيدتان هنا . ابدأ أيها " الصاحب " :

في ذكرى

وولتر ديسيز كوربين

الكابتن المرحوم من فوج فرسان البنجاب الواحد والأربعين بعد المائة

هذا هو الغورغاون ريسالا . ، تابع أيها " الصاحب " .

الذي قتل غيلة و غدراً قرب هذا المكان

بتواطؤ من المرحوم

هندريك ديرك أويس

قسيس من قساوسة الرب

أقسم ثلاث مرات قسم الحياد

و ابنه بايبت

هذا النصب الصغير

آهه ! هذه هي النكتــة الأولى . على " الصــاحب " أن يرى هذا النصب الصغير !

قد أُنجز جزئياً
وكاعتراف غير ملائم بخسارتهم
من قبل بعض الرجال الذين أحبوه.

هذه هي النكتـة الثـانيـة . وهي تعـني أن أولئك الذين سيـرغبـون بالنظر إلى نصب تذكـاري مـلائم لأجل "كـوربان صـاحب" عليـهم أن ينظروا إلى المنزل . و يا أيها "الصاحب" المنزل لم يعد موجوداً ولا البئر و لا الخزان الكبير الذي يسمونه سداً ، ولا أشجار الفاكهة الصغيرة ولا القطيع . لا يوجد أي شيء إطلاقاً أيها "الصاحب" ، عدا شجرتين أذوتهما النار . والبقية أشبه بالصحراء هنا - أو هي أشبه بيدي - أو بقلبي . خواء أيها " الصاحب" - الكل خواء !

الأسير

(١٩٠٢)

" من يؤمن لن يسرع" - إشعيا

قبع زورق الحراسة عبر مدخل المسبح وراح أفراد طاقمه يصفعون الماء بكسل بمجاذيفهم . جلس جندي من الميليشيا بمعطف أحمر ، وبندقيته في يده ، عند مقدم الزورق كما جلس ضابط صف عند مؤخره. بين مركب المؤن ثلجي البياض والصخور المسطحة الرأس عسلية اللون على الشاطئ راح أسرى حرب بأجساد لها لون قرنفلي كالقريدس يستحمون معكرين المياه الخضراء . خلف مخيمهم الصفيحي المنتظم وأعمدة الإنارة الكهربائية برزت تلك الدعائم المبقعة بالحجارة التي ترمي بالحرارة على سايمونزتاون . إلى الأسفل من ذلك كانت السفينة الصغيرة " باراكوتا" تومئ إلى [سفينة]" جبل طارق " الضخمة و [سفينة]" بينيلوبه " العجوز التي كانت خلال عشر سنوات نادياً للعزاب ومتحفاً للتاريخ الطبيعي وروضة أطفال وسجناً، متجذرة ومثبتة بحبال مرساتها. إلى البعيد كانت ناقلة أطلسية ذات مداخن ثلاث لها مقدم ضيق ومؤخر يتهادى من البحر العميق .

قال الخفير الواثق من حسن نية الزائر : " تحدث إليهم . تستطيع التحدث إلى أي واحد منهم يتكلم الإنكليزية. ستجد الكثيرين منهم يتكلمونها ."

بين هنا وهناك كانت مجموعة جدية تتجمع من حول قساوسة الكنيسة البروتستانتية الهولندية الذين كانوا يعظون دون شك حول الوفاق ، إلا أن الأكثرية فضلت الاستحمام. لقد جعل " الرب الذي يهتم بالأشياء الصغيرة " الزائر في ذلك اليوم يتلقى بريداً متأخراً منذ أسبوعين في طرد واحد من ساعي بريد عرضي ، وكانت الرزمة الثقيلة كلها من الصحف المربوطة بشريط ومدلاة من يده كالطعم . عند حافة الشاطئ جلس رجل بني الشعر نحيل بساقين متصالبتين عارياً إلا من قميصه السماوي اللون يحرس دزينة من أكوام الملابس. راحت عيناه تلاحقان السفينة الأطلسية القادمة .

قال دون أن يلتفت (وكشفت لهجته جنسيته) : " عذراً أيها السيد. هل لك أن تبتعد عن هذه الملابس؟ لقد انتخبت حاجباً : بالاقتراع الهولندي ."

انتقل الزائر مقابل حاجز الأسلاك الشائكة وجلس ليقرأ بريده . ولدى سماعه حفيف أغلفة الصحف التفت الرجل بني الشعر بسرعة ، وقد بدا في عينيه الرماديتين الحديديتين المتقاربتين جوع المحروم من الصحافة .

قال الزائر : " هل لك حاجة إلى الصحف ؟"

" هل لي حاجة ؟ " كانت سبابة سريعة ملتوية قد سبق لها وراحت تعبث بالأغلفة الخارجية ." عجباً ! هذه سمة بريد نيويورك ! أعطني الإعلانات في آخر صفحة من ((هاربرز)) و ((م. كلورز)) وسأكون على صلة ببلد الرب مجدداً ! هل تعرف كم كنت تواقاً إلى صحف ؟"

روى الزائر حكاية ساعي البريد العرضي.

قال ذو الشعر البني المتحمس ككلب الصيد في إنجاز مهمته : " عناية إلهية ! من حيث الوقت والموضوع . أجل! ... ((المجلة العلمية الأمريكية)) مرة أخرى ! أوه ، هذا جيد ! هذا جيد!" انهار صوته وهو يضغط بأنفه الأشبه بمنقار الصقر على مواصفات براءة الاختراع المطبوعة بحبر داكن ." هل أستطيع الاحتفاظ بها ؟ شكراً- شكراً! عجباً ، عجباً، حسناً، حسناً ! ((مجلة أمريكان تايلر)) بين كل الأشياء التي خُلقت! هل أنت مشترك فيها ؟"

قال الزائر وهو يومئ برأسه : " أنا على اللائحة المجانية ".

مدّ يداً مصبوغة بالأزرق وذلك بسيماء تلك الرحابة " الشرقية " التي تميز الأمريكي المولد في أمريكا، وصافح يد الزائر بخبرة . " كل ما أستطيع قوله هو أنك عاملتني كأخ (أجل سآخذ كل واحدة تستطيع الاستغناء عنها) ، وإذا حدث ..." راح يمسك بصدر قميصه : " هاهه ! لقد نسيت أني لا أحمل بطاقة زيارة ، ولكن اسمي هو زيغلر - لافتون أو. زيغلر . أمريكي ؟ إن كانت أوهايو لا تزال ضمن الاتحاد ، فأنا أمريكي يا سيدي . ولكني لست من المتطرفين المطالبين بحقوق الولايات . لقد استخدمت كل بلدي الأصلي وبضعة بلدان قليلة أخرى حين وجدت الفرصة، والآن أنا أسير قوسكم ورمحكم. لا أعترض على ذلك . لست أجنبياً مكرهاً، ولا سائس بغال تكساسي، ولا مغامر على خطة الأقساط . لا أطارد قنصلنا حين يأتي متوقعاً من النسر الأمريكي أن ينشلني بعيداً عن هذا من حزام بنطالي. لا يا سيدي ! لو دخل بريطاني المناطق الهندية [في الولايات المتحدة الأمريكية]وأطلق النار على ما حوله بمسدس كولت آلي (ليس أنّ هذا أي نوع من السلاح،

ولكن أورده كمثال توضيحي)، فسوف يشنق على نحو أسرع من ذوبان رقاقة ثلج في الجحيم. لن يكون في وسع أي سفير من سفرائكم إنقاذه. أراهن بعنقي على هذه اللعبة على أي حال . هكذا أنظر إلى الاقتراح .

" هل حاربت البريطانيين بمدافعي ؟ إلى حد ما . أفترض أنك لم تسمع قط بمدفع الميدان الآلي عيار بوصتين المسمى ((لافتون زيغلر)) ذاك الذي له جهاز تلقيم ذاتي التغذية وارتداد فردي وأسطوانة زيتية ومسننات ذات محامل كروية بالكامل ؟ أو هل سمعت بـ ((لافتايت))، تلك المتفجرة الجديدة ؟ المتسقة على نحو مطلق من حيث التأثير والتي لها حجم يعادل تُسع حجم أي شحنة عقيمة حالية – رقائقية، مدفعية ، كوردايت [١] ، ترويسدورف، سيلولوز، كاكاو ، فتيل أو موشور – لا يهمني ما هو . ((لافتايت)) متفجرة هائلة، وكذلك مدفع زيغلر الآلي . إنه أنا. إنه خمسة عشر عاماً من حياتي. ألستَ خبيرا في المدافع ؟ آسف . كان بإمكاني مفاجأتك . لولا مدفعي لكانت حكايتي غير ذات قيمة . أشكرك، ولكني لا أستخدم أي تبغ قد يكون في حوزتك ... ((بول ديرهام)) ؟ بول ديرهام! أتراجع عن كل ما قلته : كل كلمة أخيرة. بول ديرهام – هنا ! لو حصل وزرتَ آكرون في أوهايو حين تنتهي حرب الحمقى هذه، فتذكر أن لافتون أو. زيغلر في جيب صدارك. بما فيه مدينة آكرون . لدينا ناد صغير هناك ... يا للجحيم ! ما معنى التحدث عن آكرون دون بنطال ؟

" مدفعي ؟ ... لقاء سنتين اثنين كنت سأشحنه إلى الفيليبين خاصتنا. كدت أفعل ذلك تقريباً، ولكن ممّا قرأته في الصحف، لا

تستطيع أن تثق بجمهرة 'أغوينالدو' [٢] فيما يخص القضايا العلمية؟ لماذا لا أعرضه على جيشنا ؟ حسنا، لديكم أرستقراطية عاجزة تدير جيشكم، ولدينا حشد من السياسيين. والنتائج متطابقة عملياً. لا أقبل بأي جيش أمريكي ضمن جيشي الخاص.

" ذهبت إلى أمستردام مع مدفعي - إلى تلك الطغمة العسكرية الهولندية التي يفترض أنها تدير الحرب. لم أنشأ على حب البريطانيين من ناحية، ومن ناحية أخرى كنت أعرف أنه لو أن مدفعي كان سيؤدي عمله الجميل، لكنت أكثر حظاً في استلام تقرير غير متحيّز من حشد من الضباط البريطانيين الحمقى الملاعين من أن أستلمه من حفنة من أبناء أخوة رجال السياسة الذين يؤدون مهمتهم كمفوضين وخبراء مدفعية. وكما قلت فقد وضعت الرجل الأسمر خارج المسألة. هكذا نظرت إلى الاقتراح.

" الهولنديون في هولندا لا يساوون صفاً من الدبابيس. ربما أخطأت في الحكم عليهم . ربما تعرضوا للغش مرات عديدة من قبل مغامرين أنانيين حتى أضحوا لا يعرفون الشخص المتحمس حين يرونه . وعلى أي حال فإنهم أبطأ من ((غضب الرب)) . ولكن حول الأوهام المتعلقة بانتصارهم في يوم الخميس من الأسبوع القادم الساعة ٩,٠٠ صباحاً، فإنهم بريطانيون تماماً إن كان يحق لي قول ذلك.

" سأحكي لك شيئاً غريباً أيضاً. لقد حاربتهم عشرة أيام قبل أن أستطيع تدبير الجانب المالي من لعبتي حسب ما أريد . عرفت أنهم لم يثقوا بالزيغلر، ولكن لم يكن لديهم مبرر ليكونوا مجانين بخلاء. لقد تدبرت الأمر : مرور حر وشحن لي وللمدفع من خليج ديلاغوا ثم إلى ما

ورائه بالباخرة والسكة الحديد. ثم صعدت إلى متن السفينة لأرى المدفع يوضع في صناديق، وهناك صافحت كل الزملاء من الركاب : كلهم طفيليون مثلي. حسنا يا سيدي، عدت أدراجي وأمطرت مكتب البطاقات بالأسئلة، وقلت : ((أنظر إلى هنا يا فان دنك. أدفع لقاء مروري ولقاء مكان للمدفع في عنبر السفينة، أجل لقاء كل قدم مربع ومكعب)). أعتقد أنه خفض الأجرة بنفسه. ولكني دفعت. دفعت. لم أكن لأتطفل مع ذلك الحشد من نفايات عيد العنصرة. كان من شأن ذلك أن يجلب الحظ العاثر لمدفعي. هكذا نظرت إلى الاقتراح. لا يا سيدي، لم يكونوا رفقة طيبة.

" حين وصلنا بريتوريا عانيت الكثير محاولاً أن أجلب اهتمام الهولنديين إلى مدفعي وإمكانياته. كان كروغر [٣] يتسول قليلاً ويسرق قليلاً ، والهولنديون يغنون :((إن لم يكن لديك المال فلا حاجة بك إلى الحضور)). لم يكن هناك من ينفق دراهمه على أي شيء باستثناء البطاقات إلى أوربا . كنا مهملين نحن الاثنين إلى حد كبير. حين أفكر الآن كيف اعتدت أن أقدم عروضا في الشوارع العامة بطلقات زائفة ، فأملأ جهاز التلقيم وأدير المقبض حتى أتصبب عرقا ، وأحمر خجلاً يا سيدي. لقد جعلت المدفع يعرض أفعاله المثيرة أمام الكفيريين [٤] - أولاد حام العراة - في ((شارع المفوض)) ، محاولاً الحصول على موضع قدم في مكان ما.

" هل تكلمت ؟ أحتقر المبالغة- ليست لا أمريكية ولا علمية - ولكن جولة تيدي روزفلت [٥] كانت تنهيدة فتاة عذراء بالمقارنة مع عملي في الدعاية ، وهذا الأمر صحيح صحة جلوسي هنا مثل سعدان

البابون أزرق المؤخرة في واد صغير ضيق شديد الانحدار.

" بعد فترة طويلة من بداية الربيع أنقذني الكومندان المسمى ((فان زيل)): رجل ضخم بدين برجل عرجاء. لو استثنيت شعره ومسدسه لكان حرياً بأن يكون صاحب حانة من الصنف الأول في شنكتادي (٦) . لقد وجدني ومدفع الزيغلر على مرج ذي أشجار متناثرة (لم تكن بريتوريا مأمونة في ذلك الحين) ، وقد ألحقني بأسلوب أشبه بمن يسير في نومه. كان ضد الحرب بقوة منذ البداية ، ولكن كونه هولندياً جعله يحارب على نحو أفضل بكثير من بقية جماعة ((الله والماوزر)) . أدريان فان زيل . كان هذا ينام نوماً ثقيلاً في النهار – ولم يكن يحب الزنوج. أنا أحببته . كنت الأجنبي الوحيد بين فدائييه . أما البقية فكانوا من جورجيا وبنسلفانيا من أصل هولندي ، مع محام نشيط من فيلادلفيا. أستطيع أن أحكي لك عنهم أموراً ستدهشك ، ولكني أعتقد أن أفكارهم عن الجغرافيا هي الأشد جنوناً. أعتقد أن هذا نوع من التعويض الآلي. لم تكن هناك تلة نمل لعينة في منطقتهم لم يكونوا يعرفونها ويستخدمونها ، ولكن العالم كان مسطحاً كما يقولون، وكانت إنكلترا على مسافة يوم من كيب تاون .

" كانوا يقاتلون بطريقتهم الخاصة ولا تنس ذلك .ولكني أعتقد أنك لن تنسى. لقد قاتلوا ليَقتلوا ، ومما عرفته، فإن البريطانيين قاتلوا ليُقتلوا. لذلك أدى الطرفان الخدمة الواحد للآخر .

" أنا أسير قوسك ورمحك يا سيدي. للمنصب التزاماته : على كلا الجانبين. لا يمكنك أن تكون عدوانياً تجاهي ومواليا لي في آن معاً. لا يمكنني للسبب نفسه أن أكون عدوانياً تجاهك. لذلك، لن أقول لك آرائي

حول كيفية تصريفكم لأمور الحرب.

" على أي حال، لم أخض ميدان القتال كمشايع عدواني بل كمخترع . كان ما واجهني شرطاً وليس نظرية. (نعم يا سيدي ، أنا ديموقراطي [يقصد من الحزب الديموقراطي الأمريكي]من حيث القناعة ، وكان هذا واحداً من أفضل الأمور التي بدأها غروفر كليفلاند(٧)).

" بعد رحلة دامت ثلاثة أشهر ، فإن العجوز فان زيل كان قد جهز فدائييه جيداً وتفوق على البريطانيين ، وقد اعتقد أن عليه أن يزور جنرالاً بريطانياً من معارفه كان يقوم بتجارته ضمن دائرة بين ستومبسنيوك، جاكهالبوتس، فريليغان وأودندالشتروم، فيعمل سنة ويرتاح سنة. كان هو من الملامح الدائمة لذلك القطاع.

" يقول فان زيل : ((إنه رجل طيب جداً وصديق لي. لقد أرسل لي طبيباً جيداً حين جرحت وأراد طبيبنا الهولندي أن يبتر ساقي . أجل، أعتقد أننا سنبقى معه)). وحتى ذلك التاريخ، عشنا أنا وزيغلري [مدفعي]في حال من البطالة الحميدة بسبب بقايا صغيرة في نقطة عطالة. كيف كنت سأعرف بحق الرعد أنه لم يكن في البلاد كلها ولا حتى شبح لطريق ؟ ولكن الجلد المدبوغ رخيص ويدوم. أعتقد أني سأجعل مدفعي القادم أثقل بألف باوند على أي حال.

" حسناً يا سيدي ، لقد ضربنا الجنرال وهو يسلك طريقه المعتاد – كان ذلك في فرليغن – وافتتح حشدنا التحيات المعتادة من مسافة ألفي ياردة. هزّ فان زيل نفسه في سرجه العتيق المشحّم وقال : ((والآن سأكون سعيداً تماماً يا سيد زيغلر . لا مزيد من الجر بالثيران. اثنا عشر ميلاً فحسب في اليوم الواحد حتى ينضج المشمش)).

" ثم تقدمنا نحو قواعده الأمامية ورقبائه من الحرس والفرسان القوزاق أو مهما تكن تسميتهم ، وقد تجولنا من حول المرج ذي الأشجار المتناثرة وذراعي في ذراعه كأننا آخوان.

" والطريقة التي عملنا بها كانت كما يلي : كان الجنرال يتناول إفطاره في الساعة ٨,٤٥ صباحاً بالضبط. كان من شأنه أن يكون قطار لونغ آيلند [لشدة دقته]في الساعة ٨,٤٢ صباحاً كنت أهبط إلى عبارة الشارع الثالث والأربعين لمقابلته - أعني كنت أجعل الزيغلر يتمركز عند النقطة ٢٠٠٠ (كنت بدأت بـ ٣٠٠٠ ولكنها كانت باردة وبعيدة) - ورميت به حمولة جهازي تلقيم كاملين - ثماني عشرة طلقة - وذلك بالضبط حين كانوا يجلبون له القهوة. لو كان حشده مشغولاً بالاحتفال بالذكرى السنوية لواترلو [٨] أو بعيد ميلاد آخر طفل للعائلة المالكة، لكانوا سيردون عليّ بمدفعين (سأحكي لك عن ذلك لاحقاً)، ولكن لو كانوا منسحبين من المعركة، لكانوا ثبتوا جميعاً على صهوات جيادهم وراكموا الخردوات والفلكات والآلات الكاتبة وطعاماً يكفي لخمسة أيام ، وخلال نصف ساعة كان من شأنهم أن يطاردوني وبقية فتيان فان زيل. كنا نمكث في أماكننا ونتابع إطلاق النار حتى الساعة١١,٤٥ صباحاً أو منتصف النهار. ثم كنا ننتقل من الكدح إلى تناول وجبة خفيفة، ونعود لنستأنف في الساعة ٢,٠٠ بعد الظهر ، ونتقاتل حتى موعد شرب الشاي . كان يوما الثلاثاء والجمعة هما يوما التحرك لدى الجنرال . كان يتحرك ببطء مسافة عشرة أميال أو اثني عشر ميلا ، وكنا نتسكع من حول جناحيه ونجعل أفراسنا تتريض قليلاً. أحياناً كان يعلق في مسيل ما- يتوقف وهو يعبر مكاناً ضيقاً -

وكنا نشن عمليات اختطاف عابثة لعرباته. وحين حدث ذلك لأول مرة وجهت الزيغلر بحرية وبآمال كبيرة يا سيدي ، ولكن الرجل العجوز كان في وضع جيد في المؤخرة مع مدفع ، وكان عليّ أن أدفعه بثلاثة بغال بدلاً من ستة . كنت مجنوناً تماماً. لم أكن أتطلع إلى أي خبراء خلف المدفعية الملكية البريطانية. وإلاّ فان اللعبة كانت في معظمها عادلة. كان يصرع ثلاثة أو أربعة من فدائيينا بضربة صاعقة وكنا نقتل أربعة أو خمسة من جنوده مرة في الأسبوع أو نحو ذلك. في إحدى المرات، كما أذكر، قبل الغسق بفترة طويلة، رأيناهم يدفنون خمسة من فتيانهم. وقفوا محتشدين من حول القبور. لم نكن نبعد عنهم مسافة تزيد عن ألف وخمسمائة ياردة، ولكن فان زيل العجوز رفض إطلاق النار. رفع قبعته في الوقت الملائم. قال لو قتلت إنساناً وهو يصلّي فسيكون عليك أن تحمل حظه السيئ لتواجه به ((العرش)) وحظك السيئ أيضاً . وهكذا مرت الأسابيع بالتسكع . إن خبيراً حربياً كان من شأنه أن يحكم عليها بأنها حرب لطيفة، ولكنها كانت ملائمة لمخترع شأن لافتون أو. زيغلر يحتاج إلى تدريب في يوم وسلام في اليوم التالي ليدقق في نظرياته .

" وإنها لحرب ودية ؟ ليست الودية بالكلمة الملائمة . كنا رفاق سلاح.

" عجباً، كنت أعرف ذينك المدفعين خاصة ((سلاح المدفعية البريطانية الملكي)) كما أعرف الشارع الخامس . كان يمكنهما أن يكونا أخوين أيضاً.

" كانا يرتجّان خلال الإطلاق ، ويتهزهزان وينزلقان ويسعلان

ويتحركان إلى الخلف مجدداً خلال ساعات المعركة الدموية حتى كنت أستطيع البكاء يا سيدي ، من مشهد الرجال البيض المعاصرين المقيدين إلى تلك الآلات القديمة الحاصدة التي تدار باليد ، عتيقة الطراز، المصنوعة من الصوان والفولاذ . أحدهما – وقد أسميته 'الأصلع' –كانت له ندبة بيضاء طويلة على امتداد سبطانته – كنت قد تأكدت منه عشرين مرة . كنت أعرف طاقمه بالنظر، ولكنه كان يخرج متمايلاً مترنحاً من غبار قذائفي مثل – مثل دجاجة من تحت عربة – ثم كان يسقط في أخدود، ولا تراه إلاّ وهو قد عاد ليحشر أنفه العتيق من فوق الحافة يتشمم بحثاً عنا. كان للمدفع الآخر رفيق الأول بغلان رماديان في المقدمة، ودولاب من خشب طبيعي أعيد طلاؤه، ومجموعة كاملة من الحبال تتعقبه. هل سبق لك ورأيت ((توم ريد))' (٩) وقد خلع صدارته وهو يقود الكونغرس خلال موجة من الحر؟ لقد سبق لي وزرت واشنطن مرات عديدة – عديدة جداً – لأسجل براءات اختراعي. لقد أسميت ذلك المدفع ((توم ريد)). كنا نحن الثلاثة نلعب لعبة ((القطة التي تبحث عن زاوية)) حول كل المراكز المتقدمة في أيام الراحة– جولات مرور عبر نباتات المريمية وعلى امتداد ((الميزاس)) حتى تعيقنا الوديان . أوه ، كان الأمر رائعا بالنسبة إليّ وإلى ((الأصل)) و((توم ريد))! لا أعرف وذلك لأننا أهملنا المصالح الشرعية لفدائيينا ذوي الصلة لقاء هذه اللعبة بالكرة. أنا أعرف أني فعلت ذلك.

" قبل الخريف بوقت طويل أصبحت ' المدفعية الملكية البريطانية' خجولة – علقت في مؤخرة السبطانة – وأصبحت نيرانها بعيدة جداً عن الهدف. لاحظت أنهم لم يكونوا يغامرون ، رغم أني كنت أعمل تحت

موقعهم مباشرة.

" ذكرت ذلك لفان زيل، لأني ظننت أني قد ضربت روحهم المعنوية الملكية البريطانية بالطول والعرض.

" ((لا))، يقول وهو ويهز نفسه كالعادة فوق صهوة فرسه .((والكابتن مانكلتاو خاصتي مريض . هذا كل ما في الأمر.))

" قلت له: ((إذن هي مدافع الكابتن مانكلتاو خاصتك، ولكني سأجعله أكثر مرضاً قبل أن يتعافى.))

" يقول فان زيل : ((لا ، لقد أصيب بالحمى التيفية قليلاً . والآن هو في حال أفضل، وقد أخرج من المستشفى في جاكهالبوتس. آه ، مانكلتاو ذاك! إنه يجعلني أضحك كثيراً وعلى الدوام . كنت قد قلت له - قبل زمن طويل -في كولسبرغ، إنه كان لديّ منزل صغير له في نوينغيداخت . ولكنه رفض أن يأتي : لا ! لقد كان مريضاً، وأنا آسف !))

" قلت : ((كيف تعرف ذلك؟))

" ((عجباً، اليوم فحسب أرسل تحياته جواباً على تحياتي بواسطة يوهانا فان دير ميرفه التي تذهب إلى طبيبهم بسبب عيني طفلها المريضتين. وهو يرسل تحياته، مانكلتاو ذاك، ويقول لها أن تخبرني بأن لديه حديقة صغيرة من الزهور جاهزة من أجلي في الهند الهولندية : في أومبالا. إنه مضحك جداً، كابتن مانكلتاو خاصتي)).

" على الهولنديين والإنكليز أن يتآخوا يا سيدي. لديهم روح الفكاهة نفسها على ما أظن.

" قال فان زيل : ((حين يتعافى عليك بالحذر أيها السيد الأمريكي ، فسيعود هو إلى مدافعه يوم الثلاثاء القادم . ومن ثم

سيطلق النار على نحو أفضل)).

" لم أكن مطلعاً على المدفعية الملكية البريطانية بمثل ما كان العجوز فان زيل. عرفت هذا الكابتن مانكلتاو بالنظر، طبعاً، وبما أنه كان ذلك النوع من الرجال فقد ظننت أنه قد فعل ما هو صحيح ضد مدفعي الزيغلر. ولكن لم يجر شيء يشكل عهداً جديدا في التاريخ.

" في صباح اليوم التالي وفي الساعة المعتادة انتظرت الجنرال وجاء فان زيل العجوز مع بعض الشبان . لم يكن فان زيل يتسكع من حول مدفع الزيغلر كثيرا في العادة، ولكن هكذا كان حظه في ذلك اليوم.

" كان يحدق عبر منظاره إلى المعسكر، وكنت أساعد في رش البهار على لحم الخنزير المملح لأجل الجنرال – كالعادة – حين التفت إليّ بسرعة وقال : ((ياللرب! كم أن هؤلاء الإنكليز كذابون كلهم! لا يمكنك الثقة في أي واحد منهم)) ، هذا ما قاله . ((يقول الكابتن مانكلتاو ليوهانا إنه لن يعود حتى الثلاثاء، واليوم هو الجمعة وهاهو قد عاد! ياللرب! الإنكليز كلهم مثل تشامبرلين!)) (١٠)

" لو لم يتوقف الرجل العجوز ليلقي خطاباته، لكان سيتناول عشاءه في معسكر دفاعي يحميه سياج من عربات على ما أعتقد. كنت مشغولاً بالاهتمام بـ ((توم ريد)) عند النقطة ٢٠٠٠ حين بدأ ((الأصلع)) عمله الجيد ضدّي. شاهدت صفيحة من اللهب الأبيض ملتفة من حول جهاز التلقيم، وفي وسط ذلك كله كان أحد بغالي قد وقف منتصباً . لا شيء يدعو للاستغراب في بغل يقف منتصباً، ولكن هذا البغل كلن دون رأس. أتذكر الآن أن الأمر بدا لي متناقضاً في ذلك الحين، وحين حسبت

الأمر كله وجدتني أقوم بما قام به سانتوس دومونت [١١] بدون أي بالون ومحركي دون ناقل حركة. ثم بدأت أفكر في سانتوس دومونت وكيف أن طريقتي الجديدة أفضل بكثير. ثم فكرت بالبروفسور لانغلي [١٢] والسيموثيان، [١٣] وتمنيت لو أني لم أكذب إلى ذلك الحد المبالغ فيه حول مواصفاتي في واشنطن. ثم تخليت عن التفكير فترة من الزمن، وحين استأنفت سلسلة أفكاري كنت عارياً، يا سيدي، في نقالة مهترئة وفمي مليء بالتراب الدقيق المنكّه باللافتايت.

" وقد سعلت ذلك التراب.

" يقول رجل يمشي إلى جانبي : ((مرحباً. لقد تكلمت في الوقت الملائم تقريباً. هل تريد شراباً؟))

" أنا لا أحب الروم عادة ولكني رضيت به آنذاك، لأني كنت في حاجة إليه.

" سألت : ((ما الذي أصابنا؟))

" قال : ((أنا . لقد أصبتك في جهاز التلقيم بالضبط وأنت تخرج من تلك الدونغا ، ولكني آسف إذ أقول إن كل طلقة في جهاز التلقيم قد انفجرت ومدفعك في حالة تدعو إلى الصدمة. أنا معجب بمدفعك يا سيدي.))

" قلت: ((أأنت الكابتن مانكلتاو؟))

" قال : ((نعم . أعتقد أنك السيد زيغلر. لقد حكى لي عنك قائدك.))

" قلت : ((هل أسرتم فان زيل العجوز؟))

" قال بثبات : ((الكومندان فان زيل قد جرح لسوء الحظ الشديد،

ولكن يسعدني القول إن جراحه ليست خطرة. آمل أن يتمكن من تناول العشاء معنا الليلة. وأنا واثق من أن الجنرال سيسعد بمشاهدتك أيضاً رغم أنه لم يكن يتوقع ذلك. ولا أحد آخر وحق جوبيترا)) ثم احمر وجهه كما هو شأن البريطانيين حين يحرجون.

" رأيته يحشر كتاب صلاة أسقفية بروتستانتية في كمه، وحين نظرت من فوق حافة النقالة كان هناك نصف دزينة من المجندين قد انتهوا للتو من الحفر وقد وقفوا في وضع الاستعداد قرب مجارفهم. وأعتقد أنه كان على حق في أن الجنرال لم يكن يتوقعني على العشاء، ولكن كان الأمر كله متفقاً مع الطريقة البريطانية غير المتقنة في أداء الأعمال. كانوا يحدثون كل تلك الجلبة والهراء ليدفنوا رجلاًواحداً، ودون بذل أونصة واحدة من الاهتمام في ذلك الأمر للتأكد من أن الشخص قد مات حقاً. وأنا- على أي حال- ((أبرشاني مستقل))!

" حسناً يا سيدي، كانت تلك طريقة تقديمي إلى الجيش البريطاني. سأكتب كتاباً حول ذلك إن كان هناك من سيصدقه. هذا الكابتن مانكلتاو، من المدفعية الملكية البريطانية، جعل الطبيب يعتني بي (أستطيع تأليف كتاب آخر عنه) وأعطاني بذلة من بذلاته، وأطعمني لحم العجل المعلب مع البسكويت، وأعطاني سيجاراً من نوع ((هنري كلاي)) مع ويسكي وسباركلت. كان رجلاً أبيض.

" ((أجل وحق جوبيترا)) ، قال وهو يجر كلماته كأنه يلعق الدبس ، ((نحن معجبون جميعاً بمدفعك وأسلوبك في تشغيله . لقد راهن البعض منا على أنك بريطاني فار. وقد ربحت جنيهاً ذهبياً من مراهنتي عليك مع أحد المساعدين. وبالمناسبة لقد خيبت أمل سائس

خيلي إلى حد كبير.))

" قلت : ((ولماذا سائس خيلك ؟))

" قال : ((هو المساعد الذي ذكرت. إنه سائس فقير حداً.' هذا ما قاله الكابتن. ' ولكنه في الوطن محام متدرب . كان يعدو في أنحاء المعسكر ولسانه ممدود إلى الخارج، منتظراً فرصة الدفاع عنك في المحكمة الميدانية.))

" قلت : ((أي محكمة ميدانية؟))

" ((أوه ، محاكمتك كفارّ من سلاح المدفعية. كنت ستتلقى عائداً جيداً لقاء أموالك. وعلى أي حال ما كنت لتشنق بعد أن لوحظت طريقتك في إدارة مدفعك ولو كنت فاراً من الخدمة عشر مرات. كنت سأتدبر أمر إعدامك بالرصاص كجنتلمان)).

"حسناً يا سيدي ، لقد أصبت في فم معدتي : لديّ إحساس بالغثيان ، إحساس جارح بأن وضعي يحتاج إلى تنظيم إلى حد كبير . كان عليّ أن أكون مواطناً في مدينة مستقلة مع خبرة سنة . ولكن أوهايو هي ولايتي ولن أتخلى عنها في سبيل مجموعة من الهولنديين الفارين. هذا بالإضافة إلى أن حماستي كمخترع قد قادتني إلى الأزمة الحالية . ولكني ما كنت أتوقع من هذا الكابتن مانكلتاو أن يفهم اقتراحي على هذا النحو . وقد جلست هنا: أسوأ نوع من المواطنين الأمريكان المتمسكين بعناد بالمبادئ البالية ، وقد أسر متلبساً بالجريمة وهو يرمي بالجحيم على الجيش البريطاني لشهور بحالها. أقول لك يا سيدي إني تمنيت لو كنت من مواطني ولاية سينسيناتي في ذلك المساء الصيفي، عندها كنت سأصل إلى تسوية حول بروكلين.

"((ما الذي تفعلونه بالأجانب ؟)) قلت هذا والتراب الذي سعلته يبدو وكأنه قد عاد إلى لساني مجدداً.

" قال : ((أوه ، لا نفعل شيئاً يذكر . إنهم الرفقة الوحيدة التي لدينا. وأنا من مؤيدي البوير قليلاً. ولكن بيني وبينك ، البويري العادي ليس ذكياً جداً . أنت أول أمريكي نقابله ، ولكنك من سكان المدن بالطبع.))

" كان علي أن أكون كذلك لو كان لديّ إحساس بالمؤشر الشائع ، ولكن الطريقة التي كان يتشدق بها أصابتني بالجنون.

" قلت : ((لست كـــذلك بالطبع. هل ترضى أن تكون بويرياً متجنساً؟))

" قال : ((أنا أحاربهم)) ، ثم أشعل سيجارة . ((ولكنها كلها مسألة رأي.))

" قلت : ((حسناً، تستطيع أن تحمل أي رأي مسؤول تختاره، ولكني رجل أبيض ونيتي الحالية هي الموت بذلك اللون.))

" ضحك واحدة من تلك الضحكات الكبيرة ذات النهايات السميكة التي يضحكها البريطانيون ولا تؤدي إلى أي مكان، وأطلق نوعاً من الإطراء لأمريكا جعلني أكثر جنوناً.

" أنا أسير رمحك وقوسك يا سيدي ، ولكني لا أفهم النكتة البريطانية المزعومة . إنها تؤدي بي إلى الكآبة.

" لقد جرى تقديمي إلى خمسة أو ستة ضباط في ذلك المساء وكل واحد لعين منهم ضحك وسألني عن سبب عدم وجودي في الفيليبين لقمع حربنا هناك ! وكانت تلك هي روح الدعابة البريطانية ! كان على الجميع

أن يتخلصوا من ذلك العبء الذي في صدورهم قبل أن ينطقوا بكلام ذي مغزى. ولكنهم كانوا عقلانيين فيما يتعلق بمدفع زيغلر. لقد أعجبوا جميعاً به . ولقد اخترعت حكاية خرافية عن نفسي على أني مرهق من الحرب وأني كنت أدفع بالمدفع تجاههم في الأشهر الثلاثة الأخيرة على أمل أن يأسروه ويدعوني أعود إلى الوطن . وقد دغدغهم ذلك حتى الموت. لقد جعلوني أكررها ثلاث مرات وضحكوا كالأطفال في كل مرة . ولكن نصف البريطانيين أطفال وخاصة الأكبر سناً بينهم. كان الكابتن مانكلتاو أقل طفولية من الآخرين إذ كان يتحدث عن مدفع الزيغلر كعاشق ، يا سيدي، وقد رسمت له رسوما تخطيطية لجهاز التلقيم واسطوانة الارتداد في دفتر ملاحظاته . وقد سأل السؤال البريطاني الوحيد الذي كنت أنتظره : ((ألم أكن قد جعلت القطع العملانية خفيفة جداً ؟)) يظن البريطانيون أن الثقل قوة .

" وأخيراً ... كنت أخجل من فتح الموضوع سابقاً.. أخيراً قلت : ((أيها السادة ، أنتم هيئة المحكمة الحيادية التي كنت أنشدها . أعتقد أنكم غير مهتمين بأي معمل آخر للمدافع كما أن السياسة لا تهمكم . كيف كان الأمر من وجهة نظركم ؟ ما الذي فعله مدفعي على أي حال ؟))

" قال الكابتن مانكلتاو : ((أكره أن أخيب أملك لأني أعرف كيف تشعر كمخترع.)) لم أكن أشعر كمخترع في ذلك الحين. كنت أشعر شعوراً ودياً، ولكن البريطانيين ليس لديهم أكثر مما تستطيع التقاطه بسكين من صحن من الحساء.

" قال: ((الحقيقة الصادقة هي أنك جرحت حوالي عشرة منا بطريقة

ما أو بأخرى وقتلت حصاني بطارية مدفعية وأربعة بغال ، و أوه ، أجل ، لقد اصطدت خمسة كفيريين. ولكننا كدنا نصاب جميعاً. أنظر إلى سروالي.))

" كان سرواله قد رتي عند المقعد بكيس دقيق من صنع مينيابوليس. استطعت رؤية الكتابة.

" قال: ((لست مخادعاً. اجلب مرتجعات المستشفى يا دكتور.))

" يجلبها الطبيب ويقرأها حسب التواريخ الصحيحة . كان ذلك الطبيب يستحق سعر رسم الدخول .

" سررت تماماً لأني لم أقتل أياً من أولئك الأطفال المرحين، ولكني لم أستطع مغالبة التفكير في أنه لو قتل عدد قليل إضافي من " الكفيريين " لكان من شأن ذلك أن يخدم أغراضي الدعائية شأن القتلى من الرجال البيض. لا يا سيدي. مهما تكن الطريقة التي تنظر فيها إلى الاقتراح فإن واحداً وعشرين إصابة بعد شهور من الصداقة الوثيقة شأن صداقتنا ... أمر رديء.

"قالوا إن مدفعي جيد كالتوفي [حلوى قاسية دبقة إنكليزية] فالبريطانيون يستخدمون التوفي حيث نستخدم السكر. إنه أرخص وله المفعول نفسه. جلسوا من حولي وبرهنوا لي أن مدفعي كان جيداً جداً إذ يطلق النار بدقة شان بندقية مانليشر.

"قال أحد الشبان وكان يمضغ بعض الأعشاب : ((لقد أحصيت ثماني قذائف من قذائفك يا سيدي انفجرت ضمن نصف قطر قدره عشرة أقدام. كان من شأنها كلها أن تخترق غطاء عربة واحدة. وكان ذلك جميلاً . كان جيداً جداً.))

" لن أستغرب لو كان الشاب على حق . كانت قذيفة اللفتايت خاصتي شديدة الاتساق رياضياً من حيث قوة الدفع . أجل ، كانت جيدة جداً بالنسبة إلى ذاك الأحمق العنيد. كان جهاز نقل الحركة الخاص بالتوجيه قد انكسر وكان علينا أن نديره على المحور بواسطة أخمص الحاضن [الطرف الأدنى من عربة المدفع]. ولكني سأصنع مدفعي التالي من طراز زيغلر أثقل بألف وخمسمائة باوند. وقد يدور بمحرك بنزين تحت المحاور . عليّ التفكير في ذلك.

" قلت :' حسناً أيها السادة ، سأكره أن أكون السبب في موت أي منكم ، وإذا ما استطاع أسيرٌ أن يتنازل عن ممتلكاته ، أودّ أن أقدم إلى الكابتن هنا ما يرى أنه ملائم أن يتركه من مدفعي الزيغلر.))

" قال الكابتن: ((شكراً جزيلاً . أرغب في ذلك جداً. سيبدو المدفع رائعاً في مطعم الضباط في وولويتش، هذا إن لم يكن لديك اعتراض يا سيد زيغلر.))

" قلت: ((. هيا ، لقد خرجت سليماً من كل الفوضى التي تعرضت لها ، ولكن المدقع سينشر النور بين أفراد سلاح الملكية البريطانية.))

" أقول لك يا سيدي إنه لا يوجد خطأ في سلاح المدفعية الملكية البريطانية. إنهم رجال أذكياء يعانون من نظام عاجز هو - عندما تمسك به- إنكلترا برمتها. في بعض الأحيان أشعر أني أخاطب مواطنين أحياء حقيقيين، وأحياناً أشعر أني أخاطب آكلي لحم العجل في ((البرج)).

"كيف ؟ حسناً على هذا النحو . كنت أحكي للكابتن مانكلتاو عما قاله فان زيل حول أن البريطانيين جميعهم عبارة عن تشامبرلين وذلك حين رآه ذلك العجوز وهو عائد من المستشفى قبل أربعة أيام من الموعد المقرر .

" ((أوه، اللعنة على ذلك كله!)) يقـول وهو رزين كـقـاض في المحكمة العليا . يقول : ((أوه، الأمر سيئ جداً . لا بد أن يوهانا قد أساءت فهمي ، أو أني استخدمت العبارة الهولندية غير الصحيحة عن تلك الأيام اللعينة من أيام الأسبوع . لقد قلت ليوهانا إني سأخرج يوم الجمعة . تلك المرأة حمقاء. أوه، اللعنة على ذلك كله ! ما كنت لأبيع فان زيل العجوز جرواً بهذا الأسلوب. سألحق به لأعتذر منه.))

" لا بد أنه تدبر الأمر جيداً ، لأنه حين أبحرنا لتناول العشاء مع الجنرال فإن الكابتن مانكلتاو قدم إلى فان زيل الكثير من شراب الشيري والبيتر[شراب مسكر]حتى أصبح سعيداً كالبطلينوس. ناداه الشبان كلهم بأدريان وعاملوه كأنه أب سخيّ . كان قد أصيب في عظم الترقوة وكانت ذراعه مربوطة.

" ولكن الجنرال كان الشخص المحبوب. أعتقد أنك تعرف ذلك النوع المعتاد من الجنرالات البريطانيين ، ولكن كان هذا أول جنرال أتعرف عليه. جلست إلى يساره وتحدث هو مثل ((صحيفة بيت السيدات)). ألم يسبق لك أن قرأت تلك الصحيفة؟ إنها منمقة يا سيدي وغير ضارة ومليئة بعواطف مصفحة بالنيكل مكفولة من حيث تحسين الذهن. كان هو كذلك. بدأ بحديث من القلب إلى القلب من طراز ((ليديا بينكهام)) حول صحتي، وأمل في أن يكون الشباب قد عاملوني جيداً وأني كنت أستمتع بوجودي بينهم. ثم شكرني على الدروس الممتعة والقيمة التي أعطيتها لجماعته- وخاصة حول تركيز المدفعية والهجمات من المؤخرة. كان يمسح على شاربه الطويل النحيل بين كؤوس الشراب - مستخدماً عصير الليمون المر والماء - ويثغو قائلاً: ((آه)) ، ثم يغرف

المزيد من التوفي لي وللعجوز فان زيل على يمينه. حكيت له كيف خطر لي أول وحي من مبادئ مدفع الزيغلر حين كنت أعمل كمدير للبريد من الدرجة الرابعة على طريق النجوم في أركنسو. حكيت له كيف خططت للأمر كله بالتقسيط حين كنت أعمل ميكانيكياً في روتربي من حيث تأتي ساعات اليد التي ثمن الواحدة منها دولار واحد، ، كان يلبس واحدة منها في معصمه. حكيت له كيف قابلت زالينسكي (لم يكن قد سمع بزالينسكي!) حين كنت أعمل كاتباً إضافياً في مكتب الإنشاء البحري في واشنطن. حكيت له كيف أن عمي الذي كان مزارع خضار في نيوجيرزي (كان يقرض المال على أساس الرهن أيضاً، فعشرة آكرات لا تكفي الآن في نيو جيرزي) ، وكيف كان سيقدم لي ربع مليون دولار لأني كنت الوحيد بين أقربائنا الذي كان يوبخه حين يأتي إلى البيت وقد انتشى من شرب عصير التفاح المخمر ويتقيأ على بنات أخيه. حكيت له كيف أنفقت كل سنت أحمر على مدفع الزيغلر، وعن السيرك الذي تشكل لدى خروجي مع المدفع، وهكذا دواليك. وكان يمسح على شاربه كل أربعين ثانية ويشغو قائلاً: ' كم هذا ممتع. أحدث هذا حقاً؟ كم هذا ممتع.'

" كان الأمر أشبه بما يحدث في كتاب إنكليزي قديم، مثل كتاب ((بريسبريدج هول)). ولكن مؤلف هذا الكتاب كان أمريكياً! بقيت محدقاً باحثاً عن ((رأس الخنزير)) و((روزماري)) و ((ماغدا تشارتا)) و((الكركيت على الموقد)) وبقية الطاقم. ثم اندفع فان زيل. لم يكن منتشياً من الخمرة إنما تخلى عن تحفظه: تخلى عن تحفظه يا سيدي بين أصدقاء. ثم بدأوا يناقشون الاشتباكات السابقة حسب

طريقة الرجل العجوز- وكان هناك ستون منهم - وكذلك عروضاً جانبية مع جنرالات آخرين وطوابير أخرى. حكى له فان زيل عن ضربة كبيرة خطط لها على أساس طابور في الأسبوع قبل أن أنضم إليه. وقد أوضح استراتيجيته بواسطة شوكات الطعام على المائدة.

" قال الجنرال حين انتهى : ((حسناً! هذا يثبت وجهة نظري تماماً. ربما كنت مؤيداً إلى حد قليل للبوير، ولكنني ألتزم برأيي: أي أنه بوجود ضباط ملائمين مع الاعتبار الصحيح للآراء المسبقة في عنصرهم، فإن البوير هم أفضل مشاة راكبة في الإمبراطورية يا أدريان. لقد بخسوك حقك. كان يجب أن تكون في كلية الأركان مع دي فيت)).

" ((عليك أن تمسك دي فيت وسأحضر أنا إلى كلية الأركان خاصتك، ما رأيك ؟)) هذا ما يقوله أدريان وهو يضحك. ((ولكنك بطيء جداً أيها الجنرال. لم أنت بطيء جداً ؟ لفترة شهر كنت تؤدي جيداً وكنت قوياً حتى أننا قلنا إننا سنستسلم ونعود إلى مزارعنا. ثم ترسل إلى إنكلترا طلباً لتحضر لنا هدية من مائتين، ثلاثمائة، ستمائة شاب مع البنادق والعربات وشراب الروم والتبغ والكثير من الطلقات، حتى أن شبابنا يتشجعون ويبدأون من جديد. لو أمسكت بثور من قرونه وضربته على مؤخرته فسوف يدور في مكانه. إنه لا يذهب إلى أي مكان. وهكذا تدور هذه الحرب. وأنت تعرف ذلك يا جنرال.))

" يقول الجنرال: ((صحيح تماماً يا أدريان، ولكن عليك أن تصدق كتابك المقدس.))

" يقول أدريان وهو يمد يده إلى الويسكي :((هوه)). لم يسبق لي أن عرفت هولندياً يعترف بأنه ملحد، ولكن القلة منهم أصبحوا لا

أدريين[١٤] منذ أن قبع البريطانيون في بريتوريا. لقد حكى لي العجوز فان زيل أنه غضب من الدين بعد استسلام بلومفونتاين. لقد كان من المطالبين بدولة حرة على أي حال.

" يقول الجنرال : ((من يؤمن لن يسرع. هذا مذكور في سفر إشعيا. ونعتقد أننا سنربح، ولذلك لا نسرع. فيما يتعلق بي أود لو تدوم هذه الحرب خمس سنوات. سيكون لدينا جيش آنئذ. بهذه الطريقة فحسب يا سيد زيغلر فإن شعبنا مترع بالوطنية، ولكنهم ولدوا وترعرعوا بين المنازل، وليست إنكلترا كبيرة لتدربهم جميعاً، ليس إن كنت تتوقع أن تحافظوا عليها)).

" أقول : ((لا. فلنلزم القواعد. وهذا يذكرني أيها السادة بأننا لم نشرب نخب الملك وصيد الثعالب)).

" وهكذا شربوا نخب الملك وصيد الثعالب. وقد شربت نخب الملك لأنه كان هناك شيء ما يخص[الملك]يدغدغني (إنه بريطاني إلى حد لعين). ولكني أفضل عدم شرب نخب صيد الثعالب. لقد قتلت الكثير من الذئاب في بلاد البقر، وكنت أشعر بالحاجة إلى الشراب بشدة بعد ذلك، ولكن لم يخطر لي أبداً أن أشرب نخب ذلك، أعني وراثياً.

" ((لا. كما كنت أقول يا سيد زيغلر))، ويتابع قائلاً: ((علينا أن ندرب رجالنا على إطلاق النار والركوب. أسمح بستة أشهر لمثل هذا التدريب. ولكن الكثير من قادة الطوابير- لا يعني ذلك أني سأقول كلمة ضدهم فهم أفضل الناس وكثير منهم أصدقاء أعزاء عليّ – يبدون وكأنهم يفكرون أنه لو كان لديهم الرجال والجياد والمدافع لاستطاعوا تناول الشاي مع البوير. والمسألة عادة تجري بالعكس، أليس كذلك يا سيد زيغلر؟))

" قلت : ((إلى حد ما يا سيدي.))

" قال : ((أنا سعيد جداً أنك توافقني الرأي. أعتبر قيادتي هنا كمحطة تدريب، وأنت، لو سمحت لي بقول ذلك، كنت واحداً من أفضل المدربين عندي. أنا أنضج رجالي ببطء ولكن على نحو شامل. أولاً أضعهم في المدينة التي من المحتمل أن تتعرض للهجوم ليلاً، حيث يستطيعون الدوام على معهد الفروسية في النهار. ثم استخدمهم مع قافلة، و أخيراً أضعهم في طابور. وهذا يستغرق وقتاً. ولكني أطري على نفسي بأن أي رجال عملوا تحت إمرتي هم على الأقل مؤسسون جيداً فيما يتعلق بمبادئ مهنتهم. يا أدريان، هل كان هناك خطأ ما في الرجال الذين قلبوا عربة تفاح (فان بسترز) في الشهر الماضي حين كان يحاول عبور الخط للانضمام إلى (بايبر) مع تلك الجياد التي سرقها من (الغابيتاس) ؟))

" قال فان زيل: ((لا أيها الجنرال. لقد استعاد رجالك الجياد وأحد عشر قتيلاً. أما فان بسترز فقد هرب إلى ديلاري بقميصه. لقد كانوا جيدين جداً أولئك الرجال. وهو يطلقون النار بقوة.))

" ((مسرور جداً بسماع ذلك منك. لقد زرعتهم في بداية القرن. إنهم نتاج عام (١٩٠٠). أتتذكرهم يا مانكلتاو؟ مروضو الخيل من سنترال ميدلسكس برونشتو: كتبة وناظرو البيع في متاجر على الأغلب)). ثم مسح على شاربيه. كان الأمر هو نفسه مع القافزين من فوق ظهور الثيران من ليفربول، ولكن كان هؤلاء أخصائيين في تحميل السفن وتفريغها. فلننظر إلى الأمر: كانوا من قرعة القرن الماضي، أليس كذلك؟ لقد ابلوا بلاء حسناً بعد تسعة اشهر. أتعرفهم يا فان زيل؟ ألم

تستطع أن تغيرهم كثيراً في بوتفونتاين؟))

يقول فان زيل" ((أبداً. في بوتفونتاين فقدت ابني أندريز .))

قال الجنرال: ((أرجو عفوك أيها الكومندان.)) ثم راح الباقون يتحدثون بتودد نوعاً ما إلى أدريان.

يقول أدريان: ((عذراً. كان الأمر على ما يرام. كان أولئك رجالاً جيدين، ولكن الأمر كما قلت. البعض جيدون جداً حتى أننا نريد أن نستسلم لهم، والبعض سيئون إلى درجة أننا نقول: (لنأخذ الفيركلور إلى كيب تاون.) ليس الأمر عادلاً من جانبكم أيها الجنرال. ليس عادلاً على الإطلاق. لا أعتقد أنكم تريدون لهذه الحرب أن تنتهي أبداً .))

" يقول الجنرال: ((إنها استعراض ملابس من الصنف الأول لأجل هرمجدون[١٥] . ومع توفر الحظ، علينا أن نجعل نصف مليون جندي يمرون عبر المطحنة. عجباً، وقد نتمكن من منح الفرصة إلى جيشنا المحلي ليلقي نظرة. أوه، ليس هنا طبعاً، يا أدريان، ولكن هناك في (المستعمرة). فلنقل معسكر تدريب في وورسستر. ليس عليك أن تكون متحاملاً يا أدريان. لقد كنت قائد منطقة في الهند، وأعطيك عهداً مني بأن القوات المحلية مؤلفة من رجال رائعين.))

" يقول أدريان: ((أوه، ليس عليّ أن أقلق منهم إن كانوا في وورسستر. سأبيعك مؤونة من أجلهم في وورسستر. أجل، وفي بارل واستلنبوش. ولكن ياللرب! هل عليّ أن أبقى مع (كروني) حتى تكون قد دربت نصف مليون من هؤلاء الشبان الأغبياء على ركوب الخيل؟ سأكون قد أصبحت رجلاً عجوزاً في ذلك الحين.))

" حسناً يا سيدي، هكذا بدأا بالتجادل حول ما إذا كانت سانت

هيلينا تلائم أدريان وبعض الأماكن الأخرى التي كانا يعرفانها، وراحا يحضران رسائل التعارف إلى الدوقات واللوردات الذين يعرفانهم، وحتى يتم الاعتناء بفان زيل جيداً. لدينا عقارات واسعة- في أمريكا- ولكن ما يجعلني أشعر بالغثيان هو سماعي هذا الحشد يمارس التملق حول الأطلس (أوه، أجل، كان معهما أطلس)، وراحا يختاران قارات تائهة لأدريان حتى يشرب قهوته فيها. وقد اعترف الرجل العجوز بأنه لم يكن راغباً في البقاء مع (كروني)، لأن أحد أقرباء كروني هذا كان قد استولى على إحدى مزارعه بعد باردبيرغ. لقد نسيت تفاصيل القضية ولكنها كانت مثيرة. وقد قررا اختيار مكان يدعى أومبالا في الهند لأن طبيباً من الدرجة الأولى كان موجوداً هناك.

" وهكذا كان أدريان مصمماً على شرب نخب الملك وصيد الثعالب وكذلك على دراسة الجيش المحلي في الهند (أود رؤيته شخصياً)، حتى يكون الجنرال البريطاني قد علّم الفروسية لمواطني بريطانيا العظمى من البيض الذكور. لا تسئ فهمي يا سيدي، لقد أحببت ذلك الجنرال. بعد عشرة دقائق أحببته وأردت أن أضحك عليه. ولكن في الوقت نفسه فإن الجلوس هناك والاستماع إليه يتحدث عن القرون قد أخافني يا سيدي كما أقول لك. لقد أخافني حتى القشعريرة! لقد أقر بكل شيء. أقر بالقمح قبل أن تتكلم أنت - كان مسروراً بأن يسمع أن رجاله قد استخدموا في تنظيف المرج ذي الأشجار المتناثرة أكثر من سروره حين قتلت حصانيّ توم ريد - وقد استند في كرسيه ونفخ الدخان عبر أنفه وراح ينضج رجاله كالسيجار- وتحدث عن القرون الخالدة!

" ذهبت إلى الفراش أقرب إلى الانهيار العصبي من أي وقت

مضى. في صباح اليوم التالي رتبنا أنا والكابتن منكلتاو أمر نقل ما أبقت شظايا قذيفته من مدفعي الزيغلر إلى السكة الحديد. مضى إلى هناك على عجلاته، وكتبت عليه بالإستنسل: (مطعم سلاح المدفعية الملكي، وولويتش) وذلك على الماسورة، وقال هو إنه سيكون ممتناً لو اعتنيت بالمدفع حتى كيب تاون، وسلمته إلى رجل في سلاح المدفعية هناك. ثم قال أخيراً: ((كيف هو وضعك المالي؟ ستحتاج إلى بعض النقود في طريق عودتك إلى الوطن.))

" قلت: ((أولاً أيها الكابتن لست بالرجل الفقير وثانياً لن أذهب إلى الوطن. أنا أسير قوسك ورمحك. أرفض التخلي عن هذا المنصب.))

" قال: ((سكيتلز!))[١٦] (كانت هذه واحدة من عباراته العظيمة). ستنال العفو وتعود إلى أمريكا وتخترع مدفع زيغلر آخر بقطع عملية أثقل قليلاً. لدينا من الأسرى أكثر مما نعرف ما نفعله بهم. ستكون مجرد نفقة إضافية بالنسبة لي كدافع ضرائب. فكر بالجدول (د) وخذ العفو.))

" قلت: ((لا أعرف شيئاً عن تعرفاتكم، ولكن حين أصل إلى كيب تاون سأرسل إلى الوطن طلباً بالنقود، ثم سأدفع كل سنت أنفقه بلدكم على إقامتي وذلك إلى أي إدارة يعود تأسيسها حقاً إلى القرن العاشر إن كان مرسوماً أن تفرضها منذ وصول ويليام الفاتح[١٧] .))

" قال : ((ولكن اللعنة عليك من بغل سميك الذهن. هذه الحرب قد بدأت للتو! هل تعني أنك تريد لعب دور الأسير حتى نهايتها؟))

" قلت: ((تقريباً. هذه هي القصة وما فيها لو استطاع إنكليزي وأمريكي أن يتفاهما.))

" قـال وهو جـالـس على كـومـة فـوق تل نمل: ((ولكن وحق اسم السماء المقدس، لماذا؟))

" قلت : ((حسـن أيهـا الكابتن لا أدعـي أني أتبع طرق تـفكيـرك، ولا أرى لماذا تسيء اسـتـخـدام منصبك لتـلاحق أسـيـر حـرب مـسكين ليتخلى عن منصبه!))

" ((يا صـديقي العـزيز))، هكذا بدأ يقـول وهو يرفع يديه ويحـمـر وجهه. ((سأعتذر.))

" قلت : ((ولكن إن كنت تلحّ فـهناك أمر ونصف في هذا العـالم لا أستطيع القيام بهما. النصف لا قـيمة له هنا. ولكن أن أنال العفو وأعود إلى الوطن، وأتعرض إلى إجراء مـقابلات مع الناس، وألقي مـحاضرات حول حملتي أنا وحدي ضد الأعداء الوراثيين لبلدي المحبوب هو الشيء الذي لا أستطيعه. فلندع الأمور كما هي أيها الكابتن!))

قـال:((ولـكنك ستـمل حـتى الموت.)) لقد لاحظت أن البريـطانيين يخافون من الملل أكثر من خوفهم من الموت.

" قلت: ((سـأبقى على قـيـد الحـيـاة. لست بـريطانـيـاً. أسـتطيع التفكير.))

" قال : ((يا إلهي))، ويقترب مني ويمد يد الصداقة اليمنى إليّ. ((لا بد أنك إنكليزي يا زيغلر!))

" ليس أمـراً جيداً أن يجنّ المرء من مثـل تلك المجاملة. كل الإنكليز يفـعلون ذلـك. إنهم جنس مـجنون. حين لا يعـرفـونك يتـجـمـدون حـتى يصبحوا أكثر قسوة من سانت لورنس. وحين يعرفونك يذوبون مثل الثلج في نيـسـان. وحـتى غـادرنا نحن الأسـرى - أربعـة أيام - حكى لي

الكابتن مانكلتاو الكثير حول نفسه: عن أمه وأخواته وعن أخيه الرديء الذي كان فارساً في جيش استعماري ما، وكيف أن أباه لم يكن على وفاق معه. أجل وكل شيء كما قلت لك. إنهم غير مولعين بالحياة المنزلية أو العائلية هؤلاء البريطانيون بالمقارنة معنا، فهم يتحدثون عن شؤون أسرهم وكأنها أسرة شخص آخر. ليس الأمر أنهم لا يعرفون الخجل، ولكن يبدو الأمر كذلك. أعتقد أنهم ينطقون عالياً بما نفكر نحن به وننطق نحن عالياً بما يفكرون هم به.

" لقد أحببت الكابتن مانكلتاو خاصتي. أحببته أكثر من أي رجل آخر تعرفت عليه. كان بريئاً طاهراً. أعطاني دورق الشراب الفضي خاصته وأعطيته صيغة متفجرة (اللفتايت)) خاصتي. أي مائة وخمسون ألف دولار دسستها في جيب صداره، على أقل تقدير، لو كانت لديه المعرفة الكافية لاستخدامها. لا، لم أقل له كم هي قيمتها نقداً. كان إنكليزياً. وكان من شأنه أن يرسل خادمه ليتأكد من الموضوع.

" حسناً، أنا وأدريان وحشد من الهولنديين اللاعين أرسلنا على طريق كيب تاون في عربات من الدرجة الأولى تحت الحراسة. (ما كان رأيي في مجنديكم؟ إنهم مختلفون كثيراً عن مجندينا يا سيدي : كثيراً جداً). كما قلت، فقد انزلقنا جنوباً بينما راح أدريان يتطلع من نافذة العربة ويبكي. يبكي الهولنديون بسهولة كبيرة بالمقارنة مع بأسهم في القتال. ولكني لا أفهم قط كيف يمكن للهولندي أن يشتم حتى عبرنا إلى مستعمرة دولة أورانج الحرة، وقد رفع يده وشتم ستاين عشر دقائق بحالها. ثم دخلنا المستعمرة، ووصل المتمردون - قساوسة على الأغلب ومعلمو مدارس - وهم يحملون الفواكه والتعاطف والنصوص. حادثهم

فان زيل بالهولندية، وكان هناك رجل ضخم أحمر اللحية في بوفورت ويست، على ما أذكر، وقد راح يذوي هناك على الرصيف.

" قال فان زيل وهو يرمي عنقوداً من العنب: ((احتفظ بصلواتك لنفسك. ستكون في حاجة إليها وإلى الفاكهة أيضاً، وذلك حين تصل الحرب إلى هنا. لقد فعلت ذلك أنت وكنيستك التافهة الأكثر موتاً من جياد كرونجه النافقة! ما نوع هذا الرب الذي تنزلونه علينا أنتم أيتها الطيور الكاسرة السوداء؟ لقد جاء البريطانيون وهزمناهم، وقد جلستم لا تحركون ساكناً ورحتم تصلّون. لقد أمرتمونا أن نثابر وقد ثابرنا وأحرقت مزارعنا، وقد جلستم لا تحركون ساكناً... أنتم وربكم. أترى؟ لقد أطلقت الكثير من الطلقات على كتابي المقدس بعد أن مضى بلومفونتاين، وأنت وربك لم تقولا أي شيء. خذها وصلّ عليها قبل أن نقوم نحن الاتحاديين بمساعدة البريطانيين على تدميركم أيها المتمردون.))

" ثم حملته عائداً به إلى العربة. ظننت أنه أصيب بنوبة. ولكن الحياة أمر غريب – ومفاجئ– ومختلط. لم يعد لديّ أي استخدام آخر للمتمرد أكثر من فان زيل، وكنت أعرف شيئاً ما عن الأكاذيب التي كانوا يغذوننا بها من المستعمرة مدة عام ونيّف. لقد قلت للقسيس أن ينسحب من الموضوع وتابعت تناول غدائي. وحين وصل رجل آخر وصافح فان زيل. كان قد عرفه عن كثب خلال حصار كيمبرلي. كان فان زيل معروفاً على نحو جيد من قبل جيرانه على ما أظن. وما أن فتح هذا الرجل الآخر فمه قلت: ((أنت من كنتاكي، أليس كذلك؟)) قال: ((أجل. ومن أين أنت؟)) فقلت له على الفور إذ كنت مسروراً بسماع لهجة

أمريكية جيدة من فم أي رجل. ولكنه فرك يديه خلف ظهره وقال: ((لا أعرف أي رجل يقاتل لأجل هولندي تاماني[١٨] . ولكني أعتقد أنك قد تلقيت أجراً طيباً، أنت أيها اليانكي اللعين المهرب للأسلحة والذخائر.))

" حسناً يا سيدي، لم أكن أنتظر ذلك، وكانت المفاجأة صاعقة، بينما بدأ فان زيل العجوز يشرح الأمر.

" قال الرجل: ((لا تتعب نفسك بالشرح يا سيد فان زيل. أعرف هذا الصنف من الناس . الجنوب مليء بهم.)) ثم التفت نحوي وقال : ((أنظر إليّ هنا أنت أيها اليانكي. لا شيء صغير هنا أو هناك مثل ملك، ولكن ما فعلته أنت هو أن تعود إلى الرجل الأبيض في ستة أماكن مرة واحدة - نصفي الكرة الأرضية وأربع قارات - أمريكا وإنكلترا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا. لا تفتح عقلك. تعرف جيداً أنهم لو أمسكوا بك تلعب هذه اللعبة في بلدنا لكنت تتهزهز الآن عالياً من أنشوطة قبل أن تبرز أوراق جنسيتك. تابع واجمع المال، وسوف تنتهي إلى القتال في سبيل الزنوج، كما فعل الشمال)). ثم رمى لي نصف كراون من النقد الإنكلبزي.

" سيدي، لا أنظر إلى الاقتراح على هذا النحو، ولكني أظن أني كنت قد تعرضت إلى صدمة - نوعاً ما - بسبب الانفجار. لقد قالوا لي في كيب تاون إن أحد أضلاعي قد اخترق رئتيّ. لا أورد هذا كعذر، ولكن الحقيقة الإلهية الباردة للقضية هي ... أن النقود التي على الأرض فعلت ذلك... لقد استسلمت وبكيت. وضعت رأسي أرضاً وبكيت.

" أحلم بهذا حتى الآن أحياناً. لم يكن يعرف الظروف، ولكني أحلم بذلك. وهذا جحيم!

" كيف ترى الاقتراح ... كمواطن ؟ لو كنت قد اخترعت مدفعك الخاص وأنفقت سبعة وخمسين ألف دولار عليه... ودفعت نفقاتك من كلمة (اذهب) ؟ يحق للمواطن الأمريكي أن يختار الجانب الذي يريد وذلك في الأمور الكريهة، ولم يكن فان زيل من أتباع كروجر ... وقد خاطرت بجلدي على نفقتي. لقد حصلت على عنوان ذلك الرجل من فان زيل. إنه رجل مناجم من كيمبرلي، وقد كتبت الحقائق. أرسلتها إليه. ولكنه لم يرد قط. أعتقد أنه حسبني أكذب... يا له من متمرد جنوبي لعين!

" هيا قل لي : هل ذكرت لك أن الكابتن خاصتي قد أعطاني رسالة إلى لورد إنكليزي في كيب تاون، وقد رتب الأمور حتى أستطيع أن أمكث قليلاً في منزله؟ لقد كنت مريضاً جداً وكنت أتقيأ الدم من حيث اخترق الضلع الرئة هنا. وهذا اللورد كان مهووساً بالمدافع، وقد اهتم بمدفع الزيغلر. كان ينتقد النظام البريطاني كأي أمريكي. قال إنه يريد الثورة وليس الإصلاح في جيشكم. قال إن الجندي البريطاني قد فشل في كل شيْ عدا الشجاعة. قال إن إنكلترا في حاجة إلى " مذهب مونرو" (١٩) أكثر من أمريكا ... في حاجة إلى مذهب جديد يسود القارة كلها، فتكرس نفسها بصرامة لتطوير مستعمراتها. قال إنه سيلغي نصف وزارة الخارجية ويخرج منها كل الأسر القديمة المتوارثة، لأنهم كما قال، قد وطنوا أنفسهم على خداع الدبلوماسيين القاريين، واحتقار المستعمرات. لم يكن عمر أسرته يزيد عن ستمائة سنة. كان رجلاً شديد

الذكاء ومواطناً صالحاً. وقد تحدثنا في السياسة والاختراعات حين كان الألم في رئتي يخف قليلاً.

" هل كان يعرف جنرالي؟ أجل، كان يعرفهم جميعاً. كانوا جميعاً من الصفوة ، كلهم من أعز أصدقائه. ولكنه أسرّ لي بأنه لم يكن أي منهم ملائماً لقيادة طابور في الميدان. قال إنهم شديدو الولع بالدعاية. لا يبدو أن الجنرالات يختلفون كثيراً عن الممثلين أو الأطباء أو – أجل يا سيدي – المخترعين.

" لقد رتب لي أموري على نحو جميل في سايمونزتاون. كان له نفوذ كبير ... حتى بالنسبة إلى لورد مثله. في البداية عاملوني كمجنون غير مؤذ. ولكن بعد مدة من الزمن جعلتهم يسمحون لي بالاحتفاظ ببعض سجلاتهم. لو كنت قد تركت وحدي في هذا العالم مع النظام البريطاني في مسك الدفاتر، لكنت سأعيد بناء الإمبراطورية البريطانية كلها... بدءاً من الجيش. أجل، أنا واحد من أكثر محاسبيهم ثقة، وهم يدفعون لي أجراً مقابل ذلك يصل إلى دولار واحد في اليوم. وأنا أحتفظ به. لقد كسبته، وأنا أحسمه من كلفة طعامي. حين تنتهي الحرب سأدفع الباقي إلى الحكومة البريطانية. أجل يا سيدي، هكذا أنظر إلى الاقتراح.

" أدريان؟ أوه، لقد غادر إلى أومبالا قبل أربعة أشهر. قال لي إنه سيقدم طلباً للانضمام إلى "الكشافة الوطنيين" إن لم تضع الحرب أوزارها هذا العام. ليس أمراً طبيعياً أن يطلق هولندي النار على هولندي آخر، ولكن لو كان أدريان سيلتقي بستاين، فسيكون هناك خروج على القاعدة. أجل، حين تنتهي الحرب سيكون على الجيش

البريطاني أن يحمي ستاين من مواطنيه. ولكن الحرب لن تنتهي قريباً. ومن يؤمن لا يسرع كما يقول الايرلنديون. إن القساوسة ومعلمي المدارس والمتمردين ستكون لهم حربهم بعد فترة طويلة من الهدوء الذي عمّ الشمال.

" أنا مسرور من هذا البلد... إنه كبير. ليس هناك بشر كثيرون كما في أمريكا. هناك ازدهار قادم دون شك. لقد تحدثت عن ذلك مع أدريان، وأعتقد أني سأشتري مزرعة في مكان قريب من بلومفونتاين وأبدأ بتربية البقر. إنها كبيرة وهادئة... مزرعة تبلغ مساحتها عشرة آلاف هكتار. وهناك أستطيع متابعة اختراعاتي. سأبيع مدفعي الزيغلر على ما أعتقد. سأعرض براءة الاختراع على الحكومة البريطانية . وإن قالوا: (حقاً كم هذا مثير للاهتمام) فسوف أبيعه إلى الكابتن مانكلتاو وصديقه اللورد. سرعان ما سيجدان واحداً باسم " غاسي " أو " تيدي" أو " ألجي" يستطيع أن يقبله في المكان الصحيح. لقد تعلمت الدرس.

" والآن سأذهب للسباحة وأقرأ الصحف بعد الغداء. لم أتمتع بوقت طيب كهذا منذ مات ويلي."

خلع القميص الأزرق من فوق رأسه حين عاد السابحون إلى أكوام ملابسهم. قال وهو يتحدث من تحت ملابسه:

" ولكن لو أردت أن تحول أملاكك إلى نقد، عليك أن تؤجر الاقتراح كله إلى أمريكا لمدة تسعة وتسعين عاماً."

حواشي المترجم:

(١)- كورديت : متفجر لا دخان له يصنع على شكل حبال .

(٢)- أغوينالدو ، إميليو : قائد فيليبيني قاد العصيان المسلح خلال الحرب الإسبانية- الأمريكية . كما قاد الثورة (١٨٩٩-١٩٠١) ضد القوات الأمريكية المحتلة حتى تم أسره .

(٣)- كروغر (١٨٢٥-١٩٠٤) : سياسي جنوب أفريقي لعب دوراً هاماً في تاريخ ترانسفال . أصبح رئيساً للبلاد بين (١٨٢٢-١٩٠٠) .

(٤)- كفيريون : أعضاء في مجموعة الشعوب الناطقة بلغة البانتو في جنوب أفريقيا .

(٥)- تيدي روزفلت : رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٠٠-١٩٠٩) .

(٦)- شنكتادي : مدينة في الولايات المتحدة الأمريكية .

(٧)- غروفر كليفلاند : رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (١٨٨٥-١٨٨٩) .

(٨)- واترلو : المعركة الأخيرة التي هزم فيها نابليون عام (١٨١٢) على يد الجيوش البريطانية والحليفة .

(٩)- توم ريد : (١٨٣٩-١٩٠٢) مشرّع أمريكي ورئيس مجلس النواب (١٨٨٩-١٨٩١) و (١٨٩٥-١٨٩٩) .

(١٠)- جوزيف تشامبرلين : (١٨٣٦-١٩١٤) سياسي إمبريالي بريطاني .

(١١)- دومونت : (١٨٧٣-١٩٣٢) طيار برازيلي كان من أوائل من صمم طائرة تعمل بمحرك بنزين وطار بها

(١٢)- ساموبل لانغلي : (١٨٣٤-١٩٠٦) عالم أمريكي من أوائل من درس الطيران الميكانيكي .

(١٣)- سيموثيان : معهد بحوث أمريكي .

(١٤)- لا أدريين : من يعتقدون أن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها .

(١٥)- هرمجدون : الموضع الذي ستجري فيه المعركة الفاصلة بين قوى الخير وقوى الشر .

(١٦)- سكيتلز : لعبة القاني الخشبية .

(١٧)- ويليام الفاتح : (١٠٢٨-١٠٨٧) ملك إنكلترا (١٠٦٦-١٠٨٧) قاد الحملة النورمندية على إنكلترا وفتحها (١٠٦٦) .

(١٨)- تاماني : ينزع إلى التمتع بالسلطة السياسية بطرائق تكون مشبوهة أو فاسدة .

(١٩)- مذهب مونرو : أعلنه الرئيس الأمريكي مونرو في عام ١٨٢٣ وقوامه أن الولايات المتحدة الأمريكية تعارض كل تدخل أوربي في شؤون نصف الكرة الغربي .

"تحت سد المطحنة"

(١٩٠٢)

"كتاب -كتاب-كتاب يوم القيامة!" كانوا يدخلون الماء لأجل العمل المسائي في مطحنة روبرت، وكان الدولاب المائي الخشبي الذي تعيش فيه "روح المطحنة" قد استقر على أغنيتها التي يبلغ عمرها تسعمائة سنة: "هنا كان آزور، رجلاً حراً ، يحمل هراوة واحدة، ولكنه لم يدفع ضريبة التاج قط. "نون-نون-نونكوام غليدافيت". هنا كان لدى راينبرت فلاح نصف حر وأربعة فلاحين مع محراث واحد ... وخشب لستة خنازير ومسمكتين بقيمة ستة بنسات ومطحنة بعشرة شلنات-"نونوم مولينوم"- مطحنة واحدة. مطحنة راينبرت-مطحنة روبرت. ثم وبعد ذلك والآن- تونك إت بوست إت مودو -مطحنة روبرت. كتاب-كتاب-كتاب يوم القيامة!".

"أنا اعترف" قال الجرذ الأسود فوق العارضة المستعرضة، وهو يشذب شاربيه بترف."أعترف أني لست فوق تقويم موضعي وكل مايعنيه." كان جرذاً إنكليزياً أسود عجوزاً أصلياً، وهو صنف آخذ بالانقراض بسرعة-كما يقول التقرير-أمام غارات الصنف البني.

قالت القطة الرمادية وقد التفت على نفسها فوق قطعة من الخيش: "التقويم هو أفضل علامة على عدم الملاءمة."

ثم أضافت: "ولكنني أعرف ما تعنيه. أن تجلس في قلب الأمور... أليس كذلك؟"

"أجل" قال الجرذ الأسود، بينما راحت المطحنة العتيقة تهتز والأحجار الثقيلة تجرش الحنطة. "أن تمتلك -آه- كل هذه البيئة كجزء أساسي من الحياة اليومية لابد أنه سيجعل بالطبع أمراً لا معنى له...... أترين إلى ما أعنيه؟"

قالت القطة الرمادية: "أشعر به. وبالفعل إن لم نكن نحن مشبعين بروح المطحنة، فمن سيكون؟"

"كتاب-كتاب-كتاب يوم القيامة!" كان الدولاب قد انطلق يعمل، وراح يسيطر على كامل عملية السلب، فقد كان يحفظ "كتاب يوم القيامة" من آخره إلى أوله ومن أوله إلى آخره:" إن فيرله تينويت أباتيا دي فلتونا أونام هيدام إت أونام فيغرام إت ديميديام. نونكوام غيلدافيت. وكان لدى أجموند، وهو رجل حر، نصف هَيْد وقصبة [1] . أتذكر أجموند جيداً. شخص فاتن... صديقي. لقد تزوج فتاة نورماندية في الأيام التي كنا نزدري فيها النورمانديين على أنهم محدثو نعمة. وهل مات أجموند؟ أجل. أوه يا إلهي يا إلهي! أتذكر الذئاب تعوي خارج بيته في الصقيع الكبير من عام ألف وتسعة وخمسين .إزفالده هوندرادوم نونكوام غيلدوم ريديديت. كتاب!كتاب! كتاب يوم القيامة!"

تابعت القطة الرمادية قائلة: "على أي حال فالجو هو الحياة. إن العوامل المؤثرة التي نعيش تحت تأثيرها هي التي تؤخذ في الاعتبار في المدى الطويل. والآن، في الخارج"-أصاخت بأذن واحدة نحو الباب نصف المفتوح-"هناك تقليد غريب بأن الجرذان والقطط هي، لن أقول أعداء طبيعيين، وإنما قوى متعارضة. ومثل هذه القاعدة قد تكون فعالة على

(١) هيد ، مقياس إنكليزى قديم للأراضي . والقصبة ، ٥,٠٢٩ م (المترجم)

نحو فجّ-ولا أفترض لحظة واحدة أن أحدد معاييري على أنها نهائية- بين الخنادق. ومن وجهة النظر الأوسع التي يكتسبها المرء من العيش في قلب الأمور، تبدو مرهقة قليلاً كنظام للحياة. عجباً، لأن بعض شركائك لهم، كما قد أقول، آراء متحررة حول الهدف النهائي لكيس من ... آه... جريش الطحين، ألا يسمونه كذلك ...؟"

قال الجرذ الأسود وهو حكم صارم وشره لكل ما يطحن في المطحنة في السنوات الثلاث الماضية: "شيء كهذا".

"شكراً ... ليكن جريش طحين. عجباً، كما كنت أقول، هل عليّ ان أفسد فروتي وهضمي لأطاردك في أرجاء هذا الميدان المغبّر كلما تقابلنا؟"

قال الجرذ الأسود: " بقدر ما أراه أمراً معقولاً لي، فأنا أثق أني شخص ذو غرائز محترمة بالشكل العادي إلى حد انتظر فيه حتى تذهبي في جولة من الزيارات، ثم أغتال أطفالك الفاتنين الصغار."

"بالضبط! ولكن للمسألة جانبها الفكاهي على أي حال". تثاءبت القطة الرمادية. "يبدو الطحّان وكأنه حزين لذلك. لقد صرخ بتهديدات كبيرة وغامضة تجاهي في الليلة الماضية في موعد شرب الشاي قائلاً بأنه لن يبقي لديه قططاً (لا تصطاد فئراناً قط). كانت تلك كلماته بالضبط. أتذكر النحو والصرف وهما عالقان في حلقي كحسكة سمكة من سمكات الرنكة."

"وما الذي فعلته؟"

"ما الذي يفعله المرء حين ينطق شخص بربري؟ يتوقف عن النطق وينتقل. لقد انتقلت ... باتجاه حجرة مؤونته. كان ذلك تصرفاً انتقامياً

قد يقدره هو."

قال الجرذ الأسود: "هؤلاء الناس يصبحون حقاً لا يطاقون. هناك وغد محلي يسمى مانغلز-بنّاء- وقد استملك المباني الإضافية على الجانب البعيد من الدولاب في الأسبوعين الأخيرين. وقد بنى أشكالاً تكعيبية مرعبة بالآجر الأحمر حيث كانت تنتصب حظائر الخنازير الرائعة اللذيذة تلك. هل لاحظت ذلك؟"

"لقد جرى نشاط كثير خاطئ التوجيه مؤخراً بين البشر. إنهم يشرثرون دون كوابح. ولم أتمكن بعد من الوصول إلى سبب وجودهم الخاص بهم." تثاءبت القطة.

"لقد دخل اثنان منهم إلى هنا في الأسبوع الماضي حاملين بعض الأسلاك، ثم ثبتّاها من حول الجدران. وهي أسلاك يحميها تركيب كريه ينتهي بتثليثات حديدية وبصلات زجاجية. إنها غير ذات فائدة إطلاقاً لأي غرض كان وهي قبيحة فنياً. ما الذي يعنيانه بذلك؟"

"آه! لقد عرفت أربعة وعشرين قائد تمرد في فاينزا" قالت القطة التي كانت ترافق الثاوين الذين ينفقون الصيف في مزرعة المطحنة. "هذا لا يعني أي شيء سوى أن البشر يجلبون كلابهم عادة معهم. أنا أعترض على الكلاب بكل أشكالها."

قال الدولاب المائي بوسن... "عليك ألا تعترض على الكلاب. كان رئيس دير ويلتون يحتفظ بأفضل مجموعة منها في المنطقة. لقد طوّق كل غابات هارينغتون إلى ستيرت كومون. أما أليوريك، وهو رجل حر، فقد جرّد من أملاكه. وقد جرت المحاكمة في ليويس، ولكنه لم يحصل على أي تغيير من ويليام دوفارين على مقعد القاضي. لقد غرّم ويليام

دوفارين أليوريك بمبلغ ثمانية وأربعة بنسات بتهمة الخيانة، كما أن رئيس دير ويلتون حرمه كنسياً لأجل تجديفه على الرب. لم يكن أليوريك ذا روح رياضية. ثم تزوج شقيق رئيس الدير... لقد نسبت اسم العروس، ولكنها كانت امرأة فاتنة ضئيلة الحجم. كانت الليدي فيليبا ابنتها. وكان ذلك بعد منح البارونية.ركبت الحصان بسرعة شيطانية نحو كلاب الصيد مباشرة والتي كانت أكثر خشونة بقليل من النوع الذي نربيه الآن، ولكنها مجموعة جيدة: واحدة من افضل المجموعات. كان رئيس الدير يبقيها في حال جيدة. والآن، من كانت تلك المرأة التي كان رئيس الدير يحتفظ بها؟ كتاب-كتاب! عليّ أن أعود فوراً إلى يوم القيامة وأتقدم تدريجياً بالقرون: مودو بير أومنيا بورغوم تونك - تونك - تونك! هل كانت بورغوم أم هوندريدوم؟ سأتذكر خلال دقيقة. لا داعي للعجلة" . توقفت وهي تنقلب وقد لونتها قطرات الماء بلون الفضة.

قالت المياه في السد ذي البوابة: "لن ينفع هذا. تابع التحرك."

تأرجح الدولاب نحو الأمام. هدرت المياه فوق الدلاء وسقطت نحو الظلمة في الأسفل.

قال الجرذ الأسود: "أكثر ضجيجاً من المعتاد. لابدّ أن المطر كان يهطل في أعلى الوادي."

قال الدولاب بلهجة حالمة: "ربما الفيضان. ليس هذا هو الموسم الصحيح، ولكن يمكنه أن يأتي دون إنذار. لن أنسى ذلك الفيضان الكبير-حين ذهب الطحان لينام ونسي أن يشرع الفتحات. لقد حدث ذلك قبل ما يزيد عن مائتي سنة، ولكني أتذكره بوضوح. أمر مثير للقلق جداً."

"لقد رفعنا ذلك الدولاب من محامله. قلنا: ((ارموا بعيداً بدمية الأطفال هذه!)) وفي الصباح كان الدولاب على مسافة خمسة أميال في اسفل الوادي ... معلقاً بشجرة".

قالت القطة: "هذا سوقيّ! ولكنني واثقة أنه لم يفقد كراته قط."

"لا نعرف. لقد بدا مثل آس الديناري بعد أن انتهينا منه... تحرك إلى هناك! تابع الحركة. هيا! اقفز!"

قال الدولاب بوقار: "ولماذا في هذا اليوم أكثر من أي يوم آخر؟ لا أعرف أن دائرتي تتطلب دافع الضغط الخارجي حتى تثابر على واجباتها. أعتقد أن لديّ الغرائز الأولية التي تجعل مني جنتلماناً."

أجابت المياه معاً وهي تتقافز على الدلاء: "ربما. نحن نعرف أنك شديدة الثبات فوق محاملك. تحرك. هيا!"

صرخ الدولاب وأنّ. كان هناك دون شك ضغط أكبر عليه ممّا سبق له وشعر به، وزادت دوراته من ست وثلاثة أرباع إلى ثمان وثلث بالدقيقة الواحدة. ولكن الهدير بين الجدران الضيقة التي تعلقت بها الأعشاب كان يزعج القطة الرمادية.

قالت بحزن: "ألم يحن الوقت تقريباً حتى يقوم الشخص الذي يُدفع له ليفهم في هذه الأمور أن يقطع تلك النقاط القوية بمفك البراغي ذاك فوق قمة ذلك الصندوق؟"

"ستقطع في الساعة الثامنة كالعادة" قال الجرذ "ثم نستطيع أن نذهب لتناول العشاء".

قالت المياه بمرح: "ولكن لن يقطع الطريق علينا حتى وقت متأخر. سنتدفق طوال الليل."

"العدوان غير الممكن استئصاله للشباب يتم التعويض عنه جزئياً بأمله الخالد" قالت القطة. "سدّنا ليس مصمماً -كما يسرني أن أقول- لتزويد الماء أكثر من أربع ساعات في المرة الواحدة. الادخار حياة."

قال الجرذ الأسود: "شكراً لله. عندئذ يستطيعون العودة إلى خنادقهم الأصلية."

صرخت المياه: "خنادق! إن جدول رافنز جيل ليس بالخندق. إنه قابل للإبحار فيه تقريباً، ونحن نأتي من هناك." انزلقت المياه قوية ومتراصة حتى تحرك الدولاب مصدراً صوتاً مكتوماً تحت ثقلها.

قال الجرذ: "جدول رافنز جيل. لم يسبق لي أن سمعت برافنز جيل."

"نحن المياه من جدول هاربندن... إلى الأسفل من تحت كالتون رايز. تفوه! كم هو المجرى المائي نتن الرائحة بالمقارنة مع ريف الخلنج." وقذفت خمسة أقدام أخرى من المياه بنفسها على الدولاب، فتحطمت وهدرت وغرغرت ثم تلاشت.

قالت القطة الرمادية: "حقاً؟" يؤسفني أن أقول لكم إن جدول رافنز جيل مقطوع عن هذا الوادي بسلسلة جبلية غير ممكن عبورها، وأن كالتون رايز يبعد أكثر من تسعة أميال. إنه ينتمي إلى نظام آخر تماماً."

قال الجرذ مبتسماً: "آه، أجل. ولكننا ننسى أنه بالنسبة إلى الشبان فإن الماء يجري صاعداً الجبل على الدوام."

"أوه، أمر ميئوس منه! ميئوس منه! ميئوس منه!" صرخت المياه وهي تنزل مفتوحة الكف فوق الدولاب. لا شيء بين هنا وجدول رافنز جيل لا يمكن لمائة ياردة من القنوات وبضع أقدام مربعة من الأسمنت المسلح ألا تزيله، ولم تزله!"

"كما أن جدول هاربندن يقع شمالي رافنز جيل ويصب فيه عند سفح كالتون رايز حيث أشجار البلوط الأخضر، ونحن نأتي من هناك!" كانت هذه هي المياه البلورية الصافية للجبس العالي.

"كما أن برك باتن التي تغذيها الينابيع قد سيقت عبر غابة تروت، وقد أخذ الماء الاحتياطي من نبع الساحرات القديم تحت تشيرت هاو، ونحن- نحن- نحن مياهها المتحدة!" كانت تلك المياه من المستنقعات والسبخات من الأراضي المرتفعة ... فيضان بلون الجعة الداكنة معتم ومزبد.

"هذا كله ممتع جداً" هرّت القطة نحو المياه المنزلقة. "وليس لديّ شك أن غابات تروت وغابات بوت مكانان هامان جداً. ولكنك لو استطعت أن تدير عملك- الذي لا أجادل إطلاقاً في قيمته- على نحو أكثر حكمة بقليل، فعليّ أن أكون شاكراً."

"كتاب-كتاب-كتاب-كتاب-كتاب-كتاب يوم القيامة!" كان الدولاب المدفوع يقعقع جيداً الآن: "في بيرغلستالتون هناك راهب امتلك من الإيرل غودوين هيداً ونصف بثماني فلاحين نصف أحرار؟ هناك كنيسة- وراهب ... أتذكر ذلك الراهب. فلأكن مباركاً إن كان قادراً على طقطقة سبحته أسرع مما أفعله أنا الآن ... وغابة مقابل سبعة خنازير، لا بدّ أني أدور اثنتي عشرة مرة بالدقيقة ... تقريباً بسرعة البخار. ياله من اختراع لعين ذلك البخار ... لا شك أن الوقت قد حان للذهاب إلى العشاء أو الصلاة... أو إلى شيء ما. لا أستطيع احتمال هذا الضغط، كل يوم دون أن أشعر به. لا يهمني هذا شخصياً بالطبع. النبالة تقتضي ذلك كما تعرف. أنا أفكر فحسب في حجري الرحى

العلوي والسفلي. إنهما مصنوعان من الحجر العادي. لا يمكن أن تتوقع منهما أن ..."

قال حجرا الرحى بصوت أبح: "لا تقلق علينا من فضلك. طالما كنت تقدم لنا الطاقة فسوف نقدم الثقل والطحن."

"أليس في الأمر بعض التجديف على أي حال، أي أن يتم تشغيلك على هذا النحو؟" نخر الدولاب. "يبدو أني أتذكر شيئاً ما حول طواحين الرب التي تطحن (ببطء). كانت ببطء هي الكلمة!"

"ولكننا لسنا مطاحن الرب. نحن مجرد حجري الرحى العلوي والسفلي. لم نستلم أي تعليمات تقول بأن علينا أن نكون أي شيء آخر. إن ما يشغلنا هو الطاقة التي تنتقل عبرك."

"آه، ولكن لنكن رحيمين بقدر ما نحن أقوياء. فكروا بالنباتات الجميلة الصغيرة التي تنمو على أخشابي. هناك خمسة أنواع مختلفة من الطحالب النادرة ضمن أقل من ياردة مربعة ...... وكل هذه الدرر الرقيقة من درر الطبيعة يتم إسقاطها على نحو محزن بهذا الاندفاع المفرط للماء."

"أوف!" هدر حجر الرحى. " تجعلنا الشكوك الدينية التي تنتابك وولعك بعلم النبات لا نكاد نميزك عن ذلك الدولاب الذي طحن ابن سائق العربة في الخريف الماضي. لم نشعر بالقلق عليه قط."

"كان عليه أن ينتبه أكثر."

"وكذلك درر الطبيعة خاصتك. أطلب منها أن تنمو في مكان آمن."

"لكم تحطّ الحياة التجارية البحتة من القدر وتوحّش!" قالت القطة للجرذ.

قال الجرذ برقة: "كانت نباتات صغيرة جميلة أيضاً. نباتات لسان العذراء وسرخس شعر الأرنب كانت تعرّش فوق كل الجدار كما تعرش على جوانب الكنائس في داونز. فكري كم يكون منظرها جميلاً في عيون فلاحينا الأقوياء وهم يقتلعون القش!"

"عجباً!" قال حجر الرحى. "لا شيء هناك مثل الدخول إلى قلب الأمور للحصول على معلومات." ثم عادا إلى الأغنية التي تغنيها كل طواحين الماء الإنكليزية منذ الأزمان الغابرة:

"كان هناك طحان مرح في يوم من الأيام
يعيش قرب نهر (دي)
وهذا هو عبء أغنيته
كما كان منذ الأزل."

ثم انصبت طحنة أخرى جديدة وطغت على اللحن:

"لا اكترث بأحد... لا، ليس أنا،
ولا من يكترث بي."

قالت القطة الرمادية: "حتى هذه الحجارة قد تشرّبت شيئاً من جوّنا. إن تسعة أعشار المشاكل في هذا العالم تأتي من قلة الاستقلال في الرأي".

قال الجرذ: "لقد مات أحد أفراد فصيلتك من نسيان ذلك، أليس كذلك؟"

"واحد فقط. وقد كان مثاله كافياً لنا منذ أجيال."

"آه! ولكن ما الذي حدث لـ (لا تهتم) ؟". سألت المياه.

"الركوب الوحشي إلى موت التناظر العرضي علامة أخرى على الصفة الريفية!" رفعت القطة الرمادية ذقنها المشعر. "سأنام. مع التزاماتي الاجتماعية عليّ أن أختطف الراحة حين أستطيع. ولكن كما يقول صديقنا العجوز هنا... النبالة تقتضي ... يا لحسرتي! ثلاث وظائف هذه الليلة في القرية، وحفلة رقص في مخزن القمح عبر الوادي!"

"لا توجد فرصة، على ما أفترض، لديك لتطلي على مخزن التبن حوالي الساعة الثانية. بعض شباننا سيسلون أنفسهم برقعة الكيس ... أفضل أنواع الدقيق الأبيض فحسب"، قال الجرذ الأسود.

"أعتقد انه من المفروض بي رسمياً ألا أؤيد مثل هذا النوع من الأمور، ولكن الشباب هو الشباب ... وبالمناسبة فإن البشر يضعون وعاء الحليب الخاص بي في العلية هذه الأيام، آمل أن يحترمه صغارك."

قال الجرذ الأسود وهو ينحني: "يا سيدتي العزيزة، أنت تحزنيني. أنت تؤلمينني إلى حد يصعب وصفه. بعد كل هذه السنوات أيضاً!"

"الحشد العام" يكون شديد الاختلاط-طرقات وأسيجة- كل ذلك النوع من الأمور: وليس هناك من يستطيع الرد على أفضل أصدقاء المرء. أنا لا أحاول قط. طالما كان أصدقائي من النوع المسلّي والمعبّر عن نفسه بكل صوته، ويستطيعون الاحتفاظ برباطة جأشهم في حفلة قبعات، فأنا كاثوليكي شأن هذه المياه المختلطة في السدّ هنا!"

"لسنا مختلطين. بل اختلطنا. ونحن واحد الآن" قالت المياه بتنجهم.

قالت القطة: "ألا تزالون تنطقون؟ لا يهم، هاهو الطحان قادم

لإغلاق الطريق أمامكم. أجل، لقد عرفت ذلك-أربعة-أو خمسة، أليس كذلك؟- وعشرون قائداً للتمرد في فاينزا ... المزيد من الشرثرة في السدّ، والمزيد من الضجيج في السدّ ذي البوابة، وبعض الرشاش الإضافي فوق الدولاب ، ثم ..."

قال الجرذ الأسود: "سيكتشفون أنه لم يحدث أي شيء. تثابر الأشياء القديمة وتبقى ويتم تمييزها ... ولجان وصديقنا القديم هنا أولاً. وبالمناسبة التفت نحو الدولاب: "أعتقد أن علينا أن نهنئك على آخر شرف نلته!"

"أمر تم اسحقاقه جيداً وبعمق، حتى ولو أنه بذل جهداً مكثفاً طيلة حياته الطويلة من أجل تحسين المطحنة" قالت القطة التي كانت تنتمي إلى كثير من لجان الآجر والأفران. "يستحقه على نحو مزدوج كما قد أقول، لأجل التوبيخ الصامت والمبجّل الذي يعرضه وجوده للطلبات المقعقعة المتململة لبعض الناس. ما هو الشكل الذي اتخذه ذلك الشرف ؟"

قال الدولاب خجلاً: "كان ترس آلة عفناً ".

تنهد الجرذ الأسود: "تروس! ياله من أمر سماوي! لا أرى قط خفاشاً دون أن أتمنى لو كان لي جناحان".

قال الدولاب: "ليس ذلك النوع من التروس بالضبط، ولكن دائرة مزخرفة فعلاً من عجلات حديدية مسنّنة. أمر غريب بالطبع، ولكنه مرضٍ. لقد حاصرني السيد مانغلز وأحد شركائه بذلك شخصياً- على إطاري الأيسر-الجانب الذي لا تستطيع رؤيته من المطحنة. لم أكن أنوي أن أقول أي شيء حول ذلك- أو تلك الأطواق الفولاذية من حول محاوري- الحمراء اللامعة كما تعرفون- والتي يجب أن ترتدى في كل

المناسبات- ولكن، دون تواضع مزيف، أؤكد لكم أن الاعتراف قد سرني كثيراً ".

قال الجرذ الأسود: "لكم هذا مرضٍ إلى حد كبير! عليّ أن أسرق ساعة بين الأنوار في أحد الأيام وأرى ما يفعلونه على الجانب الأيسر."

"بالمناسبة، هل لديك أي نور حول هذا النشاط الأخير للسيد مانغلز؟" سألت القطة الرمادية. "يبدو وكأنه يبني بيوتاً صغيرة على الجانب البعيد من القناة السفلى في الطاحون. صدقوني، لا أطرح السؤال بسبب أي فضول مبتذل."

"يؤثر هذا على نظامنا" ، قال الجرذ الأسود ببساطة ولكن بصرامة.

قال الدولاب: "شكراً. دعني أر إن كنت أستطيع جدولته على النحو الصحيح. لا شيء كالنظام في الحسابات من كل الأنواع. كتاب|كتاب|كتاب|على جانب الدولاب تجاه المائة من البرغلستالتون، حيث هناك حتى الآن حظيرة لثلاثة خنازير، فإن مانغلز، وهو رجل حر، مع أربعة فلاحين نصف أحرار وعربتين تحملان ألفي آجرة، قد أصبح لديه منزل صغير جديد من خمسة ياردات ونصف وسقف واحد من الحديد وأرضية من الإسمنت. ومن الآن فلاحقاً الجعة في أباريق كبيرة. أما (فلدن) وهو شخص غريب مع ثلاثة فلاحين نصف أحرار وعربة كبيرة جداً، فهو يضع عليها محركاً واحداً من الحديد والنحاس ومطحنة حديدية صغيرة ذات أربعة أقدام، وطوقاً عريضاً من الجلد. كما يبني مانغلز المعماري، مع فلاحين اثنين من صنف الفلاحين نصف الأحرار، الأرضية لهذه المطحنة وأرضية من الآجر الجديد مع أسلاك للمطحنة الجديدة. هناك ثلاث كؤوس مليئة بالحديد والماء في رقم سبعة وخمسين. والكل يقيم

بمبلغ مائة وأربعة وسبعين جهيناً... آسف لأني لا أستطيع أن أوضح أقوالي أكثر، ولكنكم تستطيعون رؤية ذلك بأنفسكم."

قالت القطة: "أمر جليّ على نحو مدهش". كانت الأكثر إثارة للإعجاب لأن لغة كتاب يوم القيامة لم تكن، على الأرجح، أوضح واسطة لوصف منشأة صغيرة إنما مزودة بالنور الكهربائي الكامل، وتستمد طاقتها من الناعورة بواسطة مسننات وتروس.

"انظروا بأنفسكم-مهما كلف الأمر، انظروا بأنفسكم"، قالت المياه وهي تبقبق وتختنق من المرح.

قال الجرذ الأسود بغضب: "أقسم بشرفي أنى قد أكون على خطأ، ولكني فشلت تماماً في فهم من أبن يدخل مسترقّو السمع العدوانيون هؤلاء. كنا نناقش مسألة تتعلق فقط بمنظمتنا."

وفجأة سمعوا، كما حدث مرات عديدة في السابق، الطحان وهو يغلق مجرى الماء. وقد تبع صلصلة وقعقعة الحجارة الكادحة صمت كثيف كان يقاطع بنقاط صغيرة من الدولاب المتوقف. ثم رفرفت أنثى طائر مائي في السدّ بجناحيها وهي تنزلق نحو عشها، وقد كان لصوت غطس جرذ الماء صوت شبيه بسقوط جذع في الماء.

"لقد انتهى كل شيء... والأمر ينتهي دائماً في حوالي هذا الوقت. اسمعوا الطحان وهو ذاهب إلى فراشه... كالعادة لم يحدث شيء"، قالت القطة.

أصدر شيء ما صريراً في المنزل حيث كانت حظائر الخنازير، حين احتك المعدن بالمعدن مع صلصلة ودمدمة.

صرخ الطحان: "هل أديرها؟"

قال الجرذ بصوت حاد: "إنسان في منزل مانغلز الجديد!"

قالت القطة الرمادية: "وماذا في ذلك؟ وحتى لو افترضنا لو أن كوخ السيد مانغلز ذا اللون الأشبه بلحم القطط قد ازدحم بالبشر، ألا تستطيعون أن تروا بأنفسكم... ذلك...؟"

كان هناك صوت اندفاع قوي لمياه أطلق سراحها وراحت تقفز على الدولاب على نحو أشد صخباً من أي وقت سبق، مع صرير المسننات، وطنين كطنين الدبور، ثم تلاشت العتمة السائدة للمطحنة القديمة بنور أبيض لا يمكن احتماله أضاء بوضوح كل بيت عنكبوت وكل نامية وعقدة والأرض، حتى أن الظلال خلف رقاقات الجص الخشن على الجدار بدت شديدة الوضوح مثل ظلال الجبال على القمر المصوّر فوتوغرافياً.

هسهست المياه في تدفق كامل: " انظروا! انظروا!انظروا! انظروا بأنفسكم. لم يحدث شيء. ألا تستطيعون أن تروا؟"

كان الجرذ المنذهل قد وقع من حيث كان واقفاً وهاهو يتمدد على الأرض نصف مصعوق. أما القطة التي اتبعت غريزتها، فقفزت نحو السقف تقريباً، وبأذنين مسطحتين وأسنان بارزة تراجعت إلى إحدى الزوايا مستعدة لقتال أي شيء مرعب قد يحل بها. ولكن لم يحدث شيء. عبر الدقائق الطويلة المؤلمة لم يحدث أي شيء، فعاد ذيلها الأشبه بفرشاة معدنية و ببطء إلى شكله الصحيح.

قالت أخيراً: "مهما يكن ذلك، إلا أنه مبالغ فيه. لا يستطيعون الاستمرار به، كما تعلمون."

قالت المياه : " تعرفين الكثير. هيا امض أيها الإنسان العجوز. تستطيع أن تطلق لنا العنان الآن. تستطيع هذه السيور

المحورية خاصتك أن تتحمل أي شيء. هيا يا رافنز جيل وهاربندن وكالتون رايز وبرك باتنز ونبع الساحرات، كلنا معاً! فلنري هؤلاء السادة كيف يكون العمل!"

"ولكن ... ولكن... لقد ظننت ذلك مجرد زينة.عجباً...عجباً...عجباً...هذا يعني المزيد من العمل لي."

"بالضبط. عليك أن تزود بحوالي ثمانية وستين نور شمعة عند الطلب. ولكنها لن تكون كلها قيد الاستعمال دفعة واحدة..."

قالت القطة: "آه! لقد فكرت في ذلك. رد الفعل آت لا بد."

قالت المياه: "وسوف تقوم بالعمل العادي للمطحنة أيضاً."

"مستحيل!" ارتجف الدولاب العجوز وهو يدور. "لم يفعل أليوريك ذلك قط ... ولا آزور ولا راينبرت. ولا حتى ويليام دوفارين أو الممثل البابوي. لا سابقة لهذا. أقول لكم إنه لم تكن هناك سابقة في تشغيل الدولاب على هذا النحو."

"انتظروا لحظة! نحن نسرّع الأمر بقدر ما نستطيع. لقد مات أليوريك وشركاه. وكذلك الممثل البابوي. ليست لديكم فكرة عن مدى موتهما، ولكننا هنا ... مياه الأنظمة الخمسة المستقلة. نحن مهمون بقدر ما هو كتاب يوم القيامة. هل تريدون سماع حكاية إقطاعية الأرض في غابة تروت؟ إنه حق احتلال أرض بوضع اليد على نحو رئيسي." تقافزت المياه الساخرة وهي تضحك وتثرثر مجدّفة.

"في تلك المائة فإن جنكنز، وهو سمكري، لديه كلب واحد -أونوس كانيس- يمتلك، برحمة الرب وبعادة اكتسبها من العمل الدؤوب - أونام هيدام-حقل بطاطا كبيراً. شخص فاتن جنكنز ذاك. صديقنا. والآن

من كان جنكنز يؤدي بحق الشيطان؟ ... في مائة كالتون حارق الفحم النباتي-رجل غير متدين- شخص ضليع نوعاً ما- ولكنه رياضي بارع.إيبه ايست إكلبزيا . نون مولتوم. ليست كنيسة كبيرة،ولكن الكاهن أغضب المنشقين عن كنيسة إنكلترا-آنئذ ولاحقاً والآن- حتى بنوا معبداً مستقلاً من الحجر مع واجهات من الآجر الأحمر لم تعكس نفسها- بأربعة آلاف جنيه".

"حرّاقو فحم نباتي، كهنة، منشقون وواجهات من الآجر الأحمر"، أنّ الدولاب. "ولكن هذا كفر مطلق. ما هذه المياه التي أطلقوها عليّ؟"

"فيضانات من المجاري.أف! هذا النور يثير الغثيان حقاً!" قالت القطة وهي تعيد ترتيب فروتها.

"لقد هبطنا من الغيوم أو نبعنا من الينابيع، بالضبط مثل كل المياه في كل الأماكن. أهذا ما يدهشكم؟" غنت المياه.

"طبعاً لا. أعرف عملي إن لم تكونوا تعرفون أنتم. وما أشكو منه قلة الاحترام والهدوء. ليست لديكم غريزة الاحترام نحو من أفضل منكم... محاكاتكم الساخرة الجبانة للكتاب المقدس (قصد الدولاب كتاب يوم القيامة(تبرهن على ذلك."

قالت المياه بمهابة شديدة: "من هم أفضل منا؟ من هناك في هذه السلالة اللعينة كلها لم ينزل من الغيوم، أو... "

ألح الدولاب: "فلتوفروا عليكم هذا الحديث من فضلك. لن تفهموا قط. إنها اللهجة-لهجتكم هي تعترض عليه."

قال الجرذ الأسود وهو يسترجع نفسه عضواً عضواً: "أجل. إنها لهجتكم."

أجابت المياه: "لو فكرتم أكثر بقليل في العمل المفترض بكم أداؤه، وأقل بقليل في مشاعركم الثمينة، فسوف تقدمون واجباً أكثر مقابل السلطة التي منحت لكم ... أنها ضُيّعت فيكم."

صرف الدولاب قائلاً: "لي بضع مئات من السنين وأنا أكتسب بدأب المعرفة التي ترون أنها ملائمة لتتحدوها بكل هذه الخفة في القلب."

"تحدوه! تحدوه!" هكذا صرفت الأمواج الصغيرة وهي تمر هابطة عبر زحافة الذيل. "الآن كما لاحقاً. الحقوا به!"

صدمت الكتلة الأساسية من المياه التي تندفع نحو الدولاب البنية المتينة نحو حواف الصندوق وهي تقول: "جيد جداً. قل لنا ما الذي تفترض أنك تفعله الآن؟."

"مع تجنب الشكل العدواني لسؤالكم، فأنا أجيب، كنوع من المجاملة فقط، أني منخرط في سحق المواد النشوية التي سيكون مصيرها النهائي انتهاكاً للثقة الممنوحة."

قالت المياه: "حسناً. لقد عرفنا ذلك طوال الوقت! والسؤال المباشر الأول يظهر تجاهله لعمله الخاص. اسمع أيها الشيء العتيق. الشكر لنا أنك قادر على تشغيل آلة لا تعرف شيئاً عن تركيبها، وأن تلك الآلة تستطيع، عبر أسلاك لها تشعبات أنت في موقعك جاهل بها بعمق، أن تزود طاقة لا تقدر أبداً على إدراكها، إلى أماكن تقع إلى ما وراء الحدود القصوى لأفقك الذهني، بهدف إنتاج ظاهرة لن تستطيع فهمها حتى في أكثر أحلامك جنوناً (لو كنت تحلم). هل هذا واضح، أو هل تحب أن نقول لك ذلك بكلمات ذات أربعة مقاطع؟"

"ادعاءاتكم كاسحة على نحو لذيذ، ولكن هل لي أن أشير إلى أن التحفظ الصادق والعالم-إن رئيس دير ويلتون العجوز العزيز كان سيعبّر عن ذلك بلغته اللاتينية الرهبانية الرنانة على نحو أفضل مني- لا تتضمن بالضرورة فراغاً خاوياً للذهن في كل المواضيع؟"

"آه، رئيس دبر ويلتون العجوز العزيز" قال الجرذ متعاطفاً، كأنه شخص يرعى المرء ذكراه في صدره. "شخص فاتن ... باحث عميق وجنتلمان. يا للأسى!"

"أوه، يا للينابيع المقدسة!" ... كانت المياه تغلي جيداً. "إنه يخرج عن طريقه ليعرض جهله بدلاء ثلاثية الامتلاء. إنه لينصرف إلى السماوات العلا قائلاً بأنه وراء النظام العادي للأشياء على نحو ميئوس منه. إنه يدعو جداول مستجمعات الأمطار الخمسة لتشاهد اللاكفاءة السماوية، ثم يتحدث وكأن هناك احتياطات غير محكية من المعرفة وراءه إلا أنه أكثر تواضعاً من أن يعرضها. أنت معجزة أيها الدولاب بالمقارنة مع كونك مدعياً لطيفاً دائرباً أو صادقاً حقاً!"

"لا أزعم أني أي شيء آخر سوى جزء لا يتجزأ من مؤسسة مقبولة وليست متكاثرة."

قالت المياه: "صحيح. در إذن... بقوة ..."

سأل الدولاب: "إلى أي غاية؟"

"إلى أن يبدأ صندوق كبير من الخزانات في مبناك يفور ويدّخن ... الكلمة الصحيحة هي إطلاق الغاز.

قالت القطة وهي تتشمم: "سيكون كذلك".

"سيظهر هذا أن مراكماتك مليئة. وحين تستنفد المراكمات وتضيء

الأنوار على نحو سيئ، ستجدنا ندفعك مجدداً لتدور."

"نهاية الحياة كما يقررها مانغلز ومخلوقاته هي الدوران إلى الأبد"، قالت القطة.

قال الجرذ: "حتى ترمي الإضاءة الفجة وغير الضرورية فوق كل القباحة في العالم. القباحة التي ستكون معنا دائماً. وفي الآن ذاته، فسوف تهملون بتمرد ما يسمى الرحمة الصغيرة إنما الحيوية التي تصنع الحياة."

قالت القطة: "أجل الحياة بأنصاف درجاتها المعتمة اللذيذة ومسافاتها غير المحددة المستوردة. مفاجآتها ومهاربها ومجابهاتها وقفزاتها المثيرة للدوار ... وجوقاتها ذات الحناجر المليئة التي تترنم على شرف لجمة الصبح ورؤاها الذائبة تحت الجدار الذي دفأته الشمس."

"أوه، تستطيعين السير فوق البلاط يابوسالينا، كالعادة"، قالت المياه الضاحكة. "لن نتدخل بك."

"فوق البلاط حقاً!" همست القطة.

"حسناً، هذا ما تبلغه الأمور"، ألحت المياه. "نحن نرى الكثير من نواحي الرحمة في الحياة في طريقنا إلى الأسفل نحو عملنا."

"ولكني أخشى أني أخاطب آذاناً صماء... ألا تترك هذه أثراً فيكم؟" قال الدولاب.

قالت المياه: "إلى حد كبير. لقد سبق وتعلمنا مرادفات مهذبة لكلمة تسكع".

"ولكن (وهنا أشعر مجدداً كأني ألقي موعظة في البرية) ألا يخطر لكم قط أنه قد يوجد بعض الفرق الضئيل بين ما هو حيواني بالكامل...

تأمل العقول البليدة (البقرية) والكسل الفطن المتناسب للنوع الأرقى من الذكاء؟"

"أوه، أجل. فالعقل يذهب للنوم تحت سياج ولا يكترث بالأمر حين يصرخ عليه. لقد رأينا ذلك-في وقت حصاد القش-على امتداد المروج. والنوع الأرقى مستيقظ بما فيه الكفاية لاختلاق أعذار للتهرب، وهو وضيع إلى حد أنه يصبح ضيق الصدر حين لا تقبل أعذاره. دُرْ!"

"ولكن أيها الناس الطيبون، لا يضيق صدر أي جنتلمان كما تسمونه. إن نوعاً معيناً من الكبرياء -إن لم نسمه شيئاً أعلى- يمنع ... "

"لا شيء يريد أن يفعله لو شاء أن يفعله حقاً. هيّا! ما الذي تعطيه لنا؟ هل تفترض أننا جلنا نصف السماء في الغيوم ونصف الأرض في الضباب حتى نطوق في هذا الوقت من النهار من قبل مطحنة بليدة عجوز من نمطك؟"

"لن أتقاذف الشخصيات معكم، بل أستطيع أن أقول فحسب إني أرفض ببساطة قبول الوضع."

"ارفض. هذا لا يهم. سيضعون محركاً توربينياً على الأرجح لو رفضت كثيراً."

سأل الدولاب بسرعة: "وما هو المحرك التوربيني؟"

"شيء صغير لا تراه، يقوم بدورات مدهشة. ولكنك لن ترفض. ستبقى متشبثاً بمحوريك اللطيفين المطوقين بسيور حمراء مثل ... مثل علقة على ساق ليلكة! هناك قرون من الكدح في عظامك العتيقة لو أنك تستخدمها فحسب. وميكانيكياً، فإن دولاباً يدار بالدفع العلوي من الماء فعّال بقدر ما هو المحرك التوربيني."

"إذن في المستقبل سأعتبر على أني ميكانيكي؟ لقد سبق أن رسمني خمسة على الأقل من أعضاء الأكاديمية الملكية؟"

"أوه، ربما سترسم من قبل خمسمائة حين تكون قد توقفت عن العمل بالطبع. ولكن طالما أنك تعمل فستعمل. لن تتوقف نصف وقفة وتفكر وتتحدث عن نباتات نادرة وطيور صغيرة ومصالح الوكلاء النشوية. ستستمر في الدوران، وهذا الرأس الجديد من المياه سيحرص على أن تستمر."

"إنها مسألة لن يكون جيداً أن يصل المرء فيها إلى نتيجة متسرعة أو قبل أوانها. سأتأمل فيها بكل حرص"، قال الدولاب.

قالت المياه بجدية: "افعل من فضلك.مرحبا! هاهو الطحان مجدداً."

التفت القطة حول نفسها بوضعية فاتنة للنظر فوق الزاوية الأكثر طراوة من أحد الأكياس، وانزلق الجرذ، دون سرعة، ولكن بقلق أكيد، خلف الأكياس وكأن موعداً خطر له للتو.

في المدخل، مع المهندس الشاب، كان الطحان واقفاً وهو يبتسم منذهلاً.

"حسناً... حسناً... حسناً! هذا رائع حقاً. وياله من غبار! يخطر لي وأنا أنظر إلى هذه الأنوار أني لم أر قط على النحو الصحيح مطحنتي. إنها تحتاج إلى فعل الكثير."

"آه، أعتقد أن على المرء أن يعتاد على النوع الأسوأ. إن لها استخداماتها. وهذا الشيء يتحكم بالمبنة." تقدمت القطة وهي تتبختر على أصابعها وحكت رأسها على ركبة الطحان.

قال وهو ينحني: "أجل، أنت أيها الهرة الجميلة. أنت شديدة الخداع

مثل بقية نوعك الذي لا يصطاد أي فئران من حولي. أنت مخادعة رائعة ذات جلد ناعم ولسان خشن. لديّ نية في ..."

قال المهندس وهو يشير إلى حيث كانت عينا الجرذ الخرزتيان تظهران من خلف الأكياس: "إنها تؤدي عملها جيداً. القطط والجرذان تتعايش معاً... ألا ترى؟"

"إنها تفعل ذلك كثيراً... ومنذ زمن طويل. أنا مشمئز ومتعب من ذلك. اذهبي واسبحي قليلاً وتعلمي كيف تجدين طعامك على نحو شريف حين تخرجين يا هرتي."

قالت المياه والقطة تهبط وقد نشرت أطرافها فجأة في مركز القناة من الطاحون: "عجباً! أهذا هو أنت ياميوسالينا؟ تبدين وكأنك كنت تتشاجرين مع أفضل أصدقائك. اذهبي إلى اليسار. المكان هناك ضحل. اصعدي فوق جذر شجرة جار الماء تلك بكل أطرافك الأربعة. ليلة سعيدة!"

قال الطحان بينما راح المهندس الشاب يضرب الأكياس بعصاه غاضباً: "لن تقتل أي جرذ. إنها ليست من النوع الشائع. إنها ذلك النوع الإنكليزي الأسود القديم."

"هل هي كذلك بحق جوبيتير؟ عليّ أن أمسك بواحد منها لأحنّطه في يوم من الأيام."

* * *

بعد ستة أشهر، في برودة عصر يوم من أيام كانون الثاني (يناير)، كانوا يتركون المياه تتدفق كالعادة.

"هيا! كلا المسنّنين هذا المساء"، قال الدولاب وهو يرفس بفرح في أول تدفق للجدول المثلج. "هناك حمل ثقيل من الحنطة وصل للتو من غابة لامبرز. لقد وصلت من مسافة أحد عشر ميلاً في ساعة ونصف في شاحنتنا الجديدة ذات المحرك، كما أن الطحان قد جهز أنواراً جديدة بقوة خمس شمعات في اصطبلات البقر خاصته. سأغذيها الليلة. هناك بقرة على وشك الولادة. أوه، بينما أفكر في ذلك، فما هي الأخبار من كالتون رايز؟"

"المياه تجد مستواها كما في العادة... ولكن لم تطرح السؤال؟" سألت المياه العميقة المتدفقة.

"لأن مانغلز وفلدن والطحان يتحدثون عن زيادة الزرع هنا وإنشاء منشرة على الكهرباء. كنت أتساءل إن كنا..."

قالت المياه ضاحكة: "أرجو عفوكم. ما الذي قلته؟"

"إن كانت لدينا الطاقة الكافية للعمل. سيكون عقداً كبيراً. هناك نهر هاربندن الذي علينا أن نأخذه في الاعتبار وبرك باتن أيضاً وكذلك نبع الساحرات ونظام تشيرت هاو."

قالت المياه: "لدينا ما يكفي من القوة لأي شيء في العالم. والسؤال الوحيد هو ما إذا كنت قادراً على تحمل الجهد لو نزلنا عليك مباشرة."

قال الدولاب: "طبعاً أستطيع. سيحولني مانغلز إلى مجموعة من التوربينات... الحسناوات."

"أوه...أجل... أعتقد أن الجليد قد جعلنا سميكي الذهن قليلاً، ولكن مع من نتحدث؟" سألت المياه المنذهلة.

"إلي أنا... روح المطحنة، طبعاً."

"ليس الدولاب القديم إذن؟"

"حدث أني أعيش في الدولاب العتيق في الوقت الحاضر. حين تركّب التوربينات سأذهب وأعيش فيها. ما الفرق الأرضي الذي يمكن أن يحدث؟"

قالت المياه: "لا فرق إطلاقاً في الأرض أو في المياه تحت الأرض. ولكننا حسبنا أن التوربينات لم تعجبك؟"

"لا أحب التوربينات؟ يا أصدقائي الأعزاء، التوربينات تصلح لألف وخمسمائة دورة بالدقيقة... وبطاقتنا نستطيع دفعها إلى أقصى سرعة. عجباً، لا شيء هناك لم نستطي طحنه أو إضاءته أو تدفئته بمجموعة جديدة من التوربينات ! أي لو أن كل المستجمعات الخمسة كانت موافقة."

"أوه، لقد وافقنا منذ وقت طويل."

"لم لم تقولوا لي إذن؟"

"ألا تعرف. أعتقد أن ذاك فات ذاكرتنا." كانت المياه تمسك نفسها خوفاً من الانفجار ضحكاً.

"لكم هذا عمل يدل على الإهمال! عليكم أن تبقوا متقدمين على العصر يا أعزائي. كنا سنقدر على تسوية هذا الأمر منذ فترة طويلة، لو أنكم تكلمتم فحسب. أجل، أربعة توربينات جيدة وبوابة خزان من الآجر النظيف... أليس كذلك؟ هذا الدولاب القديم أصبح باطل الطراز إلى حد غريب."

"حسناً"، قالت القطة التي عادت، بعد عزلة تدل على الاعتزاز

بالنفس، إلى مكانها غير تائبة كما كانت دائماً. "بفضل الإلهة " سنح"(*) والآلهة القديمة، فإني استطعت على الأقل قد أحافظ على روح المطحنة."

نظرت فيما حولها وكأنها تتوقع حليفاً صادقاً أي الجرذ الأسود. ولكن في ذلك الأسبوع بالذات كان المهندس قد أمسك به وحنّطه، ووضعه في وعاء زجاجي، إذ أنه جرذ إنكليزي أسود أصيل. تلك السلالة، كما يقول التقرير، آخذة بالانقراض بسرعة أمام غارات السلالة البنية.

(*) سنح : إلهة فرعونية لها رأس قط أو لبوة . (المترجم)

السيدة باتهيرست

(١٩٠٤)

اليوم الذي اخترته لزيارة السفينة الحربية البريطانية "بيريدوت" في خليج سايمون كان اليوم الذي اختاره الأميرال ليرسلها بعيداً عن الشاطئ. كانت تبحر مبعدة نحو البحر حين وصل قطاري، وبما أن بقية الأسطول كانت إما تحمل الفحم أو مشغولة عند ميدان الرماية بالبنادق البعيد حوالي ألف قدم صعوداً في الجبل، فقد وجدت نفسي منبوذاً دون وجبة غداء على جبهة البحر دون أمل بالعودة إلى كيب تاون قبل الخامسة عصراً. مع هذه الأزمة كنت محظوظاً إذ قابلت صديقي المفتش هوبر، من إدارة السكة الحديدية لحكومة الكيب، والذي كان مسؤولاً عن قاطرة وعربة فرامل كانتا قيد التصليح.

قال: "إذا حصلت على شيء تأكله، سأنقلك إلى الخط الجانبي في غلنغاريف حتى تصل البضاعة. هناك الجو أبرد من هنا كما ترى."

حصلت على الطعام والشراب من اليونانيين الذين يبيعون كل شيء بسعره، وسارت بنا القاطرة خبباً مسافة ميلين على امتداد الخط إلى خليج من الرمال المنجرفة ومصطبة من الألواح الخشبية نصفها مدفون في الرمال لا تبعد مائة ياردة عن حافة الأمواج المتكسرة على الشاطئ. كانت كثبان غطاها العفن، أكثر بياضاً من الثلج، قد توغلت في البر حتى واد بنّيّ وأرجواني اللون من صخور متشظية وأشجار خفيضة

يابسة. كانت جمهرة من أهل الملايو عند شبكة قرب زورقين باللونين الأزرق والأخضر على الشاطئ. كانت مجموعة خرجت في نزهة ترقص وتصرخ حافية الأقدام حيث كان نهر صغير يسيل عبر التلال الجافة المسطحة ويصنع دائرة من حولها، والتي كانت سفوحها مغطاة برمال فضية وتحجبنا عن البحر ذي الألوان السبعة. عند كلّ قرن من قرني الخليج فإن خط السكة الحديد، فوق العلامة العليا للماء مباشرة كان يجري من حول منكب من الصخور المتراكمة ثم يختفي.

قال هوبر وهو يفتح الباب بينما غادرتنا القاطرة على الخط الجانبي فوق الرمال، وراحت الريح القوية الجنوبية الشرقية التي تهب تحت قمة "إلزي" ترش الرمل في جعتنا. والآن جلس هو إلى ملف من الوثائق الشائكة. لقد عاد من رحلة طويلة متوغلاً في البلاد حيث كان يقدم التقارير حول قاطرات ومعدات سكة الحديد التالفة، وصولاً إلى روديسيا. ثقل الهواء العليل على جفنّي، أغنيته تحت سقف العربة وعالياً بين الصخور، انجراف الحبيبات الدقيقة التي تطارد الواحدة الأخرى موسيقى على الشاطئ، صوت ارتطام الموج، أصوات المتنزهين، حفيف أوراق ملف هوبر، ووجود الشمس المطمئنة مع الجعة، ليرميني كل ذلك في غفوة سحرية. كانت تلال خليج "فولس" تذوب في جبال بلاد الجن حين سمعت وقع الخطوات على الرمل في الخارج وصلصلة الوصلات.

صاح هوبر "أوقف هذا! " دون أن يرفع رأسه عن عمله. "إنهم أولئك الأولاد الصغار القذرون من الملايو، كما ترى. إنهم يلعبون بالشاحنات على الدوام ..."

أجبته : "لا تكن قاسياً عليهم. السكة الحديد مأوى عام في إفريقيا"

إنه الجزء الداخلي من البلاد. وهذا يذكرني". تحسس جيب صداره . " لدي شئ غريب أريك إياه جلبته من وانكيز إلى ما وراء بولاوايو. ربما يكون هذا ذكرى أكثر مما هو ..."

صرخ صوت: "الفندق القديم مسكون. رجال بيض، هذا واضح من لغتهم. جنود البحرية إلى الجبهة!هيًا يا بريتش. هاهو البلمونت خاصتك.عجباً."

طالت الكلمة الأخيرة كحبل والسيد بايكروفت يركض نحو الباب المفتوح، ووقف وهو ينظر إلى وجهي. من خلفه كان رقيب من جنود البحرية هائل الجثة يجر خلفه ساق عشبة بحرية يابسة، و راح ينفض الرمل بعصبية عن أصابعه.

سألته: " ما الذي تفعله هنا ؟ حسبت أن السفينة هييروفانت قد أبحرت."

"وصلنا الثلاثاء الماضي... من تريستان داكونها ... لأجل العمرة، و سوف نبقى في رصيف الإصلاح لمدة شهرين، مع مقاعد بويلر."

أبعد هوبر الملف قائلاً: "تعالا واجلسا."

شرحت له: "هذا السيد هوبر من السكة الحديد، بينما التفت السيد بايكروفت لبجذب الرقيب أسود الشاربين.

قال: "هذا الرقيب بريتشارد من السفينة أغاريك، وهو بحار من رفاق القدماء. كنا نتمشى على الشاطئ." تضرج وجه الرجل هائل الجثة وأومأ برأسه. وقد ملأ جانباً من جوانب العربة حين جلس.

"وهذا صديقي السيد بايكروفت"، أضفت مخاطباً السيد هوبر الذي سبق له وانشغل بالجعة الإضافية التي اشترتها روحي النبوئية من اليونايين.

قال بايكروفت بالفرنسية "وأنا أيضاً"، ثم أخرج من تحت سترته زجاجة سعة ربع غالون عليها لصاقة.

صرخ هوبر: "عجباً! إنها ((باس))!"

قال بايكروفت: " هكذا هو بريتشارد. لا يستطيعون مقاومته."

قال بريتشارد برقة: "الأمر ليس هكذا".

"ربما ليس حرفياً، ولكن النظرة في العين دلت على الشيء نفسه."

سألت: "أين كان ذلك؟"

"في مكان قريب من هنا... عند خليج كالك. كانت تنفض الغبار عن سجادة في شرفة خلفية. لم يكن بريتش قد فعل أكثر من مجرد أن جلب بطارياته ليحملها، و ذلك قبل أن تدخل و ترميها على الجدار."

ربت بايكروفت على الزجاجة الدافئة.

قال بريتشارد: "كل ذلك كان خطأ. لن أستغرب لو أنها أخطأت فحسبتني السيد ماكلين. نحن من حجم واحد."

لقد سمعت عن ملاكي منازل في مويزنبرغ وسانت دجيمز وخليج كالك يتذمرون من صعوبة المحافظة على الجعة أو الخدم الجيدين على شاطئ البحر، وقد بدأت بمعرفة السبب. ورغم ذلك، فقد كان الأمر ممتازاً يا "باس"، وقد شربت أنا أيضاً نخب تلك الفتاة ذات العقل الكبير.

قال بايكروفت: "إنها البزة الرسمية التي تفتنهن وهن يفتن بها. بزتي الزرقاء البحرية البسيطة محترمة ولكنها ليست فاتنة. والآن بريتش

في ملابسه الأفضل هو دائماً ((خرخري يا ماري على الشرفة)) ... بحكم المنصب كما يمكنك أن تقول."

ألحّ بريتشارد: "لقد حسبتني ماكلين، كما أقول لكم. عجباً- عجباً-لو أصغيت له لما ظننت أنه البارحة فحسب..."

قال بايكروفت: "بريتش، فلنكن على حذر في الوقت الملائم. لو بدأنا نحكي ما نعرفه الواحد عن الآخر فسوف نطرد من الحانة. هذا إن لم نذكر الفرار من الخدمة على نحو متفاقم في مناسبات عدة...."

"لم يكن أي شيء يزيد عن غياب دون إجازة... وأتحداك أن تثبت ذلك"، قال الرقيب بحماسة. "ولو وصل الأمر إلى هذا، فكيف جرى الأمر في فانكوفر في عام ٨٧ [يقصد عام ١٨٨٧]؟"

"ماذا عن ذلك؟ من الذي جذب المجداف الأمامي في القارب المتجه إلى الشاطئ؟ من قال لبوي نيفن...؟"

قلت: "لا شك أنك قدمت إلى محكمة ميدانية لأجل ذلك؟" كانت حكاية بوي نيفن الذي أغوى سبعة أو ثمانية رجال أقوياء البنية من البحارة ومشاة البحرية إلى غابات كولومبيا البريطانية عبارة عن أسطورة الأسطول".

قال بريتشارد: "أجل، لقد قدمنا إلى المحكمة الميدانية، ولكن كان علينا أن نحاكم بتهمة القتل لو لم يكن بوي نيفن قاسياً إلى حد غير عادي. لقد قال لنا إن لديه عم سيعطينا قطعة أرض نزرعها. قال إنه ولد في مؤخرة جزيرة فانكوفر، وطوال هذا الوقت كان الشحاذ "يتيم برنادو" اللطيف".

قال بايكروفت: "ولكننا صدقناه. أنا صدقته وكذلك أنت-وباترسون

أيضـاً، ومن كـان بين مشـاة البـحرية الذي تزوج من امـرأة جوز الهند لاحقاً... ذاك صاحب الفم الكبير؟"

"أوه تقصد جونز، سبيت كيد جونز، لم أفكر فيه منذ سنين" ، قال بريتشارد. "أجل، لقد صدق سبيت كيد ذلك ومعه جورج أنستي ومون. كنا شباناً صغاراً وشديدي الفضول."

قال بايكروفت: "إنما كنا جديرين بالحب والثقة إلى درجة ما."

"أتذكـر حين قـال لنا إن علينا أن نمشي في طابور واحد خـوفـاً من الدببـة؟ أتذكر يا باي حين راح يتفاخر في ذلك المستنقع المليء بالأشواك ويتشمم من حوله ويقول إنه يستطيع أن يشم دخان مزرعة عمه؟ وطوال الوقت كانت تلك جزيرة صغيرة قذرة نائية غير مأهولة. لقد سرنا من حولها خلال يوم واحد، ثم عدنا إلى زورقنا الذي كان على الشاطئ. لقد جعلنا بوي نيفن نسير يوماً كاملاً في دوائر ونحن نبحث عن مزرعة عمه! لقد قال إن عمه كان ملزماً بموجب قانون الأرض أن يعطينا مزرعة!"

قال بايكروفت: "لا تغضب يابريتش. لقد صدقناه."

"كان يقرأ الكتب. وقد فعل ذلك فحسب حتى يسير على الشاطئ ثم يجعل الناس يتكلمون معه. نهاراً وليلة-ثمانية منا راحوا يتبعون بوي نيفن في تلك الجزيرة غير المأهولة في أرخبيل فانكوفر! ثم وصلت مفرزة الطوارئ إلينا وبدونا كمجموعة جميلة من الحمقى!"

سأل هوبر: "وماذا نلتم لقاء ذلك؟"

قال بايكروفت: "رعداً ثقيلاً مع برق متواصل لمدة ساعتين. ثم عواصف من المطر الممزوج بالثلج، وبحراً مضطرباً وطقساً بارداً عدائياً

حتى نهاية الرحلة البحرية. لقد حدث ما توقعنا، ولكن ما أحسسنا به- وأؤكد لك ذلك يا سيد هوبر، فحتى البحار لديه قلب يتحطم- هو أنه أبلغنا بأننا بحارة قادرون ومشاة بحرية وقد ضلّلنا بوي نيفن. أجل نحن المساكين المفروض أن نكون قد ضللناه! لقد خدعنا وتهرب من المسألة كلها بسهولة."

"باستثناء ما منحنا إياه على سطح القيادة حين خرجنا من الزنزانات. هل سمعت عنه أي شيء مؤخراً يا باي؟"

"إنه عريف الملاحين في أسطول القنال، كما أعتقد، المستر ل.ل. نيفن."

"وقد مات أنستي، من الحمى في بنين" قال بريتشارد متأملاً. "ما الذي حل بمون؟ أما سبيت-كيد فأعرف أخباره."

"مون... مون! أين سمعت آخر مرة... ؟ أوه، أجل حين كنت على ((البالاديوم)) . لقد قابلت كويغلي في محطة بونكرانا. وقد قال لي إن مون قد جرى حين كان المركب الشراعي ((استرليد)) يبحر بين البحار الجنوبية قبل ثلاث سنوات. لقد أبدى دائماً أمارات كونه شحاذاً مورمونياً [1]. أجل، لقد انزلق مبتعداً بهدوء ولم يكن لديهم الوقت الكافي لمطاردته من حول الجزر حتى لو كان ضابط الملاحة أهلاً للوظيفة."

سأل هوبر: "ألم يكن كذلك ؟"

"لا. حسب كويغلي فإن المركب أسترليد أمضى نصف فترة مهمته وهو يجول الشاطئ مثل سلحفاة، والنصف الآخر أمضاه وهو يفقس بيض

(١) المورمون : طائفة دينية أمريكية تأسست عام (١٨٣٠) . (المترجم)

السلحفاة فوق أعلى عدد كبير من الجروف. وحين رسى في سيدني بدا نحاسه مثل غسيل العمة ماريا على الخيط وكانت إطارات وسط المركب ملوية. وقد أقسم القائد أنه في مرسى ترميم السفن جرى ذلك وهم يدفعون المركب المسكين فوق المنزلق. إنهم يقومون بأمور غريبة في البحر يا سيد هوبر."

"آه! لستُ دافع ضريبة"، قال هوبر وفتح زجاجة جديدة. بدا الرقيب شخصاً يعاني من صعوبة في التخلّي عن المواضيع.

قال: "كيف يعود كل شيء، أليس كذلك؟ عجباً لا بد أن مون قد خدم ستة عشر عاماً قبل أن يهرب."

"هذا يأخذهم في كل الأعمار. انظر إلى ... أنت تعرف"، قال بايكروفت.

سألتُ: "من؟"

"رجل خدمة قبل ثمانية عشر شهراً من خروجه على التقاعد هو الفريق الذي تفكر فيه"، قال بريتشارد. "مذكرة يبدأ رسمها بحرف V ،أليس كذلك؟"

اقترح بايكروفت: "ولكن لو أردنا أن نعبّر عن الأمر على نحو آخر، لا نستطيع أن نقول إنه فرّ فعلاً من الخدمة."

قال بريتشارد: "أوه كلا. كان ذلك مجرد غياب دائم في الجزء الداخلي من البلاد دون إذن. كان ذلك هو كل ما في الأمر."

قال هوبر: "الجزء الداخلي من البلاد؟ هل عمّموا أوصافه؟"

"ولماذا؟" سأل بريتشارد بلهجة تخلو من الأدب.

"لأن الفارين من الخدمة أشبه بطوابير في الحرب. إنهم لا يبتعدون

عن الخط، كما ترى. لقد عرفت شاباً أعتقل في ساليزبري كان يحاول الوصول إلى نياسا. إنهم يقولون لي ولكن بالطبع لا أعرف، إنهم لا يطرحون الأسئلة حول أسطول بحيرة نياسا الصغير. لقد سمعت بضابط بحري P و O صغير وأنه الآمر الناهي على لنش مسلح هناك."

"هل تعتقد أن ((كليك)) ذهب بذلك الاتجاه؟" سأل بريتشارد.

"لا نعرف. لقد أرسل إلى بلومفونتاين لاستلام بعض ذخائر البحرية التي تركت في القلعة. نعرف أنه استلمها وأشرف على وضعها في شاحنات. ثم لم يعد هناك كليك ... آنئذ ومنذ ذلك الحين قبل أربعة أشهر اتضح الأمر، وهكذا كان الأمر مدعاة للحرب في الوقت الحاضر." قال بايكروفت.

سأل هوبر مجدداً: "وما كانت علاماته؟"

سأل بريتشارد: "هل ستنال السكة الحديد مكافأة مقابل إعادتها؟"

رد هوبر بغضب: "لو فعلتُ فهل تفترض أني كنت سأتكلم عن الأمر؟"

قال بريتشارد بهشاشة مماثلة: "بدوت شديد الاهتمام."

"ولماذا سمي كليك" [بالعربية طقطقة]سألت أنا وذلك للتغلب على صمت صغير قلق طغى على الحوار. كان الرجلان يحدق الواحد منهما إلى الآخر على نحو شديد التركيز.

قال بايكروفت: "بسبب رافعة ذخيرة حطمت أربعة من أسنانه ... على الجانب السفلي، أليس كذلك يابريتش؟ أما الأسنان البديلة التي اشتراها فلم تكن مثبتة بالبزالات جيداً لو أردنا التعبير عن الأمر، لذلك حين كان يتحدث بسرعة فقد اعتاد أن يرتفع قليلاً فوق القاعدة، ومن

هنا جاء اسم كليك. كانوا ينادونه بالرجل المتفوق وهذا هو الاسم الذي نطلقه على شحاذ طويل أسود الشعر ذي لغة منمقة وهجين على السطح السفلي للسفينة."

قال هوبر ويده في جيب صداره: "أربع أسنان اصطناعية في الفك السفلي وماذا عن عِلامات الوشم؟"

"انتبه"، بدأ بريتشارد يقول وهو ينهض نصف نهضة. "أنا واثق أننا ممتنون لك جداً كجنتلمان لقاء ضيافتك، ولكن ربما تكون ارتكبت خطأ في ..."

نظرت إلى بايكروفت طالباً المساعدة ... كان وجه هوبر يتضرج بسرعة.

"لو كان رجل مشاة البحرية البدين الذي يحتل الآن أعلى مقدم المركب سيجلب لنا بلطف وضعه الراهن إلى حالة الرسو مرة أخرى، فقد نتمكن من التحدث كجنتلمانين ... هذا إن لم نقل صديقين." قال بايكروفت. "إنه يعتبرك يا سيد هوبر رسولاً للقانون."

"لا أتمنى سوى أن ألاحظ أنه حين يعبر جنتلمان عن مثل هذا الأمر الغريب، أو هل عليّ أن أقول هذا الأمر العجيب المتفتح ضمن علامات مماثلة كصديقنا هنا... "

قاطعت قائلاً: "يا سيد بريتشارد، سأتحمل كل المسؤولية عن السيد هوبر."

قال بايكروفت: "وسوف تعتذر للجميع. أنت شخص صغير وقح يا بريتش."

"ولكن كيف كنت أنا ...؟ " بدأ وهو يرتعش.

"لا أعرف ولا أكترث. اعتذرا"

نظر المارد من حوله محتاراً ثم أخذ بأيدينا الصغيرة في قبضته الهائلة الواحد إثر الآخر.

قال بتواضع الخراف: "كنت على خطأ. كانت شكوكي في غير محلها. يا سيد هوبر، أعتذر."

قال هوبر: "لقد فعلت الصواب حين بحثت عن نهاية الخيط من ناحيتك. كنت سأفعل الأمر نفسه مع جنتلمان لم أكن أعرفه، كما ترى. إن لم تمانع أود أن أسمع المزيد عن السيد فيكري. الأمر معي في أمان كما ترى."

"لماذا هرب فيكري؟" بدأت أسأل. ولكن ابتسامة بايكروفت جعلتني أحول سؤالي إلى: "من كانت هي؟"

"كانت تدير فندقاً صغيراً في هاوراكي ... قرب أوكلاند"، قال بايكروفت.

زمجر بريتشارد وهو يضرب ساقه بيده. "يا إلهي! ليست هي السيدة باتهيرست!"

أومأ بايكروفت برأسه ببطء، ونادى الرقيب على كل قوى الظلام لتشهد على حيرته.

"حسب ما فهمت الأمر فإن السيدة ب. كانت هي السيدة المقصودة."

صرخ بريتشارد: "ولكن كليك كان متزوجاً."

"وله ابنة في الخامسة عشرة من عمرها، لقد أراني صورتها. ولو وضعنا هذا الأمر جانباً، فهل وجدت أن مثل هذه الأمور الصغيرة

ستحدث أي فرق كبير؟ أنا لم أجد ذلك."

"الرب الصالح حي ويرى!... السيدة باتهيرست ..." ثم وبزمجرة أخرى: "تستطيع أن تقول ما تريد يا باي، ولكنك لن تجعلني أصدق أن الحق كان عليها. لم تكن هي كذلك!"

"لو كنت سأحكي ما أريد لبدأت بمناداتك بالثور الأحمق وأتقدم تدريجياً إلى الضغوط الأعلى وأنا مرتاح. أنا أحاول أن أقول فقط ما حصل..وعلاوة على ذلك فأنت على حق هذه المرة الواحدة. لم يكن الحق عليها."

"ما كنت ستجعلني أصدق لو كان الأمر كذلك" هكذا كان الجواب.

مثل هذا الإيمان لدى رقيب من مشاة البحرية أثار اهتمامي كثيراً فصرخت: "لا تهتم إطلاقاً بهذا. قل لي كيف كان شكلها."

قال بايكروفت: "كانت أرملة. تركها زوجها وهي في شرخ الشباب و لم تعاود الزواج. كانت تدير فندقاً صغيراً لأجل ضباط الصف قريباً من أوكلاند وكانت ترتدي على الدوام الحرير الأسود وعنقها..."

قاطعه بريتشارد: "أتسأل كيف كان شكلها. اسمح لي أن أعطيك مثالاً. كنت في أوكلاند أولاً في عام (٩٧) [١٨٩٧]في نهاية مهمة السفينة ماروكان، وبما أني كنت قد رقَيت فقد صعدت مع الآخرين. اعتادت أن تعتني بنا جميعاً، ولم تكن تخسر من جراء ذلك... ولا فلساً واحداً! كانت تقول: ((ادفع لي الآن أو ادفع لاحقاً. أعرف أنك لن تجعلني أعاني. أرسل النقود من الوطن لو أحببت)). عجباً أيها السادة، أقول لكم إني رأيت تلك السيدة تخلع ساعتها وسلسلتها الذهبيتين من عنقها في البار وتعطيها إلى عريف الملاحين. كان قد وصل إلى

الشاطئ دون ساعته، وهو مضطر إلى أن يلحق بآخر زورق. ((لا أعرف اسمك)) ، هكذا كانت تقول. ((ولكن حين تنتهي منها ، ستجد الكثيرين ممن يعرفونني في الجبهة. أرسلها مع أحدهم.)) وكان ثمن تلك الساعة ثلاثين جنيهاً على الأقل. الساعة الذهبية الصغيرة يا باي التي لها مونوغرام أزرق من خلفها. ولكن كما كنت أقول، ففي تلك الأيام كانت تحتفظ بنوع من الجعة كان يعجبني... يسمى سليتس. بطريقة ما وبأخرى لا بدّ أنني كنت قد تناولت بضع زجاجات منه حين كنا في الخليج... وكنا نأتي إلى الشاطئ كل ليلة أو نحوه. كنا نتمازح عبر البار. مرة كنا وحدنا. قلت لها: ((يا سيدة ب، حين أزورك في المرة القادمة أريدك أن تتذكري أن هذه خاصة بي ... مثلما أنت خاصة بي.)) (هل كانت تسمح لك بالتمادي إلى هذا الحد!) قلت: ((مثلما أنت خاصة بي.)) قالت: ((أوه شكراً يا رقيب بريتشارد))، ثم وضعت يدها على خصلة الشعر خلف أذنها. هل تذكر طريقتها تلك يا باي؟"

قال البحار: "أعتقد ذلك"

"تقول هي: ((أجل، شكراً لك يا سارجنت بريتشارد. أقل ما أستطيع عمله هو أن أسجل ذلك في حال غيرت رأيك.لا يوجد طلب كبير عليها في الأسطول ولكن للتأكد من الأمر سأضعها في آخر الرف! ثم قصت قطعة من شريط شعرها بقطاعه السيجار القديمة التي لها شكل الدلفين الموضوعة ... أتذكرها يا باي؟ ثم ربطت بها ما كان قد بقي منها .... مجرد أربع زجاجات. كانت الحرب في عام (١٨٩٧) وليس (١٨٩٦) .في عام (١٨٩٨) كنت على السفينة "ريزلينت"- محطة الصين - تفويض كامل. في عام (١٩٠١) تذكر أني كنت على السفينة

كارثوسيان" في خليج أوكلاند مجدداً. طبعاً ذهبت إلى محل السيدة ب... مع بقية الشبان لنرى كيف كانت الأمور تجري. "كانوا كما هم دائمًا. (أتتذكر الشجرة الكبيرة على الرصيف عند البار الجانبي يا باي ؟) لم يسبق لي أن قلت أي شيء خاص (كان هناك الكثيرون ممن يحادثونها) ولكنها رأتني على الفور."

قلت : "لم يكن ذلك صعباً."

"آه ولكن انتظر. كنت ذاهباً إلى البار حين قالت لابنة أخيها: ((آدا، أحضري لي خاصة الرقيب بريتشارد))، ويا أيها السادة: أقول لكم إنه قبل أن أستطيع مصافحة السيدة، كانت هناك أربعة زجاجات من السليتس مع شريط شعرها وقد التف من حول أعناقها، وقد وضعت أمامي وحين رفعت الغطاء الفليني نظرت إليّ من تحت حاجبيها بتلك الطريقة العمياء التي كانت تنظر بها وقالت:((أيها الرقيب بريتشارد، آمل أنك لم تغير رأيك حول أمورك الخاصة.)) هذا هو نوع المرأة الذي كانت عليه...بعد خمس سنوات!"

قال هوبر ولكن بتعاطف: " ما زلت لاأراها بعد نوعاً ما."

أضاف بريتشارد بشجاعة : "لم تكن هي لتتردد في إطعام بطة عرجاء أو تدوس على عقرب في أي وقت من أوقات حياتها."

"هذا لا يساعدني أيضاً. أمي تشبهها من هذه الناحية."

تنهد المارد ضمن بزته وتقلبت عيناه نحو سقف العربة. قال بايكروفت فجأة:

"كم امرأة عرفتها عن كثب في أنحاء العالم كله يا بريتش؟"

تضرج وجه بريتشارد حتى أضحى بلون الخوخ الذي وصل حتى

الشعرات القصيرة لعنقه قياس سبع عشرة بوصة.

قال بايكروفت: "مئات. أجل. وكم واحدة تستطيع أن تتذكر عدا أول واحدة وربما آخر واحدة ... وواحدة أخرى؟"

قال: الرقيب بريتشارد بارتياح: "قليلات، القليلات الرائعات، الآن أرهق نفسي."

"وكم مرة كنت في أوكلاند ؟"

وبدأ يقول: "مرة ... مرتين ...عجباً، لا أستطيع أن أفعل ذلك أكثر من ثلاث مرات في عشر سنوات. ولكنني أستطيع أن أتذكر كل مرة رأيت فيها السيدة ب ..."

"وكذلك أنا ... وأنا لم أكن في أوكلاند سوى مرتين ...كيف كانت تقف وما كانت تقول وكيف بدت.هذا هو السر. ليس الجمال، كما يقال، والكلام المعسول بالضرورة ولكن الأمر هو ما هو عليه. بعض النساء يبقين في ذاكرة الرجل ولو سرن مرة واحدة في الشارع أمامه، ولكنك تستطيع العيش مع معظمهن شهراً كاملاً، وفي المهمة التالية ستعرف إن كن يتكلمن خلال نومهن، كما يقال."

قال هوبر : "آه! هكذا هي الفكرة. لقد عرفت امرأتين فقط من ذلك النوع."

سأله بريتشارد : "ولم يكن الخطأ خطأهما ؟"

"لا إطلاقاً. أعرف ذلك!"

تابع بريتشارد: وماذا لو صعق المرء بذلك النوع من النساء يا سيد هوبر؟"

"إنه يجنّ ... أو ينقذ نفسه فحسب "، كان الجواب البطيء .

قال الرقيب: " أصبت. لقد رأيت وعرفت شيئاً ما خلال حياتك يا سيد هوبر. أنا أنظر إليك !""

وأنزل زجاجته.

سألت: "وكم مرة رآها فيكري؟"

أجاب بايكروفت: "هذا هو السر الدفين العجيب. لم يسبق لي أن رأيته حتى خرجت على متن السفينة "هيبيروفانت" الآن فحسب، و لم يكن هناك أحد في السفينة يعرف الكثير عنه. كما ترون فقد كان ما تسميه بالرجل المتفوق. لقد كلمني مرة أو اثنتين عن أوكلا ند والسيدة ب خلال الرحلة. وقد تذكرت ذلك بالنتيجة. لا شك أن الكثير جرى بينهما حسب رأيي. انتبه إلى أني أقدم لك فحسب ملخصي للأمر كله، لأن كل ما أعرفه لم تكن معرفتي به مباشرة بل عن طريق شخص آخر، أو أن الأمر أبعد من ذلك حتى."

قال هوبر مقاطعاً: "كيف! لاشك أنك رأيت ذلك أو سمعته."

قال بايكروفت : "أجل. كنت أظن أن المشاهدة والسمع هما أداتا النظام الوحيد لأجل التثبت من الحقائق، ولكن مع تقدمنا في السن نصبح أكثر قدرة على التأقلم. تعمل الاسطوانات على نحو أسهل، كما أفترض... هل كنت في كيب تاون في كانون الأول (ديسمبر) الماضي حين وصل سيرك فيليس؟"

قال هوبر وقد أغتاظ قليلاً من تغير مسار الحديث! "كلا، كنت في داخل البلاد."

"سألتك لأنهم اخترعوا شيئاً جديداً ذا طبيعة علمية يسمى بيت وأصدقاء لقاء ((تيكي))."

"أوه، تعني التصوير السينمائي.... صور حفلات المصارعة والبواخر. لقد شاهدتها في داخل البلاد".

"ما كنت أشير إليه هو التصوير الحي أو التصوير السينمائي. جسر لندن مع السيارات العمومية... سفينة جنود متجهة نحو الحرب... مشاة البحرية وهم يقومون باستعراض في بورتسماوث وقطار بلايموث السريع يصل إلى بادينغتون."

"لقد شاهدتهم جميعاً. شاهدتهم جميعاً"، قال هوبر نافد الصبر.

"نحن طاقم هييروفانت دخلنا قبل أسبوع عيد الميلاد مباشرة وكانت الإجازة سهلة."

"أعتقد أن الرجل يصبح برماً من كيب تاون بسرعة أكبر من أي مكان آخر على المحطة. عجباً، حتى دوربان اقرب إلى الطبيعة. كنا هناك خلال أعياد الميلاد"، قال بريتشارد.

"بما أنني لست من أنصار البيريس الهندي كما قال طبيبنا للفتاة، فلا أستطيع أن أقول بالضبط. كان فيليس في حالة جيدة بعد التمرين على الرمي بالغدّارة في موزمبيق. لم أستطع أن أخرج في الليالي الثلاثة الأولى بسبب ما يمكن أن تسميه وضعاً معقداً مع ملازم أول الطوربيد في السطح الغارق، حيث كان بعض الفخر بالبلد الغربي قد حلّى الجيروسكوب [٢] خاصتنا. ولكنني أتذكر أن فيكري ذهب إلى الشاطئ مع كاربنتر ريغدون-كنا نسميه كروكوس العجوز. وكقاعدة عامة لم يغادر كروكوس سفينته قط ما لم يرفع بواسطة رافعة، ولكنه حين مضى كان يعود وهو يومئ مثل ليلكة جوهرها الندى. وقد كبح غضبه تلك

(٢) الجيروسكوب ، أداة لحفظ توازن السفينة وتحديد الاتجاه . (المترجم)

الليلة ولكن الأمور التي قالها حول فيكري على أنه رفيق لعب ملائم لضابط صف له سعته المكعَّبة تلك قبل أن نهدئه كان ما عليّ أن أسميه بارزاً ."

قال الرقيب: " كنت مع كروكوس ... على السفينة ((ريداوتابل)) . إنه شخصية فريدة حقاً."

في الليلة التالية ذهبت إلى كيب تاون مع دوسون وبرات. ولكن عند باب السيرك شاهدت فيكري. قال: ((أوه! أنت الرجل الذي أبحث عنه. تعال واجلس إلى القرب مني. هذا هو الطريق إلى الأمكنة التي سعرها شلن واحدا" ذهبت نحو الخلف على الفور وأنا أحتج لأن المقاعد ((التيكي)) كانت أكثر ملاءمة لحبيبي. قال فيكري: ((هيا، أنا سأدفع)) طبعاً تخليت عن برات ودوسون متوقعاً شراباً يلائم المقاعد. قال: ((كلا)) حين تم التلميح إلى هذا... ((ليس الآن. ليس الآن. العدد الذي تريده لاحقاً من فضلك، ولكني أريدك صاحياً في هذه المناسبة)) . لمحت وجهه تحت المصباح عند ذاك وقد شفاني مظهره من العطش تماماً. لا مجال للخطأ. لم يبث الرعب فيّ. بل جعلني قلقاً. لا أستطيع أن أقول لكم كيف كان الأمر، ولكن هكذا كان التأثير عليّ. إذا أردتم أن تعرفوا، فقد ذكرني ذلك بتلك الأشياء في الزجاجات في دكاكين بيع الأعشاب الطبية في بلايموت... المحفوظة في الكحول. أشياء بيضاء ومجعدة... سابقة على الولادة كما يمكنك أن تقول."

قال الرقيب وهو يعيد إشعال غليونه: "أنت ذو عقل بهيمي يا باي."

"ربما. كنا في الصف الأول وعرض علينا ((البيت والأصدقاء))

أولاً. لمس فيكري ركبتي حين بدأ العرض. قال: ((إذا رأيت أي شيء يذهلك، فقل لي!)) ثم تابع الطقطقة. شاهدنا جسر لندن وغيره وكان أمراً ممتعاً تماماً. لم أكن قد شاهدته من قبل. سمعنا مولداً صغيراً وكأنه يئزّ، ولكن الصور كانت هي الشيء الحقيقي... حية تتحرك."

قال هوبر: "لقد شاهدت ذلك. الصور مأخوذة طبعاً من الواقع ذاته ... كما ترى."

"ثم دخل قطار البريد الغربي إلى بادينغتون على اللوح السحري الكبير. أولاً شاهدنا المحطة فارغة والحمالين يقفون جانباً. ثم دخلت القاطرة متجهة نحونا فقفزت النساء في الصف الأمامي مجفلات: كانت القاطرة تتجه إلينا على نحو مباشر تماماً. ثم فتحت الأبواب وخرج الركاب وجلب الحمالون الأمتعة ... كما في الحياة الحقيقية. ولكن حين كان أي شخص يقترب كثيراً منا نحن المتفرجين، فقد كان يخرج من الصورة نوعاً ما. كنت شديد الاستمتاع حقاً. وكذلك كنا جميعاً. راقبت رجلاً عجوزاً يحمل سجادة وقد اسقط كتاباً وكان يحاول التقاطه، حين ظهرت ببطء شديد من خلف حمالين- وكانت تحمل حقيبة نسائية صغيرة وتنظر من جانب إلى آخر-السيدة باتهريست نفسها. لم يكن هناك مجال للخطأ في تمييزها ولو كانت واحدة بين مائة ألف. تقدمت إلى الأمام ونظرت مباشرة إلينا على ذلك النحو الذي أشار إليه بريتش. استمرت في المشي حتى خرجت من الصورة... مثل ... ظلّ يقفز فوق شمعة، وبينما هي تمضي سمعت دوسون في مقاعد ((التيكي)) في الخلف يغنّي عالياً: ((يا للمسيح! هاهي السيدة ب!)) "

ابتلع هوبر ريقه واتكأ نحو الأمام بتصميم.

"لمس فيكري ركبتي مجدداً. كان يطقطق بأسنانه الاصطناعية الأربعة على فكه السفلي مثل مصاب بالحمى التيفية في آخر نوبة له. قال : ((هل أنت متأكد ؟)) قلت : ((متأكد، ألم تسمع دوسون وهو ينطق؟ عجباً، إنها المرأة نفسها)). قال : ((كنت متأكداً من قبل، ولكني جلبتك لأتأكد أكثر. هل تأتي معي مجدداً في الغد؟))

"قلت: ((بكل طيبة خاطر. هذا أشبه بلقاء أصدقاء قدامى.))"

"قال: أجل، وفتح ساعته ((من المحتمل جداً. بقي أربع وعشون ساعة إلاّ أربع دقائق قبل أن أتمكن من مشاهدتها مجدداً. تعال نحتسي الشراب. قد يسليك هذا ولكنه ليس نوعاً من العادة الممكنة لي)). خرج وهو يهز رأسه ويتعثر بأقدام الناس كالثمل مسبقاً. توقعت كأساً سريعة وعودة سريعة، لأني كنت أريد أن أرى الفيلة التي تؤدي حركات تمثيلية. ولكن بدلاً عن ذلك راح فيكري يبحر في المدينة بسرعة تصل إلى دخول بار جديد كلما اقتربت الساعة من توقيت غرينيتش إلا ثلاث دقائق. لست بالسكير، رغم وجود بعض الحاضرين - نظر إليّ بعينه التي لا تنسى- ممن سبق لهم ورأوني مشبعاً بالروح المعطرة تقريباً. ورغم ذلك حين أحتسي الشراب أحب أن أفعل ذلك عندما تكون السفينة راسية وليس بسرعة معدلها ثماني عشرة عقدة بالميل المقيس. هناك خزان كما يمكنك أن تقول في مؤخرة ذلك الفندق الكبير فوق التل... ما اسمه؟"

قلت: "خزان مولتينو" ، وأومأ هوبر برأسه.

"كان ذلك هو حدّ الجرافه. سرنا هناك ثم عبرنا الحدائق- كانت الريح تهب من جنوب شرق- وانتهينا إلى رصيف الميناء. ثم اتخذنا الطريق إلى نهر سولت، وكلما كانت هناك حانة كان فيكري يدخلها

متعرقاً. لم ليكن ينظر إلى ما كان يشربه ولا إلى قطع النقود. راح يمشي ويحتسي الشراب ويتعرق أنهاراً. فهمت عندئذ السبب في أن كروكوس العجوز عاد في تلك الحالة التي كان عليها، فقد كنا فيكري وأنا نتابع مناورتنا الغجرية تلك لمدة ساعتين ونصف، وحين عدنا إلى المحطة لم تكن هناك ذرة جافة واحدة عليّ أو فيّ."

سأل بريتشارد: "وهل قال أي شيء؟"

"كان إجمالي كلامه بين الساعة ٧,٤٥ وحتى١١,١٥ مساء هو: ((فلنتناول كأساً أخرى)) ، وكان المساء وكان الصباح يوماً واحداً كما يقول الكتاب المقدس... ولو أردنا أن نختصر حكاية طويلة، لقلت إننا مضينا إلى كيب تاون خمس ليالي متتالية مع السيد فيكري وفي ذلك الحين لاشك أني سرت بسرعة خمسين عقدة فوق الأرض وشربت غالونين من كل أنواع الشراب الأردأ جنوب خط الاستواء. لم تكن المناورة لتتغير قط. مقعدان من فئة الشلن لكلينا. خمس دقائق من الفرجة على السينما، وربما خمس وأربعون ثانية من السيدة ب وهي تمشي باتجاهنا بتلك النظرة العمياء وهي تحمل حقيبتها بيدها. ثم نخرج ونمشي ونحتسي الشراب حتى يحين موعد القطار."

قال هوبر ويده تعبث بجيب صدارته: "ما الذي فكرت فيه؟"

قال بايكروفت: "أشياء عديدة. والحقيقة أني لم أنته بعد من التفكير في الأمر. مجنون؟ كان الرجل مجنوناً تماماً- ولابد أنه كان كذلك شهوراً بحالها-وربما سنوات. أعرف شيئاً عن المجانين كما هو حال كل شخص في القوات المسلحة. لقد خدمت على متن سفينة يقودها ربان مجنون ذات مرة... مجنون من الطراز الأول، ولكن ليس الاثنين معاً

والحمد للسماء. أستطيع أن أعطيك أسماء ثلاثة قباطنة يجب أن يوضعوا في المصحّ، ولكنك لا تجدني أتدخل بالمرضى العقليين حتى يشرعوا في التقاتل بمداكيك البنادق وقبضات الكرنكات. مرة واحدة فحسب زحفت قليلاً في الريح نحو السيد فيكري. قلت: ((أتساءل عما تفعله في إنكلترا. ألا يبدو لك أنها تبحث عن شخص ما؟)) كان ذلك في غاردنز مجدداً، بينما الريح الجنوبية الشرقية تهبّ ونحن نقوم بجولتنا اليائسة. قال: ((إنها تبحث عني))، وهو يتوقف تحت مصباح ويطقطق. حين لم يكن يحتسي الشراب، وخلال الشراب كانت أسنانه كلها تطقطق على الكأس، فقد كان يطقطق بأسنانه الاصطناعية الأربعة مثل تلغراف ماركوني. كان يقول:((أجل ، إنها تبحث عني))، ثم يتابع برقة شديدة أو كما يقال بحنان. يتابع قائلاً: ((ولكن في المستقبل يا سيد بايكروفت، عليّ أن أتقبل الأمر منك بلطف لو كنت ستقصر ملاحظاتك على المشروبات الموضوعة أمامك وإلاّ وبأفضل إرادة في العالم تجاهك، فقد أجد نفسي مذنباً بارتكاب جريمة قتل! هل تفهم؟)) قلت: ((تماماً، ولكن هل سيريحك أن تعرف أنه في مثل هذه الحالة فإن فرص تعرّضك للقتل مساوية بالضبط لفرص تعرضي للقتل.)) قال : ((عجباً، كلا. أعتقد تقريباً أن هذا سيكون إغراء.)) عندها قلت... وكنا تحت المصباح عند القوس الذي في نهاية الغاردنز حيث تلتف عربات الترام... :((إذا افترضنا أن جريمة القتل قد ارتكبت- أو محاولة جريمة القتل - فأنا أضمن لك أنك ستبقى بعدها في حالة من العجز المفرط، حتى أن وقوعك بين يدي الشرطة - التي سيكون عليك أن تخضع لاستجوابها- سيكون أمراً لا يمكن تجنبه إلى

حد كبير.)) قال وهو يمرر يديه فوق جبينه: ((هذا أفضل. هذا أفضل بكثير. هل تعرف، كما أنا الآن، يا باي، لست متأكداً تماماً لو كنت قادراً على الاستجواب.)) كانت تلك كلماته الخاصة الوحيدة التي سمعتها خلال مشاويرنا حسب ما أتذكر!"

قال هوبر: "ويا لها من مشاوير! أوه يا روحي، يا لها من مشاوير!"

قال بايكروفت بجدية: "كانت مزمنة، ولكنني لم أتوقع أي خطر حتى رحل السيرك من المكان . ثم توقعت أنه مع حرمانه من محفّز فقد يمارس رد فعل ضدي ببلطة. وبالتالي، بعد الأداء النهائي والمشوار الناجم تحت المطر، فقد أبقيت نفسي منعزلاً عن رئيسي على متن السفينة وذلك في تنفيذه لواجباته، كما يمكنك أن تعبّر عن الأمر. ونتيجة لذلك، فقد كنت مهتماً بالأمر حين أبلغني الحارس خلال أعمالي القانونية أن كليك قد طلب مقابلة القبطان. وكقاعدة عامة فإن ضباط الصف لا يبدّدون الكثير من وقت المالك، ولكن كليك غاب ساعة وأكثر خلف ذلك الباب. أبقتني واجباتي ضمن مرمى البصر عنه. خرج فيكري أولاً، وقد أومأ إليّ بالفعل وابتسم. وقد رماني هذا خارج السفينة لأني كنت قد رأيت وجهه خمس ليال متتاليات، فلم أتوقع أي تغيير هناك أكثر مما يتوقع مكثّف في الجحيم إذا جاز التعبير. وقد خرج المالك لاحقاً. لم يكن أي شيء واضحاً على وجهه، لذلك عدت إلى موجّه الدفة الذي كان معه منذ ثماني سنوات ويعرفه أفضل من إشارات السفينة. كان اسم موجّه الدفة لامسون وقد عبر القوس مرة أو مرتين بسرعات منخفضة ثم جاء إليّ وقد بدا عليه الهم على نحو جليّ. قال لامسون: "لقد هيأ سحنته الخاصة بالمحكمة الميدانية. سيُشنق أحدهم. لم أر هذه النظرة

سوى مرة واحدة من قبل حين رموا بمهداف المدفع من فوق متن السفينة فانتاستيك. إن رمي مهداف المدفع من فوق السفينة يا سيد هوبر يعادل التمرد في هذه الأيام المنحطة. ويتم هذا لجذب انتباه السلطات وصحيفة "ويسترن مورنينغ نيوز" وذلك من قبل الوّقاد في السفينة. من الطبيعي أن ينتشر الخبر في السطح السفلي من السفينة وقد قمنا بعمرة خاصة لضمائرنا الصغيرة. ولكن باستثناء قميص قال وّقاد من الدرجة الثانية إنه قد دخل إلى كيسه من مركب مشاة البحرية لم يرشح أي شيء. تابع المالك برفع الإشارة التي تعني "احضروا الإعدام العمومي"، ولكن لم يكن هناك جثة في طرف عارضة الشراع. لقد تغدى على الشاطئ وعاد بوجهه النظامي الروتيني المرفئي حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر. وهكذا فقد لامسون الاحترام بسبب تقديمه إنذارات مزيفة. والشخص الوحيد الذي كان يمكن له أن يوصل المسننات الدويرية الفوقية على النحو الصحيح كان بايكروفت حين قيل له إن السيد فيكري سيحضر إلى داخل البلاد في ذلك المساء نفسه لاستلام بعض الذخيرة البحرية التي تركت بعد الحرب في قلعة بلومفونتاين. لم تطلب أي تفاصيل كي ترافق الماستر فيكري. وقد وبّخ بالضمير الأول المفرد-كوحدة- لوحده."

صفّر عضو مشاة البحرية متأملاً.

قال بايكروفت: "هذا ما ظننته. لقد نزلت إلى الشاطئ معه في مركب المؤن وطلب مني أن أعبر المحطة مشياً. وكان يطقطق بصوت مسموع، ولكنه بدا سعيداً خلاف ذلك."

" ((قد تود أن تعرف)) ، قال وهو يتوقف أمام باب الأميرال مباشرة، ((أن سيرك فيليس سيعرض في وورسستر غداً ليلاً. لذلك

سأراها مرة أخرى بعد. كنت صبوراً جداً معي .))، كما قال.

"((انظر إليّ يا فيكري))، قلت. ((هذا الأمر لم يعد محتملاً، أي أن تستهلك دخانك بنفسك. لا أريد معرفة المزيد.))

" ((أنت!)) قال. ((ما الذي لديك لتشكو منه؟ كل ما كان عليك فعله هو أن تراقب. أنا المسؤول))، قال. ((ولكن هذا ليس هنا ولاهناك)) كما قال . ((لديّ شيء واحد أقوله قبل أن المصافحة. تذكّر))، قال. - كنا عند باب حديقة الأميرال عند ذاك - ((تذكّر أني لست قاتلاً، لأن زوجتي الشرعية ماتت في المخاض بعد ستة أسابيع من خروجي. أنا واثق من هذا على الأقل))، كما قال.

"((إذن ما الذي فعلته وله معنى؟)) قلت. قال : ((ما بقية الحكاية ؟))

" ((البقية هي الصمت))، يقول. ثم صافحني ومضى وهو يطقطق ودخل محطة سايمونزتاون."

سألت: "هل توقف ليرى السيدة باتهريست في وورستسر؟"

"لا أحد يعرف. لقد أثبت وجوده في بلومفوتاين ورافق إيصال الذخيرة إلى الشاحنات ثم اختفى. وحين استقال - أو فرّ لو أردت التعبير عن الحكاية على هذا النحو - قبل ثمانية عشر شهراً من تاريخ تقاعده، ولو صحّ ما قاله عن زوجته فقد كان رجلاً حراً. كيف ترى الأمر؟"

قال هوبر: "يا للشيطان المسكين! حتى يراها بهذه الطريقة كل ليلة. أتساءل كيف كان الأمر."

"لقد فكرت في تلك المسألة حتى الصداع في ليال طويلة كثيرة."

"ولكنني أقسم أن السيدة ب لم يكن لها يد في الأمر"، قال الرقيب دون أن يتراجع.

"كلا. مهما كان الخطأ أو الخداع، فقد فعلها، وأنا واثق من ذلك. كان عليّ أن أنظر في وجهه خمس ليال متوالية. لست شديد الولوع بالإبحار من حول كيب تاون مع الريح الجنوبية الشرقية وهي تهب في هذه الأيام. أستطيع سماع تلك الأسنان تطقطق كما يقال."

"أوه، تلك الأسنان" ، قال هوبر وتلمس بيده جيب صداره مرة أخرى. "الأسنان الاصطناعية أشياء دائمة. وأنت تقرأ عنها في كل محاكمات جرائم القتل."

سألت: "ما الذي تعتقد أن القبطان عرفه أو فعله؟"

"لم يسبق لي أن أدرت نور مصباحي في ذلك الاتجاه"، أجاب بايكروفت دون أن يتضرج وجهه.

استغرقنا كلنا في التفكير ورحنا نضرب على زجاجات الجعة الفارغة بينما مرت مجموعة النزهة وقد سفعتها الشمس وتبللت وتلطخت بالرمل ببابنا وهي تغني "صريمة الجدي والنحلة."

قال بايكروفت: " فتاة جميلة تحت ذلك الكاب ؟"

قال بريتشارد : "ألم يعمّموا أوصافه؟"

قال لي هوبر: "كنت أسألك قبل مقدم هذين السيدين إن كنت تعرف وانكيز- على الطريق إلى زامبيزي-إلى ما وراء بولاوايو؟"

سأل بريتشارد: "هل سيمرّ من هناك ...محاولاً الوصول إلى تلك البحيرة التي ما كان اسمها؟"

هزّ هوبر رأسه وتابع يقول: "هناك شيء غريب في الأمر كما ترى.

وهذا يمر عبر غابة من أشجار الساج الصلبة - نوع من الماهوغاني حقاً - اثنان وسبعون ميلاً دون انعطاف. لقد خرج أحد قطاراتي عن سكته هناك ثلاثاً وعشرين مرة في أربعين ميلاً. كنت هناك قبل شهر لأحل محل مفتش مريض، كما ترى. وقد طلب مني أن أبحث عن زوج من المشردين في غابة الساج."

قال بايكروفت: "اثنان. لا أحسد ذلك الرجل الآخر لو ... "

"نحصل على أكوام من المشردين هنا منذ الحرب. وقد قال لي هذا المفتش إني سأجدهم عند الخط الجانبي في مبيندوي ينتظرون ليتجهوا شمالاً لقد أعطاهم بعض الطعام والكينين كما ترى. لقد صعدت إلى قطار إنشاء. بحثت عنهما. رأيتهما على مسافة أميال إلى الأمام على امتداد الخط ينتظران في غابة الساج. كان أحدهما واقفاً عند نهاية الخط الجانبي المغلقة والآخر يقعي وهو ينظر إليه، كما ترى."

سأل بريتشارد "وما الذي فعلته من أجلهما ؟" .

"لم يكن هناك الكثير أستطيع فعله سوى أن أدفنهما . لقد هبت عاصفة رعدية على غابة الساج كما ترى وقد ماتا فتحجرا واسودا كالفحم النباتي. هكذا كانا حقاً، كما ترى .... فحماً نباتياً. وقد تفتتا حين حاولنا نقلهما . كان للرجل الواقف أسنان اصطناعية. رأيتها تلمع على السواد . وقد تفتت هو أيضاً شأن رفيقه المقعي يراقبه، وكانا كلاهما قد ابتلا بالمطر. كلاهما احترقا حتى تحولا إلى فحم نباتي، كما ترى. وهذا ما جعلني أسأل عن العلامات الآن...كان صاحب الأسنان الاصطناعية موشوماً على الذراعين والصدر... تاج ومرسى بشع مع رمز M.V. فوقهما . "

قال بايكروفت بسرعة: "لقد شاهدت ذلك. كان الأمر هكذا."

"ولكنه كان قد تحول كله إلى فحم نباتي؟" قال بريتشارد وهو يرتعد.

"أنت تعرف كيف تبدو الكتابة بيضاء على الورقة المحروقة؟حسناً، كان الأمر هكذا، كما ترى. وقد دفناهما في غابة الساج وأنا احتفظت... ولكنه كانا صديقاً لكما أيها السيدان، كما تريان."

أبعد السيد هوبر يده عن جيب إصداره ... فارغة.

غطى بريتشارد وجهه بيديه برهة، مثل طفل يبعد عنه بشاعة ما.

"وأن تفكر بها في هاوراكي!" همهم... "مع شريط شعرها على زجاجات الجعة خاصتي. ((آدا))، هكذا نادت ابنة أخيها... أوه يا إلهي!"...

"في عصر يوم صيفي، حين تزهر صريمة الجدي،
وتبدو الطبيعة كلها مرتاحة،
تحت التعريشة بين عطر الزهور،
جلست عذراء مع ذاك الذي تحبه أكثر من الجميع..."

هكذا غنت مجموعة النزهة وهي تنتظر قطارها في غلنغاريف.

"حسناً لا أعرف كيف تشعر حيال الأمر"، قال بايكروفت، "ولكن بعد أن رأيت وجهه خمس ليال متتاليات فإني أميل إلى إنهاء ما بقي من الجعة وأشكر الرب أنه ميت."

"هم"

((١٩٠٤))

ذكرني أحد المناظر بمنظر آخر، وقمة جبل برفيقتها، جزئياً عبر الريف، وبما أن جوابي لم يكن يزيد عن عناء دفع رافعة نحو الأمام، فقد تركت الريف يتدفق تحت عجلاتي. وقد راحت السهول المزينة بالأوركيد في الشرق تتراجع أمام الصعتر والبهشية والعشب الرمادي للوهاد. وتتراجع هذه مجدداً أمام الأراضي الغنية المزروعة بالقمح وأشجار التين في الشاطئ السفلي. حيث تحمل أنت نبض المدّ والجزر على يسارك لمسافة خمسة عشر ميلاً. وحين التفت إلى المناطق الداخلية أخيراً عبر حشد من الجبال المستديرة والغابات اجتزتها لأبتعد عن العلامات التي أعرفها، وإلى ما وراء القرية التي تقوم مقام العرّابة لعاصمة الولايات المتحدة، فقد وجدت قرى مخفية حيث النحل - هو الشيء الوحيد المستقيظ - يتجمع في أشجار الزيزفون التي يبلغ طولها ثمانين قدماً وتتدلى مشرفة على كنائس نورماندية. كانت جداول عجائبية تغطس تحت جسور حجرية شيدت لتسير عليها أثقال ما عادت لتعرفها مجدداً. كانت حظائر أعشار الكنيسة أكبر من الكنائس، وهناك ورشة حدادة قديمة تصرخ عالياً كيف كانت ذات مرة قاعة لفرسان المعبد. وجدت غجراً على أرض مشاع حيث يتقاتل الجولق والسرخس والخلنج معاً على امتداد ميل من طريق روماني. وبعد مسافة قصيرة أخرى أزعجت ثعلباً أحمر يتدحرج بطريقة الكلاب تحت نور الشمس العاري.

ومع انغلاق الهضاب المغطاة بالأحراج من حولي وقفت في السيارة لأعرف اتجاهات "داون" ذاك الذي كان رأسه المطوّق معلماً لمسافة خمسين ميلاً عبر الأراضي المنخفضة. حكمت بأن وضع المنطقة سيجعلني أعبر نحو طريق يتجه غرباً ويصل إلى السفح، ولكنني لم أدخل في الحساب الغابات المظلّلة. وقد دفعتني التفافاته سريعة أولاً نحو نفق كئيب حيث كانت الأوراق الميتة من السنة الماضية تهمس وتتعارك مع عجلاتي. كانت أغصان البندق القوية المتلاقية فوقي لم تقطع منذ جيلين على الأقل، ولم يعمل أي فأس على مساعدة أشجار السنديان والزان التي أكلتها الطحالب على القفز من فوقها. وهنا تغير الطريق بانفتاح نحو مجاز غير معبّد ومكسوّ بدت على مخمله البني مجموعات زهر الربيع المبددة كأنها اليشب، وراحت بعض زهور الجريس البيضاء المريضة تحني رؤوسها معاً. ومع نزولي في منحدر ملائم فقد أطفأت المحرك وانزلقت فوق الأوراق المدومة متوقعاً في كل لحظة أن أقابل حارس الغابة. ولكنني سمعت أبا زريق فقط، بعيداً هناك، يجادل ضد الصمت تحت غسق الأشجار.

مازال الدرب نازلاً. كنت على وشك الالتفات والعودة في طريقي على السرعة الثانية قبل أن أنتهي إلى مستنقع، وذلك حين شاهدت نور الشمس من خلال الكتلة المتشابكة إلى الأمام ورفعت المكبح.

كان الدرب ينزل مباشرة. وحين أصاب النور وجهي فإن عجلاتي الأربعة مرت فوق خث مرجة كبيرة هادئة قفز منها فرسان بارتفاع عشرة أقدام يحملون رماحاً مصوبة وطواويس ضخمة ووصيفات رشيقات مدورات الرؤوس بلون أزرق وأسود لامع ـ وكلهم من أشجار الطقسوس

المجزوزة. عبر المرجة-كانت الغابات المرتبة تحيق بها من ثلاثة جوانب - انتصب منزل قديم حجري غطته الأشنات وأبلته عوامل الطقس بنوافذ ذات عمد وأسقف من الآجر الأحمر الزهري. كان محاطاً بسور نصف دائري أحمر زهري أيضاً يغلق المرجة من الجانب الرابع، وعند أسفلها كان ينمو سياج من شجيرات البقس يصل ارتفاعها إلى قامة رجل . على السطح كانت حمامات من حول المداخن الآجرية الرشيقة وشاهدت عش حمام ثمانيّ الجوانب خلف الجدار الحاجب.

توقفت هنا والرمح الأخضر لأحد الفرسان عند صدري. لقد أخذت بذلك الجمال الفائق لتلك الجوهرة على تلك الخلفية.

فكرت: "إن لم أطرد كمتطفل على أملاك الغير أو إذا لم ينقض هذا الفارس عليّ، فلا شك أن شكسبير والملكة إليزابيث على الأقل سيخرجان من باب الحديقة نصف المفتوح ويدعوانني لتناول الشاي."

ظهر طفل عند نافذة عليا، وظننت أن الصغير قد لوّح بيد ودودة. ولكنه فعل ذلك ليحيي رفيقاً له، فقد ظهر الآن رأس لامع آخر. ثم سمعت ضحكة بين طواويس الطقسوس، والتفتّ لأتأكد (حتى ذلك الحين كنت أراقب المنزل فحسب)، فرأيت لجين نافورة خلف سياج يلتمع تحت الشمس. هدل الحمام فوق السطح رداً على هديل الماء. ولكن بين اللحنين سمعت الضحكة الخافتة السعيدة المطلقة لطفل منهمك في عمل مؤذ خفيف.

انفتح باب الحديقة - المصنوع من السنديان الثقيل المنغرز عميقاً في سماكة السور- أكثر: وضعت امرأة في قبعة حدائق كبيرة قدمها ببطء فوق الدرجة الحجرية التي أبلاها الزمن وبالبطء نفسه سارت فوق

الخث. كنت أشكل في ذهني نوعاً من الاعتذار حين رفعت رأسها ولاحظت أنها كانت عمياء.

قالت: "لقد سمعتك. أليست تلك سيارة؟"

بدأت قائلاً: "أخشى أني ارتكبت خطأ في طريقي. كان عليّ أن ألتفت هناك في الأعلى... لم يسبق لي أن حلمت..."

"ولكنني سعيدة جداً. تخيّل سيارة تدخل إلى حديقتي! ستكون تلك متعة كبيرة..." التفتت وتصنعت بأنها تنظر فيما حولها. "هل... شاهدت أحداً ...ربما؟"

"لا أحد أكلمه، ولكن بدا الأطفال منهمكين من بعيد."

"أيهم؟"

"رأيت زوجاً منهم عند النافذة للتو وأعتقد أني سمعت فتى صغيراً في الأرض المحيطة بالمنزل."

صاحت: "يا لك من محظوظ!" والتمع وجهها. "أسمعهم طبعاً، ولكن هذا كل ما في الأمر. هل رأيتهم وسمعتهم؟"

أجبت: "أجل، ولو كنت أعرف أي شيء عن الأطفال لقلت إن أحدهم يقضي وقتاً جميلاً عند النافورة هناك. لقد هرب حسب ما أتصور."

"أأنت مولع بالأطفال؟"

أعطيتها مبرراً أو اثنين عن السبب في أنني لا أكرههم على أي حال.

قالت: "طبعاً، طبعاً. إذن فأنت تفهم. إذن لن تعتقد أنه من الحماقة لو طلبت منك أن تقود سيارتك عبر الحديقة -مرة أو مرتين- ببطء شديد. أنا واثقة أنهم سيودون رؤيتها. إنهم لا يرون إلا قليلاً، المساكين.

يحاول المرء أن يجعل حياتهم سارة، ولكن..." رمت بيديها نحو الغابات. "نحن خارج العالم إلى حد كبير هنا."

قلت: "سيكون هذا رائعاً. ولكني لا أستطيع أن أتلف عشبك."

توجهت نحو اليمين. قالت: "انتظر قليلاً. نحن عند الباب الجنوبي، أليس كذلك؟ خلف تلك الطواويس هناك ممرّ مرصوف بالحجر اللوحي، نسميه ((ممشى الطواويس)). لا تستطيع رؤيته من هنا، كما يقولون لي، ولكنك لو شققت طريقك على امتداد حافة الغابة تستطيع الالتفاف عند أول طاووس والوصول إلى الأحجار اللوحية."

كان أمراً ينطوي على تدنيس للمقدسات أن أوقظ واجهة المنزل الحالمة بضجيج الآلة، ولكني أدرت السيارة لأتخلص من الخث، واندفعت على امتداد حافة الغابة والتفت إلى الممر الحجري العريض حيث كان حوض النافورة يقبع مثل الياقوت الأزرق النجمي.

صرخت: "هل لي أن أدخل أنا أيضاً؟ كلا، أرجوك لا تساعدني. سيحبونها أكثر لو رأوني."

تلمست طريقها بخفة نحو مقدمة السيارة وبقدم واحدة على الدرجة نادت: "أيها الأطفال، أوه، أيها الأطفال! انظروا لتروا ما سيحدث!"

كان يمكن لصوتها أن يسحب الأرواح الضالة من جهنم مع كل ذلك التوق الكامن في عذوبته، وقد دهشت إذ سمعت صرخة مستجيبة إلى ما وراء أشجار الطقسوس. لا شك أنه كان الطفل عند النبع ، ولكنه هرب حين اقتربنا ، تاركاً دمية على شكل زورق صغير في الماء . رأيت التماعة قميصه الأزرق بين الفرسان الساكنين .

وقد سرنا بالسيارة على نحو ودي جداً على امتداد الممشى وعدنا

مجدداً بناء على طلبها . في هذه المرة كان الطفل قد تغلب على فزعه ولكنه وقف بعيداً مليئاً بالشك .

قلت: "الطفل يراقبنا . أتساءل إن كان يحب ركوب السيارة ."

"لا زالوا شديدي الخجل ، شديدي الخجل . ولكنك محظوظ لقدرتك على مشاهدتهم مجدداً ! فلنصغ. "

أطفأت المحرك فوراً وراح السكون الرطب، المثقل برائحة البقس، يغمرنا عميقاً . استطعت أن أسمع صوت مقص أعشاب حيث كان أحد الجنائيين يجز الأعشاب . وسمعت همهمة النحل والأصوات المتقطعة التي يمكن أن تكون صادرة عن الحمام .

قالت مجهدة : " أوه ، غير لطيف !"

"ربما هم خجلون من المحرك . الفتاة الصغيرة عند النافذة تبدو شديدة الاهتمام ."

رفعت رأسها :" أجل ؟ كنت على خطأ إذ قلت ما قلت. إنهم فعلاً مولعون بي . هذا هو الأمر الوحيد الذي يجعل الحياة تستحق أن تعاش ... حين يكونون مولعين بك، أليس كذلك ؟ لا أجرؤ على التفكير فيما قد يبدو عليه المكان دونهم . بالمناسبة، هل المكان جميل ؟ "

" أعتقد أنه أجمل مكان سبق لي أن رأيته".

" هكذا يقول لي الجميع. أستطيع الإحساس بذلك طبعاً ، و لكن هذا ليس الشيء نفسه."

"إذن هل سبق لك أن .... " بدأت ، ولكني توقفت خجلاً.

"ليس منذ أن أستطيع التذكر. لقد حدث الأمر حين كنت لا أزال في الأشهر الأولى من عمري، كما قيل لي. ومع ذلك عليّ أن أتذكر شيئاً

مـا ، وإلا فكيف أستطيع أن أحلم بالألوان. أرى النور في أحلامي وألواناً، و لكني لا أراهم. أسمعهم فحسب كما أفعل و أنا مستيقظة.

"من الصعب مشاهدة الوجوه في الأحلام. بعض الناس قادرون على رؤيتها، ولكن لا يتحلى معظمنا بهذه الموهبة." تابعت و أنا انظر إلى النافذة حيث كان الطفل واقفاً وهو مختبئ.

قالت : "سمعت هذا أيضاً. ويقولون لي إن المرء لا يرى قط وجه شخص ميت في حلم. هل هذا صحيح؟"

"أعتقد ذلك... مع تفكيري في الأمر الآن."

"ولكن كيف هو الأمر معك... معك؟" التفتت العينان اللتان لا تبصران نحوي.

أجبت: "لم يسبق لي أن رأيت وجوه الأشخاص الموتى في أي حلم."

"إذن لا بد أنه أمر سيئ بقدر ما هو أن يكون المرء أعمى."

كانت الشمس قد غطست وراء الغابات وراحت الظلال الطويلة تتملك الفرسان الوقحين واحداً إثر آخر. رأيت النور يموت من أعلى الرمح المغطى بالأوراق اللامعة وبدأ كل الأخضر القاسي الرائع يتحول إلى الأسود الناعم. وهاهو المنزل، وهو يتقبّل نهاية يوم آخر كما تقبّل سابقاً مائة ألف يوم مضت، يبدو وكأنه يستقر على نحو أعمق في استراحته بين الظلال.

قالت بعد الصمت: "هل أردت ذلك ذات مرة؟"

أجبت: "كثيراً جداً في بعض الأحيان." كان الطفل قد غادر النافذة مع هبوط الظلال عليها.

"آه! وأنا أيضاً، ولكن لا أظن هذا مسموحاً به... أين تعيش؟"

"على الجانب الآخر من المقاطعة تماماً...على بعد ستين ميلاً وأكثر، وعليّ أن أعود الآن. لقد جئت دون مصابيحي الكبيرة."

"ولكن الظلام لم يخيّم بعد. أستطيع أن أشعر بذلك."

"أخشى أن يحلّ مع وصولي إلى البيت. هل يمكنك أن تعيريني شخصاً يدلني على الطريق أولاً؟ لقد ضعت تماماً."

"سأرسل مادن معك إلى مفترق الطرق. نحن خارج العالم تماماً، فلا أعجب أنك ضعت! سأوجهك إلى مقدمة المنزل، ولكن عليك السير ببطء، أليس كذلك حتى تخرج من الأرض المحيطة به؟ ليس هذا سخيفاً، ألا تظن ذلك؟"

قلت: "أعدك أني سأسير هكذا." ثم تركت السيارة تنطلق بنفسها على الممر الحجري.

درنا بالجناح الأيسر من المنزل الذي كانت ميازيبه الرصاصية المصبوبة بعناية تستحق رحلة يوم كامل. مررنا تحت بوابة كبيرة نمت عليها الورود في الجدار الأحمر، وكذلك من حول المقدمة السامقة للمنزل التي كانت من حيث الجمال والأبهة تبزّ المؤخرة وكل شيء آخر رأيته.

"هل هو جميل جداً؟ قالت بحزن حين سمعت نشوتي. "وهل تحب الأشكال الرصاصية أيضاً؟ هناك أيضاً حديقة الأزاليا القديمة في الخلف. يقولون إن هذا المكان يبدو وكأنه صنع لأجل الأطفال. هل تساعدني على الخروج من فضلك؟ أود أن أرافقك حتى مفترق الطرق، ولكن ليس عليّ أن أتركهم. أهو ذا أنت يا مادن؟ أريدك أن تري هذا السيد الطريق حتى مفترق الطرق. لقد ضاع، ولكنه... رآهم."

ظهر كبير خدم بصمت عند معجزة من خشب السنديان القديم، لا بد

أنه يُسمى الباب الأمامي، ثم انزلق جانباً ليرتدي قبعته. وقفت وهي تنظر إليّ بعينين زرقاوين مفتوحتين لم يكن فيها بصر، ورأيت للمرة الأولى أنها كانت جميلة.

قالت بهدوء: " تذكر أنك لو كنت مولعاً بهم فستعود مجدداً."، ثم اختفت داخل المنزل.

لم يقل كبير الخدم شيئاً في السيارة حتى كنا قريبين من بوابات المنزل، حيث لمحت قميصاً أزرق ضمن أرض تكسوها الشجيرات فانحرفت ببراعة حتى لا يجرني الشيطان - الذي يقود الصبية إلى اللعب -إلى قتل طفل.

سأل فجأة: "عفواً، ولكن لم فعلت هذا يا سيدي؟"

"الطفل الذي هناك."

"جنتلماننا الصغير في الملابس الزرقاء؟"

"بالطبع."

"إنه يعدو كثيراً في الأرجاء. هل رأيته عند النافورة يا سيدي؟"

"أوه أجل، مرات عديدة.هل ندور من هنا؟"

"أجل يا سيدي. وهل حدث أن رأيتهم في الطابق العلوي أيضاً؟"

"في النافذة العليا؟ أجل."

"هل كان ذلك قبل أن تخرج السيدة لتكلمك، يا سيدي؟"

"قبل ذلك بوقت قصير. لم تريد أن تعرف؟"

صمت قليلاً. "فقط لأتأكد من أنهم... قد رأوا السيارة، يا سيدي لأنه مع وجود أطفال يركضون في أنحاء المكان، ورغم ثقتي من أنك تقود بانتباه على نحو خاص، فقد يحدث حادث. هذا كل ما في الأمر

ياسيدي. هاهو مفترق الطرق. لا يمكنك أن تضيع طريقك من الآن فصاعداً. شكراً يا سيدي، ولكن هذه ليست من عاداتنا، ليس مع..."

قلت: "أرجو عفوك"، وأبعدت قطعة النقد الفضية البريطانية.

"أوه، الأمر صحيح تماماً مع بقيتهم كقاعدة. وداعاً يا سيدي."

عاد إلى برج مراقبته المدرع الخاص بطبقته المتحجرة وسار مبتعداً. من الواضح أنه رئيس خدم حريص جداً على شرف منزله ومهتم ربما من خلال خادمة بحجرة نوم الأطفال.

ما أن أصبحت ما وراء معلم مفترق الطرق، نظرت إلى الخلف، ولكن التلال المغضنة كانت تتداخل على نحو شديد الغيرة حتى أني لم أستطع أن أرى أين كان موقع المنزل. وحين سألت عن اسمه في كوخ على الطريق، جعلتني المرأة البدينة التي كانت تبيع الحلوى أفهم أن الناس من أصحاب السيارات لديهم حق صغير في الحياة... ناهيك عن "التجول والتحدث كأصحاب العربات." لم يكونوا أشخاصاً من ذوي الأسلوب الدمث.

حين تتبعت الطريق الذي سرت فيه على الخريطة في ذلك المساء كنت أكثر حكمة بعض الشيء. بدا أن الاسم المساحي للمكان هو "مزرعة هوكين القديمة"، ولم تذكره صحيفة "كاونتي غازيت" القديمة، وهي المسهبة جداً عادة. كان المنزل الكبير لتلك الأنحاء هو "هودينغتون هول" من العهد الجورجي مع بعض الزخارف من بدايات العهد الفيكتوري كما يشهد بذلك نقش فولاذي قبيح. حكيت لجار لي عن مشكلتي - وكان شجرة عميقة الجذور في تلك التربة - وقد أعطاني اسم أسرة لم توح لي بأي معنى.

بعد شهر أو نحوه لاحقاً... ذهبت مجدداً، أو ربما حدث أن سيارتي اختارت أن تسير على ذلك الطريق بمحض إرادتها. اكتسحت الوهاد غير المثمرة وسلكت كل منعطف في تلك المتاهة من الدروب تحت الهضاب، واقتربت عبر الغابات ذات الأسوار العالية، وهي الصعبة على الاختراق في أوج ازدهارها، وخرجت عند مفترق الطرق حيث غادرني كبير الخدم، ثم عانت [السيارة] من مشكلة داخلية بعد مسافة قصيرة اضطرتني إلى أن ألتف بها نحو درب معشوشب يخترق غابة من أشجار البندق الصامتة صمت الصيف. وبقدر ما استطعت أن أعرف من الشمس ومن خريطة حربية ذات ست بوصات، كان هذا لابدّ هو الطريق المحيط بتلك الغابة التي استكشفتها لأول مرة من المرتفعات المشرفة عليها. بذلت جهدي لإصلاح السيارة مستخدماً عدة الإصلاح خاصتي مع مفاتيح الشد والمضخة وما شابه، والتي نشرتها بشكل منظم فوق بساط. كان ذلك فخاً لإيقاع الطفولة كلها، ففي مثل هذا اليوم لن يكون الأطفال بعيدين جداً كما فكرت. وحين توقفت خلال عملي، أصغبت، ولكن الغابة كانت مليئة جداً بأصوات الصيف (رغم أن الطيور كانت قد تزاوجت) إلى حد أني لم أستطيع في البداية أن أميز هذه الأصوات من أصوات وطء الأقدام الصغيرة الحذرة المتسللة فوق الأوراق الميتة. قرعت جرسي بأسلوب جذاب، ولكن الأقدام ولت الأدبار، وندمت، فبالنسبة إلى طفل يكون الضجيج المفاجئ رعباً حقيقياً جداً. لابد أني كنت منغمساً في العمل مدة نصف ساعة حين سمعت في الغابة صوت المرأة العمياء وهي تصرخ: "أيها الأطفال، أوه أيها الأطفال! أين أنتم؟"، وأبطأ السكون ليحيط بكمال تلك الصرخة. وصلت إليّ وهي تتلمس

طريقها بين جذوع الأشجار نصف تلمس، ورغم أن طفلاً بدا وكأنه يتمسك بتنورتها، فقد انحرف نحو النباتات الكثيفة مثل أرنب ما أن اقتربت أكثر.

قالت: "أهذا أنت؟ القادم من الجانب الآخر من المقاطعة؟"

"أجل هذا أنا من الجانب الآخر من المقاطعة."

"لم لم تحضر إذن عبر الغابات العلوية؟ كانوا هناك للتو."

"كانوا هنا قبل دقائق قليلة. أتوقع أن يكونوا قد عرفوا سيارتي، وقد أتوا من أجل هذه النكتة."

"آمل ألا تكون هناك مشكلة جدية؟ كيف تتعطل السيارات؟"

"بخمسين طريقة مختلفة. ولكن سيارتي اختارت الطريقة الواحدة والخمسين."

ضحكت بمرح من النكتة الصغيرة، وهدلت بضحكة لذيذة ودفعت بقبعتها نحو الخلف.

قالت: "دعني أسمع."

صرخت: "انتظري لحظة وسأجلب لك وسادة."

وضعت قدمها فوق البساط المغطى كله بالقطع التبديلية وتوقفت فوقه بتوق. "يا لها من أشياء ممتعة!" راحت اليدان اللتان ترى من خلالهما تومضان تحت نور الشمس ذي الألوان المختلفة. "صندوق هنا- صندوق آخر! عجباً، لقد رتبتها وكأنها دكان ألعاب!"

"أعترف الآن أني رتبتها لأجذبهم. لا أحتاج إلى نصف هذه الأشياء حقاً."

"لكم هذا لطيف منك! سمعت جرسك في الغابة العليا. تقول إنهم

كانوا هنا قبل ذلك؟"

"أنا واثق من ذلك. لم هم خجلون إلى هذا الحد؟ ذلك الصغير بالثوب الأزرق الذي كان معك للتو كان عليه أن يتغلب على خوفه، فهو يراقبني مثل هندي أحمر."

قالت: "لابد أنه جرسك. لقد سمعت أحدهم يمرّ بي مرتبكاً وأنا أهبط. إنهم خجلون..حتى معي." التفتت بوجهها من فوق كتفها وصرخت مجدداً: "أيها الأطفال، أوه أيها الأطفال! تفرجوا!"

"لا بد أنهم قد عادوا إلى الانهماك بشؤونهم الخاصة"، هكذا كان اقتراحي، فقد سمعت همهمة من خلفنا صادرة عن أصوات هامسة تتخللها ضحكات الطفولة ذات الصرير الحاد. عدت إلى أعمالي السنكرية وانحنت هي نحو الأمام وذقنها على يدها تصغي باهتمام.

قلت أخيراً: "كم عددهم؟" كان العمل قد انتهى، ولكني لم أر سبباً يدعوني إلى الرحيل.

تغضن جبينها قليلاً من التفكير. قالت ببساطة: "لا أعرف بالضبط.أحياناً أكثر... وأحياناً أقل. إنهم يأتون ليمكثوا معي لأني أحبهم كما ترى."

"لا شك أن هذا رائع جداً"، قلت وأنا أعيد درجاً إلى مكانه، وبينما كنت أتكلم لاحظت تفاهة جوابي.

صرخت: "أنت...أنت لا تضحك عليّ. ليس... ليس لدي أولاد. لم أتزوج قط. يضحك الناس عليّ أحياناً فيما يخصهم لأنهم...لأنهم..."

قلت: "لأنهم متوحشون. لا يستحق الأمر أن نتذمر منه. ذلك النوع من الناس يضحك على كل شيء لا يوجد في حياتهم التافهة."

"لا أعرف. كيف يمكنني ذلك؟ أنا فقط لا أحب أن أكون موضع سخرية فيما يخصهم هم. هذا مؤلم. وحين لا يستطيع المرء أن يرى... لا أريد أن أبدو حمقاء"، ارتجف ذقنها مثل ذقن طفل وهي تتكلم. "ولكن نحن المكفوفين لدينا جلد واحد فقط، على ما أعتقد. كل شيء في الخارج يصيب أرواحنا مباشرة. الأمر يختلف معك. لديك دفاعات جيدة من خلال عينيك... فأنت تراقب الخارج...قبل أن يؤلمك أي شخص فعلاً في روحك. ينسى الناس ذلك حين يتعاملون معنا."

صمتّ، ورحت أراجع تلك المسألة التي لا تنضب...الوحشية الأكثر من متوارثة والخاصة بالشعوب المسيحية (حيث أنها تُدرّس بعناية أيضاً)، والتي تبدو إزاءها الوثنية المجردة لزنوج الشاطئ الغربي نظيفة ومكبوحة. لقد قادتني إلى مسافة طويلة داخل نفسي.

قالت فجأة وهي تضع يديها أمام عينيها: "لا تفعل ذلك!"

"ماذا؟"

أومأت بيدها.

"ذلك! إنه...إنه أرجواني وأسود. لا تفعل! هذا اللون يؤلم."

صرخت: "ولكن كيف يمكنك أن تعرفي الألوان؟" فقد كان أمامي اكتشاف مفاجئ مثير بالفعل.

سألت: "الألوان كألوان؟"

"كلا، بل اللونان اللذان رأيتهما للتو."

ضحكت: "تعرف بقدر ما أعرف وإلا ما كنت طرحت ذلك السؤال. إنهما ليسا في هذا العالم إطلاقاً. إنهما فيك أنت...حين غضبت كل ذلك الغضب."

قلت: "أتعنين بقعة أرجوانية كامدة مثل النبيذ البرتغالي الممزوج بالحبر؟"

"لم أر قط الحبر أو النبيذ البرتغالي، ولكن الألوان ليست ممزوجة. تستطيع الانفصال...كلها تنفصل."

"أتعنين أقلاماً وخطوطاً سوداء عبر الأرجواني؟"

أومأت برأسها. "أجل - إن كانت على هذا الشكل"؛ ثم رسمت بإصبعها خطوطاً متعرجة. "ولكنه أحمر أكثر منه أرجواني ... ذلك اللون السيئ."

"وما هي الألوان عند قمة الـ ... ذاك الشيء الذي ترينه؟"

انحنت ببطء نحو الأمام ورسمت فوق البساط شكل البيضة نفسها.

"أراها هكذا"، قالت وهي تشير بقشة. "الأبيض والأخضر والأصفر والأحمر والأرجواني، وحين يغضب الناس أو يكونون شريرين، أرى سواداً عبر الأحمر ... كما كنت أنت للتو."

سألت : "ومن الذي علمك هذا ... في البداية؟"

"الألوان؟ لا أحد. كنت أسأل ما هي الألوان وأنا صغيرة بعد ... أغطية الطاولات والستائر والسجاجيد التي تراها ...لأن بعض الألوان تؤلمني وبعضها يسعدني. كانت الناس تحكي لي. وحين كبرت صرت أرى الناس هكذا." ومن جديد تتبعت بإصبعها مخطط ((البيضة)) التي لا يراها سوى القلة منا.

كررت: "وحدك؟"

"وحدي. لم يكن هناك شخص آخر. لقد اكتشفت فحسب لاحقاً أن الناس الآخرين لم يكونوا يرون الألوان."

اتكأت على جذع الشجرة وهي تضفر وتحل سيقان الأعشاب التي تقطفها بالصدفة. كان الأطفال في الغابة قد اقتربوا أكثر. كنت قادراً على رؤيتهم بزاوية عيني وهم يتقافزون كالسناجب.

"أنا واثقة الآن من أنك لن تضحك علي قط"، تابعت تقول بعد صمت طويل. "ولا عليهم."

"يا إلهي! كلا!" صرخت وأنا أخرج فجأة من سلسلة أفكاري. "من يضحك على طفل ، ما لم يكن الطفل يضحك أيضاً، وثني!"

"لم أعن ذلك بالطبع. أنت لن تضحك على الأطفال قط، ولكنني فكرت -اعتدت أن أفكر- أنك قد تضحك منهم. لذلك أرجو عفوك الآن...ما الذي ستضحك عليه؟"

لم يصدر عني أي صوت، ولكنها عرفت.

"على فكرة طلبك العفو مني. لو قمت بواجبك كعمود من أعمدة الدولة وصاحبة أطيان لكان عليك أن تقاضيني للتعدي وانتهاك حرمة أرضك حين اندفعت بسيارتي ذلك اليوم عبر غاباتك. كان أمراً مشيناً مني...لا يمكن إيجاد عذر له."

نظرت إلي ورأسها مسند إلى جذع الشجرة - لفترة طويلة وبثبات - هذه المرأة القادرة على مشاهدة الروح العارية.

همست: "كم هذا عجيب. كم هو عجيب جداً."

"ماذا، ما الذي فعلته؟"

"أنت لا تفهم...ومع ذلك فهمت مسألة الألوان. ألا تفهم؟"

كانت تتكلم بانفعال لم يكن هناك ما يبرره وواجهتها بحيرة وهي تقف. كان الأطفال قد تجمعوا في حلقة خلف أجمة من شجيرات العليق.

كان رأس أملس الشعر قد انحنى فوق شيء أصغر وعرفت من مجموعة الأكتاف الصغيرة أن الأصابع كانت فوق الشفاه. كان لهم هم أيضاً سرهم الطفولي الهائل. أنا وحدي كنت التائه دون أمل هناك تحت نور الشمس العريض.

قلت: "كلا"، وهززت رأسي وكأن العينين الميتتين كانتا قادرتين على الملاحظة. "مهما يكن الأمر فأنا لا أفهم بعد. ربما سأفهم لاحقاً...لو سمحت لي بالقدوم مرة أخرى."

أجابت: " ستأتي مرة أخرى. لا شك أنك ستأتي مجدداً وتمشي في الغابة."

"ربما سيعرفني الأطفال بما فيه الكفاية حتى أنهم قد يسمحون لي حينئذ أن ألعب معهم...كمنّة. أنت تعرفين كيف هم الأطفال."

"ليست مسألة منّة بل حق"،أجابت، وبينما رحت أتساءل عما تعنيه، اندفعت امرأة شعثاء من حول منعطف الطريق، بشعر فالت، بلون أرجواني، وهي تكاد تفور من الألم خلال عدوها. كانت تلك صديقتي الفظة البدينة من دكان الحلويات. سمعت المرأة العمياء وخطت نحو الأمام. سألت: "ما الأمر يا سيدة ميد هيرست؟"

رمت المرأة بمئزرها فوق رأسها وعفرت نفسها بالتراب، وهي تصرخ بأن حفيدها كان مريضاً حتى الموت، وأن الطبيب المحلي كان بعيداً يصطاد السمك، وأن "جيني" الأم تكاد تفقد عقلها، وهكذا دواليك مع تكرارات وخوار.

سألت بين النوبات:"أين هو أقرب طبيب؟"

"سيدلك مادن على الطريق. اذهب إلى البيت وخذه معك. سأعتني

بهذه. أسرع!" أسندت المرأة البدينة نصف إسنادة وهما تسيران نحو الظل. خلال دقيقتين كنت أطلق كل أبواق أريحا تحت واجهة المنزل الجميل، وهاهو مادن يتصدى للأزمة كرئيس خدم وكرجل.

بعد ربع ساعة وبسرعات غير قانونية استطعنا أن نمسك بطبيب على مسافة خمسة أميال. وخلال نصف ساعة كنا قد أوصلناه-وهو الشديد الاهتمام بالمحركات-عند باب دكان الحلويات، وانتظرنا في الطريق لسماع الحكم.

قال مادن كرجل وليس كرئيس خدم: "السيارات أشياء مفيدة. لو كانت لدي سيارة حين مرضت ابنتي لما ماتت."

سألت: "وكيف حدث ذلك؟"

"إنه الخناق. كانت السيدة مادن غائبة. لم يعرف أحد ما يمكن فعله. قطعت مسافة ثمانية أميال في عربة ثقيلة بحثاً عن الطبيب. وحين عدنا كانت قد اختنقت. كان من شأن هذه السيارة إنقاذها. لو عاشت لبلغت العاشرة الآن."

قلت: "آسف. ظننتك مولعاً بالأطفال مما رويته لي ونحن متجهان نحو مفترق الطرق في ذلك اليوم."

"هل رأيتهم مجدداً يا سيدي ... هذا الصباح؟"

"أجل. ولكنهم كانوا قد اعتادوا على السيارات جيداً. لم أستطع أن أحظى بأي منهم ضمن مسافة تقل عن عشرين ياردة منها."

نظر إلي بعناية كما يدرس كشاف رجلاً غريباً..وليس كما ينظر خادم إلى سيده المعين من الرب.

"أتساءل عن السبب"، قال وهو يتنهد.

انتظرنا. هبت ريح خفيفة من البحر وتجولت على امتداد الخطوط الطويلة من الغابات، أما الأعشاب التي على جوانب الطرقات والتي سبق لها وابيض لونها من غبار الصيف، فقد راحت ترتفع وتنخفض في موجات شاحبة.

خرجت امرأة وهي تمسح رغوة الصابون عن ذراعيها من الكوخ المجاور لدكان الحلويات.

قالت بمرح: "كنت أصغي في الباحة الخلفية. يقول إن آرثر في حالة سيئة غير قابلة للتعليل. هل سمعته وهو يصرخ للتو؟ سيئة غير قابلة للتعليل. أعتقد أنه سيحين دور جيني للسير في الغابة في الأسبوع التالي يا سيد مادن."

"اعذرني يا سيدي، ولكن رداء حضنك ينزلق" ، قال مادن دون اكتراث. أجفلت المرأة، وانحنت وأسرعت مبتعدة.

سألت: "ما الذي تعنيه بـ ((السير في الغابة))؟"

قال: "لا شك أنه قول يستخدمونه في هذه الأنحاء. أنا من نورفولك شخصياً. إنهم من جماعة مستقلة في هذه المقاطعة. لقد حسبتك سائقاً يا سيدي."

شاهدت الطبيب يخرج من الكوخ تتبعه امرأة قذرة الملابس تشبثت بذراعه وكأنه قادر على إبرام معاهدة مع الموت نيابة عنها. أعولت: "ذلك النوع. إنهم أعزاء علينا نحن أمهاتهم كأنهم مولودون شرعاً. بالنسبة نفسها...بالنسبة نفسها! كما سيكون أمراً يسرّ الرب لو أنك أنقذت واحداً منهم يا دكتور. لا تأخذ الأمر مني. ستحكي لك الآنسة فلورنس عن الأمر نفسه. لا تتركه يا دكتور!"

"أعرف، أعرف" قال الرجل، "ولكنه سيكون هادئاً فترة من الزمن الآن. سنجلب الممرضة والدواء بأسرع ما نستطيع." أشار إلي لأتقدم بالسيارة، ولم أحاول أن أكون منخرطاً فيما حدث لاحقاً. ولكني رأيت وجه الفتاة وقد تبقع وتجمد من الحزن، وأحسست أن اليد الخالية من الخاتم كانت تتشبث بركبتي حين انطلقنا مبتعدين.

كان الطبيب رجلاً يتحلى بروح الفكاهة، فأنا أتذكر أنه جعل سيارتي مكرسة لقسم ايسكولابيوس، واستخدمها وإياي دون رحمة، فأولاً نقلنا السيدة ميدهيرست والمرأة العمياء لتسهر قرب سرير الطفل المريض حتى تصل الممرضة وثانياً غزونا بلدة نظيفة بحثاً عن الأدوية التي وصفها الطبيب. (قال الطبيب إن المشكلة هي التهاب السحايا الدماغي الشوكي)، وحين أفاد "معهد المقاطعة" المحاط بقطيع السوق المقدس أنه لم تعد هناك ممرضات لديه حالياً فقد انطلقنا بحرية في أرجاء المقاطعة. تحاورنا مع ملاك المنازل الكبيرة... أقطاب عند نهايات شوارع مقدسة ذات نساء ضخمات الأبدان يتمشين من طاولات الشاي للإصغاء إلى الطبيب المستبدّ. وأخيراً فإن سيدة بيضاء الشعر تجلس تحت شجرة أرز لبنان ومحاطة بمجموعة من الكلاب الروسية المخصصة لمطاردة الذئاب - وكلها معادية للمحركات - أعطت الطبيب، الذي تلقاها كأنها معطاة من أميرة، أوامر خطية حملناها أميالاً كثيرة بأقصى سرعة، عبر منتزه، إلى دير فرنسي للراهبات، حيث تسلمنا مقابل الأوامر راهبة ذات وجه شاحب وراجفة. ركعت عند أسفل المقعد الخلفي للسيارة وهي تكلم سبحتها دون توقف حتى وصلنا بها إلى دكان الحلويات ذات مرة مستخدمين طرقات مختصرة من اختراع الطبيب. كان

ذلك عصراً طويلاً مزدحماً بحوادث مجنونة راحت تبرز وتنحلّ مثل غبار عجلاتنا. المقاطع المستعرضة من الحيوات البعيدة وغير المفهومة والتي أسرعنا خلالها بزاويا قائمة. ثم عدت إلى بيتي في الغسق، منهكاً، لأحلم بقرون القطعان المتصادقة. كانت راهبات بعيون مستديرة تمشي في حديقة من القبور.حفلات شاي سارة تحت أشجار ظليلة. الممرات المطلية باللون الرمادي وتفوح منها رائحة الكاربوليك في "معهد المنطقة". وقع خطوات أطفال خجلين في الغابة، والأيدي التي تتشبث بركبتي والمحرك على وشك الانطلاق.

* * *

كنت أنوي العودة خلال يوم أو اثنين، ولكن شاء القدر أن يمنعني عن الوصول إلى ذلك الجانب من المقاطعة لأسباب كثيرة، حتى أثمر البلسان والورد البري. ثم حلّ أخيراً يوم لامع، أنارته ريح من الجنوب الغربي وجعلت الجبال تبدو في متناول اليد... يوم من الأهوية غير المستقرة وغيوم عالية رقيقة. ودون فضل مني كنت حراً، ووضعت السيارة للمرة الثالثة على ذلك الطريق المعروف. ومع وصولي إلى ذروة "الوهاد" أحسست بالهواء الرقيق يتغيّر، ورأيته يلتمع تحت الشمس. وحين نظرت إلى البحر لمحت في تلك اللحظة اللون الأزرق للقنال يتحول إلى فضة مصقولة وتحول الفولاذ الباهت إلى قصدير داكن. مرت ناقلة فحم محملة وهي تعانق الشاطئ خارجاً نحو المياه الأعمق، وعبر سديم بلون النحاس رأيت الأشرعة تبرز الواحد بعد الآخر فوق أسطول صيد السمك الراسي. في واد عميق خلفي هبت ريح فجائية عبر السنديانات

وطيرت عالياً عينة جافة من أوراق الخريف. وحين وصلت طريق الشاطئ طغى ضباب البحر فوق الحقول وكان المدّ يحكي كل ملتقيات الريح خلف أوشانت. وخلال أقل من ساعة تحولت إنكلترا الصيف إلى لون رمادي بارد. وأضحينا مجدداً الجزيرة المغلقة للشمال، وكانت كل سفن العالم تخور على بواباتنا الخطرة. وبين صرخاتها كانت تجري أنغام النوارس المحتارة. كانت قبعتي تنقط رطوبة، وراحت طيات البساط تحمل بركاً من النداوة المتدفقة في جداول صغيرة والتصقت قشرة ملحية بشفتي.

في داخل البلاد كانت رائحة الخريف محملة بالضباب الكثيف بين الأشجار، وتحول الرذاذ إلى مطر متواصل. ومع ذلك فإن الزهور المتأخرة – خبازى جانب الطريق و زهرة الجرب الحقلية وأضاليا الحديقة – قد بدت رمادية في الضباب، وإلى ما وراء ذلك كان نسيم البحر دليلاً صغيراً على التفسخ في الأوراق. ومع ذلك ففي القرى كانت أبواب المنازل كلها مفتوحة وكان أطفال عراة السيقان والرؤوس يجلسون براحة فوق عتبات الدور الرطبة وهم يصرخون "بيب بيب" للغريب.

تجرأت فناديت على دكان الحلويات حيث قابلتني السيدة ميدهيرست بالدموع المضيافة لامرأة سمينة. لقد مات طفل جيني، كما قالت، بعد يومين من وصول الراهبة. وكان ذلك أفضل كما شعرت حتى لو أن مكاتب التأمين، لأسباب لم تتظاهر هي أنها فهمتها، رفضت أن تؤمن على مثل تلك الحياة الشاردة. "لأن جيني لم تعتن بآرثر وكأنه قد جاء على النحو الصحيح في نهاية السنة الأولى مثل جيني نفسها." وبفضل الآنسة فلورنس فإن الطفل دفن بأبهة، لقد غطت بذلك، في رأي السيدة ميدهيرست، على شذوذ مولده بل وزادت. وصفت التابوت من

الداخل والخارج، وعربة الموتى الزجاجية، والبطانة دائمة الخضرة للقبر.

سألت: "ولكن كيف هي الأم؟"

"جيني؟ أوه، ستتغلب على ذلك. لقد شعرتُ بذلك نفسه تجاه واحد أو اثنين من أولادي. ستتغلب على الأمر. إنها تتمشى في الغابة الآن."

"في هذا الطقس؟"

نظرت السيدة ميدهيرست إليّ بعينين ضيقتين من فوق النضد.

"لا أعرف ولكن هذا من شأنه أن يفتح القلب. أجل، إنه يفتح القلب. إن الخسارة والحمل بصبحان متشابهين جداً في المدى الطويل."

إن كلمات الزوجات العجائز أعظم من كل حكمة الآباء، وهذه النبوءة الأخيرة جعلتني أفكر مطولاً وأنا أصعد الطريق، حتى كدت أدهس امرأة وطفلاً عند الزاوية المغطاة بالغابات لأبواب كوخ بواب "المنزل الجميل."

"طقس رهيب!" صرخت وأنا أتوقف أمام المنعطف.

أجابت بهدوء من داخل الضباب: "ليس سيئاً جداً. لقد اعتدنا عليه. ستجد أصدقاءك في الداخل على ما أعتقد."

استقبلني مادن بلباقة محترفة واستفسارات لطيفة حول صحة المحرك الذي سيضعه تحت غطاء.

انتظرت في قاعة ساكنة لها لون بني كالجوز، لطيفة إذ زينت بالزهور المتأخرة ومدفأة فيها نار الحطب اللذيذة - مكان للتأثير الجيد والهدوء العظيم. (قد يحقق الرجال والنساء أحياناً، بعد جهد عظيم، كذبة قابلة للتصديق. ولكن المنزل الذي هو معبدهم لا يمكنه أن يقول أي شيء سوى حقيقة أولئك الذين يعيشون فيه.) كانت عربة طفل ودمية

ملقيتين على الأرضية السوداء والبيضاء، حيث كانت سجادة قد رُفست نحو الخلف. أحسست أن الأطفال قد أسرعوا للتو- ليختبئوا على الأرجح - في المنعطفات الكثيرة للدرج المنجّر الكبير الذي كان يصعد بثبات إلى خارج القاعة، أو ليقعوا ويحدقوا خلف تماثيل الأسود والورود في الشرفة المنحوتة في الأعلى. ثم سمعت صوتها فوقي، وهي تغني مثلما يغني كفيفو البصر-من الروح:

"في مداخل البستان اللطيفة"

وعاد إليّ كل صيفي الباكر عندما سمعت هذا النداء.

"في مداخل البستان اللطيفة،
فليبارك الرب كل مكاسبنا كما نقول،
ولكن فليبارك الرب كل خسائرنا،
ملائم لمنزلتنا على نحو أفضل!"

أسقطت البيت الخامس المشوه وكررت:

" ملائم لمنزلتنا على نحو أفضل!"

شاهدتها تتكئ على الشرفة ويداها المتشابكتان بيضاوان شأن اللؤلؤ على السنديان.

نادت: "أهو أنت... من الجانب الآخر من المقاطعة؟"

أجبتها ضاحكاً "أجل أنا... من الجانب الآخر من المقاطعة."

" لقد مر زمن طويل حتى حضرت مجدداً إلى هنا." نزلت الدرج بسرعة، ويد واحدة تلمس الدربزون بخفة. مرّ شهران وأربعة أيام. لقد ولّى الصيف."

"كنت أنوي القدوم من قبل، ولكن القدر منعني."

"عرفت ذلك. أرجوك أصلح أمر تلك النار. لا يسمحون لي بالعبث بها، ولكني أستطيع أن أشعر بتصرفها الرديء. اضربها!"

نظرت إلى كلا جانبي المدفأة الجدارية العميقة، ووجدت فيها مجرد وتد سياج نصف متفحم وبواسطته حركت جذعاً أسود ليشتعل.

قالت: "إنها لا تنطفئ ليلاً ونهاراً"، وكأنها تشرح الأمر. "في حال أتى أي شخص بأصابع أقدام باردة، كما ترى."

همهمت: "المكان في الداخل أجمل حتى من الخارج." راح النور الأحمر ينصب على امتداد ألواح غسقية صقلها الزمن حتى أن الزهور والأسود من الطراز التيودوري اكتسبت لوناً وحركة. كانت مرآة محدبة قديمة يعلوها نسر تجمع الصورة في قلبها الغامض، مشوهة من جديد الظلال المشوّهة، وهي تحني خطوط الشرفة محولة إياها إلى منحنيات سفينة. كان النهار يوشك على الانتهاء في نصف ريح عاصفة مع تحول الضباب إلى سحاب رقيق خيطي. وعبر الأعمدة غير المغطاة بالستائر للنافذة العريضة استطعت أن أرى الفرسان الشجعان في المرج وهم يتراجعون ويتقدمون مع الريح التي كانت تهاجمهم ساخرة بفيالق من الأوراق الميتة.

قالت: "أجل، لابدّ أنه جميل. هل تريد أن تتجول فيه للتفرج عليه؟

هناك ما يزال نور كاف في الطابق العلوي."

لحقت بها صاعداً الدرج العريض المتين إلى الشرفة حيث تنفتح الأبواب الرقيقة المحززة من الطراز الإليزابيثي.

"أترى كيف وضعوا المزالج منخفضة لأجل الأطفال." دفعت باباً خفيفاً نحو الداخل.

سألت: "بالمناسبة، أين هم؟ لم أسمعهم اليوم."

لم تجب على الفور. ثم أجابت برقة: "أستطيع أن أسمعهم فحسب. هذه إحدى غرفهم... كل شيء جاهز كما ترى."

أشارت إلى غرفة مكسوة بخشب ثقيل. كانت هناك مناضد صغيرة منخفضة وكراسي أطفال. كان منزل دمى بواجهة نصف مفتوحة ذات خطاف، يواجه حصاناً هزازاً مرقشاً، ومن سرجه ذي اللباد يمكن لطفل أن يزحف بسهولة إلى مقعد الشباك المطل على المرجة. كانت دمية بشكل مسدس قابعة في الزاوية قرب مدفع خشبي مذهّب.

همست: "لا شك أنهم رحلوا للتو." في النور المتلاشي صرّ باب بحذر. سمعت حفيف رداء ووقع أقدام... أقدام سريعة عبر غرفة إلى الوراء.

صرخت بانتصار: "لقد سمعت ذلك. هل سمعت أنت؟ أيها الأطفال، أوه أيها الأطفال! أين أنتم؟"

ملأ الصوت الجدران التي احتوته بحب حتى آخر جَرْس كامل، ولكن لم يصل هتاف جوابيّ كالذي سمعته في الحديقة. أسرعنا من غرفة إلى غرفة ذات أرضية من خشب السنديان. صعدنا درجة هنا ونزلنا ثلاث درجات هناك، بين متاهة من الممرات، وكانت طريدتنا تسخر منا دائماً.

قد يحاول المرء أيضاً أن يمارس حق الصيد الحر بهجمة واحدة. كانت هناك العديد من الثقوب ومن الفجوات في الجدران وفتحات في الحيطان لنوافذ ذات حواف عميقة أضحت معتمة الآن، ويمكن لهم منها أن يقفزوا من خلفنا. كما كانت هناك مدافىء جدارية مهجورة عمقها ستة أقدام ضمن الجدران، وكذلك شبكة معقدة من الأبواب المتصلة. وعلاوة على ذلك، فقد كان الغسق يساعدهم في لعبتنا هذه. لقد سمعت ضحكة مرحة أو اثنتين من ضحكات المراوغة، ورأيت مرة أو اثنتين ظل رداء طفلي أمام نافذة بدأ الظلام يكسوها في نهاية ممر. ولكننا عدنا بأيد فارغة إلى الشرفة، في الوقت الذي كانت فيه امرأة متوسطة العمر تضع مصباحاً في مشكاته.

"لا، لم أرها هي أيضاً هذا المساء يا آنسة فلورنس، ولكن تيربين ذاك يقول إنه يريد أن يراك فيما يتعلق بحظيرته"، هكذا سمعتها تقول.

"أوه، لابدّ أن السيد تيربين يريد أن يراني على نحو ملحّ جداً. اطلبي منه الدخول إلى القاعة يا سيدة مادن."

نظرت إلى القاعة التي كان نورها الوحيد هو النار الكابية، فرأيتهم أخيراً في مكان عميق من الظل. لابدّ أنهم انزلقوا هابطين إلى الأسفل بينما كنا نحن في الممرات، والآن هاهم يظنون أنفسهم مختبئين بالكامل خلف ستار جلدي مذهّب قديم. حسب قانون الأطفال، فإن مطاردتي العقيمة كانت بمثابة تقديم لأجل التعارف، ولكن بما أني كنت قد بذلت جهداً كبيراً فقد قررت أن أجبرهم على التقدم نحو الأمام لاحقاً وذلك بالحيلة البسيطة، التي يمقتها الأطفال، وهي حيلة التظاهر بعدم ملاحظتهم. يبقون قريبين في حشد صغير، ليس أكثر من ظلال إلاّ حين

يكشف لهب سريع خطأً كفافياً.

قالت: "والآن سنتناول بعض الشاي. أعتقد أنه كان عليّ أن أعرضه عليك منذ البداية، ولكن المرء لا يتقن آداب السلوك جيداً حين يعيش وحيداً ويعتبره الناس... حسناً...غريب الأطوار." ثم قالت باستهزاء جميل جداً: "هل تريد مصباحاً لترى وتأكل بنوره؟"

"نور المدفأة أكثر مدعاة للسرور على ما أعتقد." نزلنا إلى تلك العتمة اللذيذة وجلب مادن الشاي.

اتخذت مقعدي في اتجاه الستارة مستعداً للقيام بمفاجأة أو للتعرض لمفاجأة حسب سير اللعبة، وبإذن منها، وبما أن المدفأة مكان مقدس دائماً، فقد انحنيت لأعبث بالنار.

"من أين تحصلين على هذه الحزمات القصيرة الجميلة؟" سألتها بكسل. "عجباً، إنها عصي الحساب."

قالت: "طبعاً. بما أني لا أستطيع القراءة أو الكتابة فقد اضطررت إلى العودة إلى عصا الحساب الإليزابيثية القديمة للقيام بحساباتي. أعطني واحدة وسأريك ما تعنيه."

ناولتها عصا غير محترقة من خشب البندق طولها قدم واحدة، ومرّرت هي إبهامها على الأثلام.

قالت: "هذا سجل الحليب لأجل مزرعة المنزل لشهر نيسان من العام الماضي، محسوباً بالغالونات. "لا أعرف ما كنت سأفعله دون عصي الحساب. لقد علمني حرّاج يعمل لديّ هذا النظام. أصبح باطل الطراز الآن لدى الجميع. ولكن المزارعين المستأجرين لديّ يحترمونه. وأحدهم قادم الآن ليراني. أوه، هذا لا يهم. ليس لديه عمل هنا خارج أوقات

الدوام. إنه رجل جشع وجاهل... شديد الجشع، وإلاّ...لما جاء إلى هنا بعد حلول الظلام."

"ألديك أراض كثيرة. إذن؟"

"مجرد مائتي آكر[1] حمداً للرب. أما الستمائة آكر الأخرى فهي كلها مؤجرة لأشخاص كانوا يعرفون أهلي من قبلي، ولكن تيريين هذا رجل جديد تماماً... وهو قاطع طريق."

"ولكن هل أنت متأكدة من أني لن أكون...؟"

"لا بكل تأكيد. لديك كل الحق. ليس لديه أي أطفال."

"آه، الأطفال!" قلت ثم عدت بكرسيّي الواطئ إلى الخلف حتى لمس تقريباً الستارة التي كانت تخفيهم. "أتساءل إن كانوا سيخرجون إليّ."

سرت همهمة - صوت مادن وصوت أعمق - عند الباب الجانبي الواطئ، ثم تعثر داخلاً أو دفع إلى الداخل مارد بني الرأس يرتدي حذاء قماشياً من النوع الخاص بالمزارعين المستأجرين دون مجال للشك.

قالت: "اقترب من النار."

"لو سمحت يا سيدتي، فأنا سوف...أنا سوف أكون مرتاحاً تماماً قرب الباب." تشبث بالمزلاج وهو يتكلم كطفل خائف. وفجأة أدركت أنه كان تحت تأثير خوف طاغ تقريباً.

"حسناً؟"

"فيما يخص تلك الحظيرة الجديدة للعجول الصغيرة...كان ذلك كل ما في الأمر. هذه العواصف الخريفية المبكرة قد بدأت.... ولكني سأعود مجدداً يا آنسة." لم تكن أسنانه تصطك أكثر بكثير من مزلاج الباب.

---

(١) الآكر=٤٠٠٠ متر مربع (المترجم)

أجابت بصراحة: "لا أعتقد ذلك. الحظيرة الجديدة...حسناً ما الذي كتبه لك وكيلي في اليوم الخامس عشر؟"

"لقد تخيلت ربما أني لو حضرت لأراك... وجهاً لوجه يا آنسة. ولكن..."

قلبت عيناه كل زاوية في الغرفة وقد اتسعتا من الرعب. فتح الباب الذي دخل منه نصف فتحة ولكني لاحظته أنه أغلق من جديد...من الخارج وبقوة.

تابعت تقول: "لقد كتب ما طلبته منه. لقد سبق لك وخزنت ما هو أكثر من اللازم. لم تحمل مزرعة ((دونت)) قط أكثر من خمسين عجلاً...حتى في زمن السيد رايت. وكان هو يستخدم الكعك. لديك سبعة وستون ولا تخبز الكعك. لقد انتهكت عقد الإيجار في هذا الخصوص. أنت تنتزع القلب من المزرعة."

"أنا...أنا سأحصل على بعض المعادن – السوبر فوسفات – في الأسبوع القادم. لقد سبق لي وطلبت حمولة شاحنة منها. سأنزل إلى المحطة غداً في شأنها. ثم سأعود وأواجهك يا آنسة في وضح النهار... ذلك السيد لن يرحل، أليس كذلك؟" زعق تقريباً.

كنت قد انزلقت قليلاً بالكرسي عائداً به إلى الخلف، ومددت يدي إلى الخلف لأنقر على جلد الستارة، ولكنه قفز كجرذ.

"كلا. أرجو أن تصغي إليّ يا سيد تيربين." التفتت وهي في كرسيها وواجهته وظهره إلى الباب. كانت حيلة صغيرة قديمة وكئيبة أجبرته بواسطتها على التراجع... كان طلبه لحظيرة البقر الجديدة على نفقة صاحبة الملك، حتى يستطيع بالسماد المغطى أن يدفع أجرة السنة

التالية من التقييم بعد أن يكون قد استنزف المراعي الغنية حتى العظم، كما أوضحت لي. لم أستطع سوى الإعجاب بشدة جشعه، حين رأيته يواجه من أجله ذلك الرعب الذي يبلّل جبينه بالعرق.

توقفت عن نقر الجلد - كنت بالفعل أحسب كلفة الحظيرة - حين أحسست بيدي المرتاحة تؤخذ وتقلب برقة بين يدي طفل ناعمتين. وأخيراً انتصرت. خلال لحظة سألتفت وأتعرف على هؤلاء الجوالين سريعي الخطو...

سقطت القبلة الصغيرة السريعة في منتصف كفيّ ... كهدية كان من المتوقع للأصابع ذات مرة أن تقبض عليها: كإشارة كلية الإيمان ونصف موبخة لطفل ينتظرغيرمعتاد على الإهمال حتى يكون الكبار في أشد حالات الانهماك - جزء من الرمز الصامت المخترع منذ وقت طويل جداً.

ثم عرفت. وكأنما كنت قد عرفت منذ اليوم الأول حين نظرت عبر المرجة نحو النافذة العالية.

سمعت الباب يغلق. التفتت المرأة إليّ في صمت وأحسست أنها تعرف.

لا أعرف كم من الوقت مرّ بعد ذلك ... لقد نبهني سقوط جذع حطب ونهضت آلياً لأعيده إلى مكانه. ثم عدت إلى مكاني في الكرسي قريباً جداً من الستارة.

"والآن أنت تفهم"، همست هي عبر الظلال المتراصة.

"أجل، أفهم...الآن. شكراً."

"أنا...أنا أسمعهم فحسب." أسندت رأسها إلى يديها. "لا يحق

لي كما تعلم... لا يحق لي. لم ألد ولم أفقد... لم ألد ولم أفقد!"

"كوني سعيدة جداً إذن"، قلت فقد كانت روحي قد تمزقت في داخلي.

"سامحني!"

كانت هادئة تماماً، وعدت إلى حزني وفرحي.

"كان ذلك لأني أحببتهم كثيراً"، قالت أخيراً بضعف. "هكذا كان الأمر، حتى منذ البداية ... حتى قبل أن أعرف أنهم ... كانوا كل ما سأناله قط. وقد أحببتهم كثيراً!"

مدت ذراعيها نحو الظلال والظلال التي ضمن الظل.

"لقد أتوا لأني أحببتهم...لأني كنت في حاجة إليهم. لابد أني جعلتهم يأتون. هل كان ذلك خطأ في رأيك؟"

"كلا...كلا."

"أؤكد لك أن الدمى و ... كل ذلك النوع من الأشياء كانت هراء، ولكن ... ولكني اعتدت على كره الغرف الفارغة حين كنت صغيرة." أشارت إلى الشرفة. "والممرات كلها فارغة...وكيف كنت سأتحمل باب الحديقة مغلقاً؟ افترض...

"كلا! أرجوك، كلا!" صرخت. كان الغسق قد جلب مطراً بارداً مع هبات قوية للريح راحت تضرب النوافذ المرصصة.

"والأمر نفسه يتعلق بإبقاء النار موقدة طوال الليل. لا أعتقد أن هذا تصرفاً أحمق... ما رأيك؟"

نظرت إلى المدفأة الآجرية العريضة ورأيت عبر الدموع، على ما أعتقد، أنه لا يوجد حاجز حديدي مانع عليها أو قربها، وطأطأت برأسي.

"لقد فعلت ذلك وأشياء كثيرة أخرى...وذلك للتظاهر. ثم أتوا. سمعتهم، ولكني لم أعرف أنهم لم يكونوا خاصتي حقاً حتى أخبرتني السيدة مادن..."

"زوجة رئيس الخدم؟ ماذا؟"

"لقد شاهدت – كما سمعت – أحدهم. وقد عرفت طفلتها! ليس لأجلي. أنا لم أعرف في البداية. ربما كنت غيورة. لاحقاً، بدأت أفهم أن السبب كان لمجرد أني أحببتهم، وليس بسبب...أوه، على الواحدة أن تحمل أو تفقد" ، قالت على نحو مثير للشفقة. "لا توجد طريقة أخرى...ومع ذلك فهم يحبونني. عليهم ذلك! أليس هذا صحيحاً؟"

لم يكن هناك صوت آخر في العرفة سوى أصوات النار اللاعقة، ولكننا أصغينا نحو الاثنين باهتمام، وقد استراحت هي على الأقل مما سمعته. استعادت نفسها ونهضت نصف نهضة. كنت أجلس ساكناً في الكرسي قرب الستار.

"لا تحسبني بائسة حتى أنتحب على نفسي على هذا النحو، ولكن ... ولكني في العتمة بكليتي، كما تعرف، وأنت تستطيع أن ترى."

في الحقيقة كنت أستطيع أن أرى، وأكد لي بصري تصميمي، رغم أن ذلك كان يشبه مفارقة الروح والجسم. ومع ذلك كنت سأبقى فترة أطول بما أنها كانت المرة الأخيرة.

صرخت بحدة: "أتظن أن الأمر كان خطأ إذن؟" رغم أني لم أقل شيئاً.

"ليس بالنسبة إليك. وألف مرة لا. بالنسبة إليك الأمر صحيح... أنا ممتنّ لك إلى حد لا يمكن التعبير عنه بالكلمات. بالنسبة إليّ سيكون

الأمرخطأ. بالنسبة إليّ أنا فقط..."

"لماذا؟" سألت، ولكنها مررت يدها أمام وجهها كما فعلت في لقائنا الثاني في الغابة. "أوه، أعرف"، تابعت ببساطة كطفل. "بالنسبة إليك سيكون الأمر خطأ." ثم وبضحكة صغيرة متحفظة. "وهل تتذكر، لقد أسميتك محظوظاً - ذات مرة - في البداية. أنت الذي عليك ألاّ تأتي إلى هنا مرة ثانية!"

تركتني أجلس لفترة أطول قرب الستارة، وسمعت صوت قدميها يتلاشى على امتداد الشرفة في الأعلى.

سكنى مفروضة بالقوة

((١٩٠٥))

" يا صديقي، لو حرفك السبب عن المقصد
قبل أن تكون الحماقة قد ظلمتك كثيراً
بعيداً عن المعارف فلترمي بنفسك،
حيث يمكن للبلد أن تستوعبك ...
حمداً لله أنه قد باركك إلى هذا الحد،
واجلس يا روبين ولترتح."

توماس توسر

حدث الأمر دون إنذار، في الساعة التي كانت فيها يده ممتدة لتُجَعْلِكَ "اتحاد هولتس وغونسبرغ". أسماها أطباء نيويورك بالعمل المفرط، وتمدد هو في غرفة معتمة، بكاحل متصالب مع الآخر ولسان مضغوط على الحنك، متسائلاً إن كانت موجة الدماغ التالية من النيران الواخزة ستدفع بروحه بعيداً عن كل المراسي. وأخيراً أصدروا الحكم: بالعناية قد يعود خلال عامين إلى الحلبة، ولكن في الوقت الحاضر عليه أن يعبر المحيط وألا يقوم بأي عمل كان. وقد قبل الشروط. كان استسلاماً، ولكن "الاتحاد"، الذي كان قد ارتعش تحت خنجره، منحه كلّ أوسمة شرف الحرب. أما غونسبرغ نفسه، وهو المترع بالمواساة، فقد وصل إلى الباخرة وملأ جناح آل "تشابين" بالأزهار.

قال جورج تشابين حين رآها: "فشاغ" [نبات متعرش]."فيتز على حق. أنا ميت. ولكني لا أرى لماذا نسي عبارة ((في ذكرى)) فوق الشرائط!"

أجابت زوجته: "هراء"، وصبت له الدواء. "سرعان ما ستعود قبل أن تستطيع التفكير."

نظر إلى نفسه في المرآة، ودهش لأن وجهه لم تكن قد وسمته نيران جحيم الأشهر الثلاثة الفائتة. كان ضجيج متون المراكب يقلقه وقد اضطجع ولسانه مضغوط قليلاً على حنكه.

بعد ساعة قال: "يا صوفي، أشعر بالأسف لأني سأبعدك عن كل شيء على هذا النحو.أنا....أنا أفترض أننا أكثر شخصين وحيدين في أرض الرب هذه الليلة."

قالت صوفي زوجته ثم قبلته: "أليس شيئاً مهماً لك أننا ذاهبان معاً؟"

* * *

تجولا في أنحاء أوربا شهوراً بحالها...أحياناً وحدهما وأحياناً مع غجر ممن قابلاهم في بلادهم. تجولا من "نورث كيب" إلى "بلوغروتو" في كابري، لأن الباخرة التالية كانت تتجه في ذلك الاتجاه، أو لأن شخصاً ما قد وضعهم على الطريق. كان الأطباء قد حذروا صوفي من أنه ليس عليه أن يهتم حتى في اهتمامات الرجال الآخرين. ولكن إحساساً شائعاً في مؤخر عنقه بعد حديث حميم لمدة ساعة مع قطب سكة حديد "ناوهاميد" قد وفّر عليها المشقة. لقد أوشك على البكاء.

صرخ: "وأنا ظمآن جداً، مع كل ما كنت أنوي فعله!"

قالت صوفي: "فلنسّمه شهرعسل. هل تعرف أنه في كل هذه السنوات الست منذ أن تزوجنا، لم يسبق لك أن قلت لي ما الذي كنت تنوي فعله بحياتك؟"

"بحياتي؟ ما الفائدة؟ لقد انتهت الآن" .رفعت صوفي بصرها بسرعة عن خليج نابولي. "فيما يتعلق بعملي سيكون عليّ أن أعيش على إيجاراتي مثل ذلك المعماري في سان موريتز."

"ستتحسن إذا لم تقلق. وحتى لو تطلب الأمر زمناً طويلاً، فهناك أشياء أسوأ من...كم لديك؟"

"بين أربعة وخمسة ملايين. ولكن المسألة ليست مسألة نقود. أنت تعرفين ذلك. إنه المبدأ. كيف يمكنك أن تحترميني؟ لم تحترميني قط، في السنة الأولى بعد زواجنا، حتى ذهبت للعمل مثل الآخرين. إن تراثنا وتربيتنا ضد هذا. لا نستطيع قبول هذه المثاليات."

"حسناً، أفترض أني تزوجتك من أجل نوع ما من المثال" قالت، ثم عادا إلى فندقهم الثالث والأربعين.

* * *

في إنكلترا افتقد اللغات الأجنبية للشوارع القارية التي كانت تذكرهما بمدنهما متعددة اللغات. في إنكلترا كان الناس كلهم يتحدثون بلغة واحدة، ظاهرياً كالأمريكان كما يبدو للأذن، ولكن لدى الفحص المدقق فهي لغة غير مفهومة.

"آه، ولكنكما لم تريا إنكلترا"، قالت سيدة ذات شعر أشيب

حديدي. كانا قد قابلاها في فيينا وبايروت وفلورنسا، وكانا ممتنين أنهما وجداها مجدداً في فندق كلاريدج، فقد كانت تتحكم بالمواقف، وتعرف أين توجد الوصفات المعدّة على أفضل نحو معتنى به." عليكما أن تهتما بموطن أجدادنا ... كما أفعل أنا."

قالت صوفي: "حاولت مدة أسبوع يا سيدة شونتس ولكني لم أستطع أن أتقدم أكثر من إعطاء البقشيش للندل الألمان."

"هؤلاء ليسوا النمط الأصلي"، تابعت السيدة شونتس. "أعرف أين يجب عليك أن تذهبي."

أصاخ تشابين بسمعه متلهفاً على الجري في أي مكان من الشوارع التي يمارس عليها رجال سريعون من نوعه الأعمال التي تنكر عليه.

"نسمع ونطيع يا سيدة شونتس"، قالت صوفي وهي تتحسس قلقه وهو يشرب الشاي الإنكليزي المكروه.

ابتسمت السيدة شونتس، وشرعت تساعدهما. كتبت رسائل كثيرة وأرسلت برقيات بعيدة لأجلهما، حتى قادتهما، مسلّحين بكتاب تعريف منها، إلى البرية التي يتم الوصول إليها من واقع محطة تسمى "تشارينغ كروس". كانا سيذهبان إلى روكتس، وهي مزرعة شخص يسمى كلوك في المقاطعات الجنوبية، حيث سيقابلان - كما أكدت لهما - إنكلترا الأصيلة بفلكلورها وأغانيها.

وقد وجدا روكتس بعد بضع ساعات، على بعد أربعة أيام من إحدى المحطات، ومما استنتجاه في العتمة الوعرة، فهي بعيدة ضعفي هذه المساحة عن الطريق. كان الأشجار والأبقار والخطوط الكفافية لمخازن القمح تبدو مبهمة من حولهما حين ترجلا، وقد استقبلهما السيد والسيدة

كلوك، عند الباب المفتوح لمطبخ ذي أرضية حجرية عميقة بترحاب بطيء. وقد ناما في علية تحت سقف متموج دهن باللون الأبيض، ولأن المطر كان يهطل، فقد أشعلت نار حطب لهما في سلة حديدية فوق موقد من الآجر، وقد ناما على تغريد الفئران وأنين ألسنة النار.

حين استيقظا كان نهاراً جميلاً، مليئاً بأصوات الطيور ورائحة البقس والخزامى ولحم الخنزير المقدد المقلي الممزوج برائحة طبيعية أولية لم يسبق لهما أن عرفاها.

قالت صوفي وهي تدفع إلى الخارج النافذة البابية في محاولة منها لترى من حول الزاوية: "هذا ما قاله سائق عربة الأجرة لحمال السكة الحديد حول صندوق أمتعتي: ((تماماً فوق القمة))."

"كلا، بل ((حسن بعض الشيء)). أشعر أني بعيد عن أي مكان على نحو لم يسبق لي عرفته طوال حياتي. علينا أن نعرف مكان مكتب التلغراف."

"ومن يكترث؟" قالت صوفي وهي تتجول في العلية، وفرشاة الشعر في يدها، وقد راحت تتأمل في الصور الأسبوعية الملصقة على الباب والخزانة.

ولكن لم تكن هناك راحة للروح الغريبة حتى تتأكد من وجود مكتب التلغراف. لقد سأل ابنة آل كلوك، التي كانت تحضر الإفطار، بينما أقحمت صوفي وجهها في شجيرة الخزامى خارج النافذة الواطئة.

قالت ماري: "اذهب إلى المرقى فوق حقل بارن وانظر عبر باردونز إلى البرج التالي. إنه تحته مباشرة. لا يمكنك سوى أن تراه ... خاصة لو تابعت السير على الممر. أختي هي عاملة التلغراف هناك. ولكنك ضمن

نصف قطر ثلاثة أميال يا سيدي. والصبي يسلم البرقيات مباشرة إلى هذا الباب من قرية باردونز."

همهم: "على المرء أن يأخذ الكثير من الأمور على الثقة في هذا البلد."

نظرت صوفي إلى تربة الخث القريبة، التي لم يرتسم عليها سوى عجلات الليلة الماضية وإلى قناتين تلتفان من حول باحة تحوي أكداساً وإلى دائرة بستان هادئ من حول بيت نصف مكسو بالأخشاب.

قالت: "ما حكايتك؟ البرقيات تسلم إلى ((فيل أوف أفلون)) طبعاً، وأشارت إلى كلب ذي عينين جادتين ذي أساليب مغرية دون عهود وكان يرد أحياناً لو ناديته باسم "رامبلر". وقد قادهم بعد الإفطار إلى التلّة خلف المنزل حيث كان المرقى ينتصب أمام خط السماء. قالت صوفي: "أتساءل عما سنجده الآن"، وذلك وهي تطفر بمرح فوق العشب.

كان ذاك منحدراً من الحقول المسيجة فيها فجوات ملأتها شجيرات كثيفة من العلّيق. لم تكن هناك بوابات، وكانت الأعمدة التي نقبتها الأرانب واحتكت بها القطعان تتكئ خارجاً وداخلاً. هناك ممر ضيق مزدوج بين الشجيرات وعشرات من الذيول البيضاء تلتمع أمام الكلب المسرع، وبرز صقر وهو يصفّر منتشياً.

"لا طرقات. لا شيء إطلاقاً!" قالت صوفي وتنورتها القصيرة عالقة بالورود البرية. "ظننت أن إنكلترا كلها حديقة. هاهو برجك يا جورج، عبر الوادي. لكم هذا غريب!"

سارا نحوه عبر أرض مهجورة تماماً. وهنا وجدا شبح بقعة من الفصّة رفضت أن تموت. هناك كانت أرض مراح قاسية قد استسلمت أمام

شجيرات الشوك التي وصلت إلى ارتفاع ياردة. وهناك مساحة من الأحجار الكبيرة المنتشرة دون كبح متظاهرة بأنها محصول قانوني. في المراعي غير المرعية كانت رقع من المواد الميتة تعلق بأقدامهم، والأرض تحتهم تلتمع من العرق. في قعر الوادي كان جدول صغير قد قوّض جسر المشاة وراح يزبد في الحطام. ولكن انتصبت هناك على السفوح البعيدة غابات عظيمة...عتيقة وسامقة ولامعة مثل القماش المطرز الذي لم تبهت ألوانه فوق جدران منزل مهدم.

قال: "كل هذا ضمن مسافة مائة ميل من لندن. يبدو وكأنه انهيار عصبي أيضاً." كان الدرب ينعطف عند كتف منحنى، عبر أجمة من شجيرات الوردية ويعبر ما كان ذات مرة طريق عربات ينتهي في ظل سنديانتين ضخمتين.

"منزل!" قالت صوفي هامسة. "منزل من الطراز الكولونيالي!"

خلف الاخضرار الأزرق للشجرتين التوأمين كان يبرز مبنى آجري أزرق داكن اللون وعلى بابه ذي الأعمدة نافذة مروحية لها شكل الصدفة. كان الكلب قد ابتعد يلتمس ضالته الحمقاء. وباستثناء حركة ما في الأغصان وطيران أربعة طيور عقعق مجفلة، لم تكن هناك حياة ولا صوت من حول المنزل المربع الشكل، ولكنه بدا ودوداً جداً من خلال نوافذه الطويلة.

"سعدت بلقائك، أنا واثقة من ذلك"، قالت صوفي وانحنت نحو الأرض. "جورج، هذا تاريخ أستطيع أن أفهمه. لقد بدأنا من هنا." ثم انحنت مجدداً.

تلألأت أشعة شمس حزيران (يونيو) على كل المناور. كأنما كانت

سيدة عجوز، وقد اكتسبت حكمة ثلاثة أجيال من الخبرة، عدا الجلسة الأخيرة، قد انحنت لتستمع إلى حفيدتها التي تضرج وجهها واعترتها الحماسة.

"عليّ أن أتفرج عليه!" مشت صوفي على رؤوس أصابعها نحو نافذة، ثم ظلّلت عينيها بيدها. "أوه، هذه الغرفة نصف مليئة ببالات القطن ... الصوف، على ما أفترض! ولكني أستطيع أن أرى جزءاً من المدفأة، يا جورج، تعال! أليست هذه مدفأة رائعة؟"

تراجعت لتلحق بزوجها. فتح الباب الأمامي ببطء، ليظهر وراءه الكلب، وأنفه أبيض من الحليب، وخلفه عجوز يرتدي ثوب أحبار اليهود من الكتان الأزرق والمتجمع على نحو غريب فوق صدره وكتفيه.

قال جورج بصوت نصف مرتفع: "لا شك أنه ((الأب الزمان)) نفسه. هذا كلبنا على ما أعتقد."

"كلا، هذا رامبلر" قال الرجل العجوز. "لقد انقض على دلوي مجدداً. هل تمكثان في روكتس؟ ادخلا. آه أيها الخائن!"

كان الكلب قد أفلت من قبضته، واندفع وراءه نحو الدرب. دخلا البهو ... وكانت له قاعة بمنور مرتفع كما يجب لمنزل كهذا أن يكون. درج ذو درابزون رشيق عريض وضحل كان له ذات مرة لون ابيض كالكريمة، وكان يتسلق تحت نافذة بيضاوية طويلة.على كل جانب كانت أبواب مقولبة بدقة تنفتح نحو غرف فيها أكوام مبعثرة من الصوف، زينت مدافئها الجدارية ذات اللون الأخضر البحري بحوريات ولفائف وكيوبيدات في نقش قليل البروز.

صرخت صوفي بنشوة: "أي شركة تصنع هذه الأشياء؟ أوه، لقد

نسيت! لا بد أن هذه هي الأصلية، آدامز، أليس كذلك؟ لم أحلم قط بأي شيء مثل هذا الدرابزون الفولاذي. هل يسمح لنا بالتجول في كل أرجاء المكان؟"

قال جورج وهو ينظر إلى الخارج: "إنه يلاحق بالكلب. نحن لا نهمّ."

استكشفنا الطابق الأول أو الأرضي، وهما فرحان شأن طفلين يلعبان دور اللصوص.

قالت أخيراً: "هذا يشبه إنكلترا كلها. رائع، ولكن دون تفسير. من المتوقع منك أن تعرف ذلك مسبقاً، والآن لنحاول مشاهدة الطابق العلوي.

لم يصرّ الدرج تحت أقدامهما قط. ومن منبسط الدرج دخلا غرفة طويلة ذات ألواح خضراء تنيرها ثلاثة نوافذ بطول الجدار كله، كانت تطل على الحطام المهجور للحديقة ذات الشرفة والمنحدرات الغابية إلى ما ورائها.

"غرفة الجلوس طبعاً"، وهنا رقصت صوفي وهي تذرعها جيئة وذهاباً. "تلك المدفأة الجدارية...أورفيوس ويوريديس...هي أفضلها إطلاقاً. أليست رائعة؟ عجباً، تبدو الغرفة مؤثثة مع أنه ليس فيها شيء! كيف حدث ذلك يا جورج؟"

"إنها الأبعاد. لقد لاحظت ذلك."

"شاهدت أريكة من طراز هبلوايت ذات مرة"...وضعت صوفي أصبعها فوق خدها المتضرج وفكرت. باثنتين منهما واحدة على كل جانب ...لن تحتاج إلى أي شيء آخر باستثناء...أنه لابدّ من وجود مرآة واحدة كاملة فوق المدفأة الجدارية تلك."

"انظري إلى هذا المشهد. إنها لوحة مؤطرة لكونستابل"، قال زوجها.

"كلا، بل هي لمورلاند... تقليد ساخرلمورلاند. ولكن حول تلك الأريكة يا جورج. ألا تعتقد أن إمباير قد يكون أفضل من هبلوايت؟ ذهب كامد على ذلك الأخضر الشاحب؟ من المؤسف أنهم توقفوا عن صنع البيانو الصغير في هذه الأيام."

"أعتقد أنك تستطيعين الحصول على أحدها. انظري إلى غابة السنديان تلك خلف الصنوبرات."

"((بينما كنت تجلس وتعزف التوكاتة[1] بجلال على موترة المفاتيح[2]))"، همهمت صوفي وأومأت ورأسها مطرق إلى جانب إلى حيث يجب أن تعلق المرآة الكاملة.

ثم وجدا غرف نوم لها حجرات للبس وحجرات تواليت وأدراج تؤدي صعوداً ونزولاً... صناديق حجرات مستديرة ومربعة ومثمنة لها أسقف مزخرفة وأقفال أبواب ذات نقوش.

"والآن ما يخص الخدم. أوه!" كانت قد صعدت آخر درج إلى العتمة ذات المربعات للطابق العلوي حيث كانت بلاطات غير مثبتة تقبع بين شرائح خشبية والجدران مخربش عليها أسماء وعواطف وسجلات الطيران. "كانوا يحتفظون بالحمام هنا"، هكذا صرخت.

"وأنت تستطيعين أن تقودي عربة خفيفة عبر السقف من أي مكان"، قال جورج.

"هذا ما أقوله"، صرخ الرجل العجوز من الأسفل فوق الدرج. "لا مكان جاف لأجل حماماتي على الإطلاق."

قالت صوفي: "ولكن لم سمح للأمور أن تصل إلى هذا الحد؟"

أجاب: "المسألة فيما يخص البيوت تشبه ما يخص الأسنان. نهملها فترة طويلة فلا يعود ممكناً أن نفعل لها شيئاً. مرّ وقت أرادوا فيه بيعه ولكنهم لم يجدوا مشترياً. كان بعيداً عن أي مكان آخر. ومرّ وقت عاشوا فيه هنا هم أنفسهم ولكنهم ماتوا."

"هنا؟" تحركت صوفي تحت نور ثقب في السقف.

"كلا، لم يمت أحد هنا عدا السقوط عن الأكداس وما شابه. لقد ماتوا في لندن." نتف خصلة صوف من ثوبه الفضفاض. "لم يكونوا من ذوي التيلة... لا آل إلفيك ولا آل مون. كانوا قصيرين وهشين جميعاً. ماتوا منذ سبعة عشر عاماً، فأنا هنا أعتني بالمكان منذ خمسة وعشرين عاماً."

سأل جورج: "ولمن هذا الصوف كله في الطابق الأرضي؟"

"يخص الضيعة. سأريك الأجزاء الخلفية لو شئت. أنتما من أمريكا، أليس كذلك؟ كان لي ابن هناك ذات مرة. "لحقا به نزولاً على الدرج الرئيسي. توقف عند المنعطف وأشار بيده نحو الجدار. "الكثير من الاتساع هنا لنزول تابوتك. سبع أقدام وثلاثة رجال عند كل جانب دون أن يحتكوا بالطلاء. لو مت في سريري لكان عليهم أن يقلبوني مثل تنكة الحليب. هذه مسألة حظ، أليس كذلك؟"

راح يقودهم عبر متاهة من المطابخ الخلفية والملابن ومواضع حفظ اللحوم وحجرات غسل الأطباق والآنية التي كانت تذوب على امتداد طرق مغطاة باتجاه منزل مزرعة أكبر عمراً على نحو واضح من المبنى الرئيسي الذي كان ينمو أيضاً بين مخازن القمح والحظائر وزرائب الخنازير

ومرابط الجياد والإسطبلات حتى الحقول الميتة في الخلف.

قالت صوفي وهي تجلس منهكة فوق حافة بئر قديمة: "على نحو ما، فإن على المرء ألاّ يهين هذه الأشياء القديمة الجميلة بملئها بالتبن."

نظر جورج إلى الجدران الحجرية الطويلة التي تسند الألواح الخشبية السنديانية الفضية، دعائم من مزيج الصوان والآجر، درج خارجي، حجر فوق حجر مقوس، منحنيات من قش السقف نبت منها العشب. دوائر من آجر نبتت عليه المتعرشات، وساحة ضخمة ممهدة فيها بقرتان ورامبلر التائب. لم يكن قد فكر في نفسه أو في مكتب التلغراف ساعتين ونصف ساعة.

"ولكن لماذا"، قالت صوفي وهما يعودان عبر وهدة الحقول التالفة..."لماذا يتوقع من المرء أن يعرف كل شيء في انكلترا؟ لم لا ينطقون قط؟".

أجاب: "أتعنين آل إلفيك وآل مون؟"

"أجل ... والمحامون والطبقات الاجتماعية. من هم؟ أتساءل إن كانت تلك الأرضيات المطلية في الغرف الخضراء من السنديان الحقيقي.ألا تريد أن نستكشف الأمور معاً...أليست أفضل حتى من بومبي[٣]؟"

التفت جورج مرة أخرى ليرى المشهد. "ثمانمائة آكر مع المنزل ... كما حكى لي الرجل ... خمس مزارع معاً. روكتس إحداها."

"أحب السيدة كلوك. ولكن ماذا يسمى ذلك المنزل العتيق؟"

ضحك جورج. "هذا أحد الأمور المتوقع منك أن تعرفيها. لم يقل لي ذلك قط."

كان آل كلوك أقل تحفظاً في ذلك المساء وبعد ذلك ولمدة أسبوع قدما لآل تشابين التاريخ الرسمي، كما يقدمه المرء إلى مستأجرين، عن "فريارز باردون"، المنزل ومزارعه الخمس. ولكن صوفي طرحت الكثير من الأسئلة، وكان جورج شديد الاهتمام إلى حد إنساني حتى أنه مع ازدياد الثقة بالشخصين الغريبين فقد شنا بتفصيل ملحوظ ومكتسب هجوماً على حياة وموت وأفعال آل إلفيك وآل مون وأقربائهم وأنسبائهم، آل هيلينغ وآل توريل. كانت حكاية تروى بتسلسل من قبل السيد كلوك في مخزن القمح أو من قبل زوجته في الملبنة، والفصول الأخيرة يحتفظ بها لأجل ليالي المطبخ قرب النار الكبيرة، حين يكون الاثنان قد قضيا نصف النهار وهم يستكشفان المنزل، حيث كان إغولدن العجوز ذو الرداء الأزرق، يضحك ويقوقي عند رؤيتهما. كانت الدوافع التي تتحكم بالشخصيات أبعد من فهمهما. كانت المصائر التي تنقلهم آلهة لم يقابلاها قط. أما الأضواء الجانبية التي كانت السيدة كلوك ترميها على الفعل والحادثة فكانت أكثر إدهاشاً من أي شيء سبق حفظه في سجل. لذلك أصغى آل تشابين باستمتاع وباركا السيدة شونتس.

"ولكن لماذا...لماذا...لماذا حدث هذا أوذاك؟" كانت صوفي تسأل من مقعدها عند كلاّب القدور. وكانت السيدة كلوك تجيب وهي تملّس ركبتيها: "لأجل المكان."

"سأتخلى عن ذلك"، قال جورج في إحدى الليالي في غرفتهما الخاصة. "لا يبدو أن للناس أهمية في هذا البلد بالمقارنة مع الأمكنة التي يعيشون فيها. وممّا روته، فإن فرايرز باردون كان نوعاً من الآلهة التي تتطلب الأضاحي."

قالت صوفي: "يا للشيء المسكين العتيق!" كانا يمشيان من حول المزارع كالعادة قبل الشاي. "لا عجب أنهم أحبوه. فكِّرْ بالتضحيات التي قدموها لأجله. تزوجت جين إلفيك من الابن الأصغر لآل توريل حتى يبقى ضمن العائلة. الغرفة الثانية ذات السقف المقولب إلى القرب من غرفة النوم الكبرى كانت تخصها. والآن ما الذي حكاه لك وهو يطعم الخنازير؟"

"حكى عن أولاد العم من آل توريل والعم الذي مات في جافا(٤). كانوا يعيشون في ((بيرنت هاوتس)) خلف ((هاي باردونز)) حيث ذلك الغدير المسدود."

"كلا، بيرنت هاوس هو تحت غابة هاي باردونز، قبل الوصول إلى ((غيل أنستي))"، صحّحت له صوفي.

"حسناً ولكن كلوك العجوز قال..."

فتحت صوفي الباب وصاحت على المطبخ حيث كان آل كلوك يغطون النار: "يا سيدة كلوك، أليس بيرنت هاوس تحت هاي باردونز؟"

"أجل يا عزيزتي، طبعاً"، أجاب الصوت الناعم بذهول. سعال. "أرجو عفوك يا سيدتي. ما الذي قلته؟"

"لايهم. أفضل أن يكون الأمر عكس ذلك"، قالت صوفي ضاحكة وأعاد جورج قص الفصل الناقص وهي تجلس على السرير.

قال كلوك محذراً: "اليوم هنا وغداً لا أحد. لقد دفعا أجرة شهرهما الأول، ولكن ليس لدينا سوى كتاب الكفالة من السيدة شونتس."

"لم يسبق لها أن أرسلت إلينا من غشّنا حتى الآن. لقد فات الأمر قبل أن أفكر فيه. إنها شابة شديدة النزعة الإنسانية. سيرحلان بعد فترة

قصيرة. ولقد تكلمت كثيراً يا ألفرد."

"أجل، ولكن آل إلفيك ماتوا جميعاً. لا يمكن لأحد أن يعيد كلامي المنفلت إليّ. ولكن لماذا يبقيان ويستمران في البقاء على هذا النحو؟"

في الوقت الملائم سأل جورج وصوفي أحدهما الآخر ذلك السؤال ثم وضعاه جانباً. وقد جادلا بأن المناخ -مزيج لؤلؤي لا يشبه الوحشية الحارة والباردة لبلدهم الأصلي - يلائمها، وكذلك كان السكون السميك لليالي يلائم جورج بكل تأكيد. وقد تخلص حتى من مشهد الطريق المعدن، والذي بما أنه يؤدي على وجه الافتراض نحو التجارة، فهو يوقظ الرغبة في الرجل. أما مكتب التلغراف في قرية فرايرز باردون، حيث تباع البطاقات البريدية المصورة والبناطيل الواسعة في الأعلى والضيقة في الأسفل، فكان يبعد ميلين عبر الحقول والغابات. أما فيما يتعلق بماضيه بين أقرانه، أو تذكرهم له، فكأنما كان هو في كوكب آخر. ولم تكن لدى صوفي، التي قضت حياتها إلى حد كبير بين الزوجات دون أزواج ذوات المثاليات السامية، أي رغبة في التخلي عن هدية الرب هذه. فالوجبات غير المستعجلة والمعرفة المسبقة بالساعات الفارغة اللذيذة التي ستلي، ومساحات السماء الرقيقة الواسعة التي كانا يتمشيان تحتها معاً ويخمنان الوقت بواسطة جوعهما أو عطشهما فحسب، والعشب الطيب تحت أقدامهما والذي كان يجعلهما يمشيان دون أن يشعرا بالمسافات، واكتشافاتهما، معاً دائماً، بين المزارع: غريفونز، روكتس، بيرنت هاوس، غيل أنستي وهوم فارم، حيث كان إغولدن ذو الرداء الأزرق يداهمهما، وكانا يتفحصان المنزل العتيق مجدداً؛ وساعات العصر الرطبة الطويلة حيث كانا يثنيان أقدامهما على عتبة النافذة

العميقة ليشرفا على أشجار التفاح، ويتحدثا معاً كما لم يسبق لهما أن وجدا الوقت للحديث. . .هذه الأمور أسعدت روحها وجسدها.

سألت في صباح أحد الأيام: "هل لاحظت أننا كنا وحيدين هنا على نحو مطلق مدة أربعة وثلاثين يوماً؟"

سألها: "هل عددتها؟"

أجابت: "هل أحببتها؟"

"لا شك، فأنا لم أفكر بها. أجل، لقد فعلت. فقبل ستة أشهر كنت سأتذمر حتى المرض. أتتذكرين القاهرة؟ لم تتدهور حالتي سوى مرتين أو ثلاث. هل أنا أتحسن أو هو الانحلال بسبب الشيخوخة؟"

"المناخ، كله من المناخ"، وأرجحت صوفي جزمتها الإنكليزية الجديدة وهي جالسة فوق مرقى العبور المشرف على فرايرز باردون خلف مخزن تبن آل كلوك.

قال: "على المرء أن يمسك الأمور بيديه على أي حال ولو حتى من أجل أن يبقى على صلة." لم تلتمع عيناه الآن وهما تجتاحان الحقول الفارغة. "أليس كذلك؟"

"أتضع الأراضي المتعرجة لموريستاون على غيل أنستي؟ أتجرأ على القول بأنك تستطيع استئجارها؟"

"كلا، لست إنكليزياً إلى ذلك الحد. . .وليس مثل موريستاون. يقول آل كلوك إن كل المزارع هنا يمكن أن تجبر على الدفع."

"حسناً أنا أناستازيا في ((كنز فرانشار)).أنا سعيدة بكوني حية وأني أهرّ [كقطة].لا داعي للعجلة."

ابتسم قائلاً: "كلا. الأمر سيان، سأذهب لأرى بريدي."

"لقد وعدت بأنك لا تريد أي بريد."

"هناك عمل ما قادم وهو يسليني. أنا صادق. وهذا لا يثير أعصابي."

"هل تريد سكرتيرة؟"

"هذا أمر إنكليزي جداً! ابتعدي." ومع ذلك فقد ردت القبلة في وضح النهار. "سأذهب إلى باردونز. لم أزر ذلك المنزل لمدة أسبوع تقريباً."

"كيف قررت أن تؤثث غرفة نوم جين إلفيك؟" ضحك فقد أصبح بينهما نوع من القلعة الدائمة في إسبانيا.

"بأثاث صيني أسود وقماش حريري مطرز أصفر"، أجابته ثم ركضت هابطة التل. أفزعت بضع بقرات في شعب بتلويحها بغصن شجرة دردار أرضية كان إغولدن قد قصه لها قبل أسبوع، وهي تغني خلال مرورها تحت أشجار السنديان، واتجهت نحو منزل المزرعة في مؤخرة منزل فرايرز باردون. لم يكن الرجل العجوز موجوداً، وقد طرقت بابه نصف المفتوح، فقد كانت في حاجة إليه لملء فترة العصر الفارغة. زحف كلب رعاة أزرق العينين، صديق جديد وعدو قديم لرامبلر، وناشدها أن تدخل.

كان إغولدن جالساً في كرسيه قرب النار، وبين ركبتيه مسحاة الشوك وقد تدلى رأسه. ورغم أنه لم يسبق لها أن رأت شخصاً ميتاً قبل الآن، فإن قلبها الذي توقف عن النبض مرة واحدة، قال لها إن الرجل كان ميتاً. لم تنطق أو تصرخ، بل وقفت خارج الباب والكلب يلعق يدها. وحين رفع أنفه، سمعت نفسها تقول: "لاتنبح! أرجوك لا تبدأ بالنباح، يا ((سكوتي))، أو سأهرب!"

ثبتت في مكانها بينما راحت الظلال في باحة الأكداس تتحرك نحو فترة الظهيرة. ثم جلست بعد وهلة على الدرج قرب الباب، وذراعاها من حول عنق الكلب، تنتظر وصول شخص ما. راقبت المداخن التي بلا دخان لمنزل فرايرز باردون وهي تضرب أسقفها بالظل، ودخان آخر نار أشعلها إغولدن وهو يتلاشى تدريجياً حتى يزول. وضد إرادتها ستتساءل كم عدد الأفراد من آل مون وآل إلفيك وآل توريل حملوا من حول منعطف درج القاعة العريض. ثم تذكرت كلام الرجل العجوز عن كونه "منتهياً مثل تنكة حليب"، ثم دفنت وجهها في القش الرمادي القديم لباحة الأكداس، ووجدت نفسها تواجه الكاهن:وهو شخص رأته في الكنيسة يخطب عن المستحيلات (كانت صوفي من أتباع الطائفة الموحدّية[٥]) بصوت غير طبيعي.

قالت دون مقدمات: "إنه ميت."

"إغولدن العجوز؟ كنت قادماً لأكلمه." دخل الكاهن بعد أن رفع قبعته [احتراماً للميت]سمعته سيقول: "آه، سكتة قلبية! منذ كم من الوقت أنت هنا؟"

"منذ الحادية عشرة إلا الربع". نظرتْ إلى ساعتها بتوق ولاحظتْ أن يدها لم ترتجف.

"سأجلس معه الآن حتى يصل الطبيب. هل تعتقدين أنك قادرة على إبلاغه، و...أجل، السيدة بتس في الكوخ ذي النبات المعترش قرب الحداد؟ أخشى أن يكون في الأمر صدمة لك."

أومأت صوفي برأسها، وأسرعت هاربة نحو القرية. خانها جسدها لحظة واحدة. توقفت تحت سياج، ونظرت نحو المنزل الضخم. بأسلوب ما

جعلها صمته وتبلّده أكثر هدوءاً وقدرة على تنفيذ مهمتها.

كانت السيدة بتس ضئيلة الحجم ذات العينين السوداوين والبشرة السمراء غير آبهة تقريباً شأن فرايزز باردون.

"أجل،أجل، بالطبع.يا إلهي!حسناً، إغولدن عاش أياماً جيدة في زمن أبي. يا موريبل، أحضري لي حقيبتي الزرقاء الصغيرة. أجل يا سيدتي. إنهم ينهارون مثل أغصان الدردار في الطقس الهادئ. دون تحذير إطلاقاً. يا موريبل، دراجتي خلف بيت الطيور.سأبلغ الدكتور دالاس يا سيدتي."

تدحرجت فوق عجلها مثل نخلة سمراء بينما سارت صوفي-وقد تغيرت السماء من فوق والأرض من تحت-نحو البيت متيبسة الأعضاء،لتقع فوق جورج المنهمك في قراءة رسائله، في مزيج من الضحك والدموع.

لهثت: "الأمر كله طبيعي بالنسبة إليهم.إنهم ينهارون مثل أغصان الدردار في الطقس الهادئ. أجل يا سيدتي.كلا، لم يكن هناك أي شيء رهيب إطلاقاً، مجرد- مجرد- مجرد- أوه يا جورج ، تلك العصا المسكينة اللامعة بين ركبتيه المسكينتين النحيلتين! ما كنت لأستطيع تحمل الأمر لو أن سكوتي نبح. لم أكن أعرف أن الكاهن شديد...شديد الحساسية إلى هذا الحد. قال إنه يخشى أن يكون الأمر بمثابة صدمة لي بالأحرى. وطلبت مني السيدة بتس الذهاب إلى البيت، وكنت أريد أن أنهار على أرضيتها. ولكني لم أجلب العار على نفسي. ما كنت لأستطيع أن أتركه...هل كان ذلك ممكناً؟"

"أنت واثقة من عدم تعرضك لأي أذى؟" صرخت السيدة كلوك التي

سمعت الخبر بواسطة الجهاز التلغرافي للمزرعة، وهو أقدم إنما أسرع من جهاز "ماركوني".

"أنا في خير"، قالت صوفي بلهجة احتجاجية.

"عليك أن ترتاحي حتى وقت الشاي"، ربتت السيدة كلوك على كتفها."

وصلا قبل الغسق: رجل بلحية سوداء في ملابس قطنية وامرأة عجوز ضئيلة الحجم مصابة بالشلل الارتعاشي كانت تسقسق كالعصفور الصغير.

"أنا ابنه"، قال الرجل لصوفي بين شجيرات الخزامى. "كنا على خلاف - منذ عشرين سنة - ولم نتبادل الكلام منذ ذلك الحين. ولكني أبقى ابنه على أي حال، ونشكرك لأنك بقيت إلى جانبه."

"أنا سعيدة لأني كنت هناك"، أجابت وكانت تقول ذلك من كل قلبها.

"سمعت أنه كان يتحدث عنك كثيراً...بين الحين والآخر منذ أن وصلت إلى هنا. نشكرك كثيراً." أضاف الرجل.

سألته: "هل أنت الابن الذي كان في أمريكا؟"

"أجل يا سيدتي. في مزرعة عمي في كونكتيكوت. كان يعمل هناك مشرفاً على الطريق."

"أين في كونكتيكوت؟" سأل جورج من فوق كتفها.

"اسم المكان فيرنغ هولو. قضيت هناك ست سنوات مع عمي."

صرخت صوفي: "لكم هو عالم صغير! كل أسرة أمي من فيرنغ هولو.لا شك أن بعضهم لا يزال هناك...آل لاشمار. هل سمعت بهم؟"

"أتذكر أني سمعت هذا الاسم كما يبدو لي"، أجاب الرجل ولكن وجهه كان فارغاً من التعبير شأن ظهر الرفش.

وقبل الغروب بقليل دخلت امرأة ترتدي ملابس رمادية اللون تمشي مشية جندي مشاة وهي تحمل على ذراعها عموداً طويلاً،إلى البستان وطلبت طعاماً. هرب جورج الذي كان للمرأة الإنكليزية القادمة تأثير غامض عليه، نحو البهو. ولكن السيدة كلوك تقدمت بوجه باش. لم تستطع صوفي الهرب.

"لقد سمعنا للتو بالنبأ"، قالت الغريبة وهي تلتفت نحوها. "كنت خارجاً مع كلاب القضاعة طوال النهار. كانت رياضة رائعة حقاً..."

"هل قتلت إحداها؟" سألت صوفي. كانت تعرف من الكتب أنها لم تكن مخطئة جداً في هذا الخصوص.

"أجل قضاعة يابسة...سبعة عشر باونداً"، كان الجواب. "أمر رياضي رائع منك. يا لإغولدن المسكين العجوز..."

"أوه ...ذلك!" قالت صوفي متنورة.

"لو كان هناك أي أشخاص في باردونز لما حدث ذلك. لكان سيجد من يعتني به. ولكن ما الذي تتوقعينه من رزمة من المحامين اللندنيين؟"

همهمت السيدة كلوك بشيء ما.

"كلا. أنا مبللة من الركبة إلى الأسفل. لو بقيت هنا لأصبت بالقشعريرة، فنجان شاي يا سيدة كلوك، وأستطيع تناول إحدى سندويشاتك وأنا ذاهبة". مسحت وجهها الذي أبلاه التعرض للعوامل الجوية بمنديل حريري بلونين أخضر و أصفر.

"حاضر ماي ليدي!" هرعت السيدة كلوك ثم عادت مسرعة.

راحت تشرح وهي تشير بالفنجان المليء: "تبدأ أرضنا من باردونز وتمتد لمسافة ميل نحو الجنوب ولكن لدى المرء ما يكفيه من المشاغل مع أسرته دون أن يغوص في الوحل. ومع ذلك لو عرفت لكنت أرسلت ((دورا)) بالطبع. هل شاهدتها عصر هذا اليوم يا سيدة كلوك؟ أتساءل إن لم تكن تلك الفتاة قد لوت كاحلها. شكراً. كانت قطعة ضخمة من الخبز ولحم الخنزير المقدد تلك التي قدمتها لها السيدة كلوك. "كما كنت أقول فإن باردونز فضيحة! أن نترك الناس يموتون كالكلاب. كان لابد من وجود أناس هناك يقومون بواجبهم. لقد أديت واجبك، رغم أنك لم تكوني مضطرة إلى ذلك إطلاقاً. ليلة سعيدة. قولي لدورا لو وصلت إني تابعت طريقي."

سارت مبتعدة بخطوات واسعة وهي تقضم الخبز، ودخلت صوفي مسرعة إلى البهو لتهز جورج المرتجف.

"لم واظبت على لفت نظري من خلف الستارة؟ لِمَ لَمْ تخرج لتقوم بواجبك؟"

قال: "لأني كنت سأنفجر. هل رأيت الطين على خدها؟"

"في إحدى المرات لم أجرؤ على النظر مجدداً. من هي؟"

"يا إلهي، هي آلهة محلية. إنها واحدة من الأشياء المتوقع منك أن تعرفيها بالغريزة."

حكت لهما السيدة كلوك التي كان مصدومة من خفتهما أن تلك كانت الليدي كونانت، زوجة سير وولتر كونانت، البارونت، وهو مالك أراض كبير في الجوار، وإن لم يكن هو الرب نفسه، فهو على الأقل "غايته الربانية المرئية."

جعلها جورج تحكي عن تلك العائلة ساعة كاملة.

قالت صوفي لاحقاً وهما في غرفتهما: "الضحك هو علامة المتوحشين. لِمَ لَمْ تستطع التحكم بانفعالاتك؟ هذا كله حقيقي بالنسبة إليها."

"إنه كله حقيقي بالنسبة إليّ أنا أيضا. هذه مشكلتي". أجاب بلهجة معدلة. "على أي حال، فهذا حقيقي بما فيه الكفاية بحيث نعلّم الزمن به. ألا تعتقدين ذلك؟"

"ما الذي تعنيه"، سألت بسرعة رغم أنها ميزت لهجة صوته.

"أني في حال أفضل. أنا في حال جيدة إلى حد أني أستطيع أن أرفس."

"أي شيء؟"

"هذا!" لوح بيده من حول الغرفة." يجب أن يكون لديّ شيء ما ألعب به حتى أصبح ملائماً للعمل مجدداً."

"آه!" جلست على السرير واتكأت نحو الأمام، ويداها متشابكتان. "أتساءل إن كان هذا ملائماً لك".

تابع ببطء: "نحن في حال أفضل هنا من أي مكان آخر. يستطيع المرء دائماً أن يبيعها مجدداً."

أومأت برأسها بجدية، ولكن عينيها التمعتا.

"الشيء الوحيد الذي يقلقني هو ما حدث هذا الصباح. أريد أن أعرف كيف تشعرين حيال ذلك. لو كان الأمر يوتر أعصابك نستطيع أن نهدم المزرعة القديمة في مؤخرة المنزل، أو ربما أنها خربت الفكرة عليك؟"

صرخت: "تهدمها؟ ليست لديك ملكة تجارية. عجباً، هناك نستطيع

أن نعيش بينما نرتب أمور المنزل الكبير. وهي تقريباً تحت السقف نفسه. كلا! ما حدث هذا الصباح بدا وكأنه شيء مليء بالوحي أكثر من أي شيء آخر. يجب أن يكون هناك أشخاص في باردونز. الليدي كونانت على حق تماماً".

"أفكر أكثر في الغابات والدروب. أستطيع مضاعفة قيمة المكان في ستة أشهر."

"كم يريدون ثمناً له؟" هزت رأسها، و سقط شعرها الحر ملتمعاً فوق وجنتيها.

"خمسة و سبعون ألف دولار. وسيقبلون بثمانية وستين ألفاً."

"أقل من نصف ما دفعناه ثمناً ليختنا القديم حين تزوجنا. ولم ننفق أوقاتاً جيدة فيه. لقد كنت...."

"حسناً، اكتشفت أني أمريكي إلى حد أني لا أستطيع أن أكون راضياً عن كوني ابناً لرجل غني. أنت لا تلومينني على ذلك."

"أوه كلا. و لكن كان شهر العسل تجارياً جداً. أين وصلت في هذه الصفقة يا جورج؟"

" أستطيع أن أرسل عربون مبلغ الشراء بالبريد غداً صباحاً، ونستطيع إكمال الأمر خلال أسبوعين أو ثلاثة... لو شئت ."

"فريرز باردون... "فريرز باردون!." غنت صوفي منتشية، وعيناها الرماديتان الداكنتان قد اتسعتا من الفرح. "كل المزارع؟ غيل أنستي، بيرنت هاوس، روكتس، ذا هوم فارم وغريفونز؟ هل أنت واثق من أنك حصلت عليها كلها؟"

ابتسم: "دون شك".

"والغابات؟ غابة هاي باردونز، غابة لو باردونز، ساتونز، داتونز شو، روبنز غيل، ماكسيز غبل وكلتا الغابتين في أوك هانغرز ؟ أواثق أنك حصلت عليها كلها؟"

"حتى آخر غصن. عجباً، تعرفينها جيداً بقدر ما أعرفها." ضحك."يقولون إن هناك خمسة آلاف.... ما يعادل قيمته ألف جنيه من الخشب في هانغرز لوحدها."

"يجب إصلاح فرن السيدة كلوك في المرتبة الأولى، وسطح المطبخ. أعتقد أنني سأجعلهم يطلون هذا كله بالكلس الأبيض." توقفت صوفي عن الكلام وهي تشير إلى السقف. "المكان كله فضيحة. الليدي كونانت على حق تماماً. جورج، متى بدأت تغرم بالمنزل؟ في الغرفة الخضراء ....في ذلك اليوم الأول؟ هذا ما حصل معي."

"لست مغرماً به. على المرء أن يقوم بشيء ما ليحدد الزمن حتى يصبح أهلاً للعمل."

"أو حين وقفنا تحت أشجار السنديان وفتح الباب؟ أوه! هل عليّ أن أذهب إلى جنازة إغولدن المسكين؟" تنهدت بسعادة مطلقة.

قال: "ألن يعتبروها تجاوزاً لآداب السلوك، الآن؟"

"ولكنني أحببته."

"ولكنك لم تكوني تملكينه بتاريخ موته."

"لن يبقيني هذا بعيداً. ولكنهم أثاروا الكثير من الجلبة حول بقائي معه" -التقطت أنفاسها-" قد يكون هناك تباهٍ بالأمر من وجهة النظر تلك أيضاً. أوه يا جورج "...مدت يدها إلى يده..." نحن يتيمان صغيران نتحرك في عوالم غير مدركة، وسوف نقوم ببعض الاندفاعات

السيئة. ولكننا سنستمتع بأفضل أوقات حياتنا."

"سنهرع إلى لندن غداً ونرى إن كنا نستطيع استعجال المحامين الإنكليز أولئك. أريد أن أعود إلى العمل."

مضيا. عانيا أموراً كثيرة قبل أن يعودا عبر الحقول في مركبة خفيفة في إحدى ليالي السبت، وهما يحرسان صندوقاً طوله قدمان ونصف وعرضه قدمان من الصكوك والخرائط...المالكان الشرعيان لفرايرز باردون والمزارع الخمس المتفسخة من حولها.

"آمل بكل إخلاص وأثق أنكما ستكونان سعيدين يا مدام"، هكذا قالت السيدة كلوك مندهشة حين بلغها النبأ عند نار المطبخ.

"يا إلهي! ليس هذا زواجاً!" صاحت صوفي، وقد انزعجت قليلاً. فبالنسبة إليهما كانت قد بدأت النكتة، التي تعني للأمريكي العمل، كانت قد بدأت للتو فحسب.

"لو أخذ الأمر بالروح الصحيحة"...التفتت عين السيدة كلوك نحو فرنها.

همست صوفي: "أرسلي وراء شخص يصلح لك هذا غداً."

"لم نستطع أن نغالب الملاحظة منذ أن دخلت إلى هناك، أنك وزوجتك قد أعجبتما بالمكان ... ولكن... ولكن لا أعرف، حيث أننا فكرنا بالضبط ..." . أوقفته نظرة زوجته عن الكلام.

"أننا كنا ذلك النوع من الناس"، قال جورج. "نحن لسنا على ثقة من الأمر بعد."

"ربما"، قال كلوك وهو يفرك ركبتيه، وذلك لمجرد أن يقول شيئاً ما. "ربما ستحولها إلى منتزه؟"

قال جورج: "لماذا؟"

"أن تحولها كلا إلى منتزه جميل مثل ((فيوليت هيل))"... أشار بإبهامه إلى الغرب ... " الذي اشتراه السيد سانغرس. كانت تلك أربع مزارع وحولها السيد سانغرس إلى منتزه جميل، مع قطيع من الأيائل ذات القرون المتساقطة."

قالت صوفي: "عندها لن تبقى فرايرز باردون، أليس كذلك؟"

"لا أعرف طالما لم يسبق لي أن سمعت أن باردونز هو أكثر من قمح وصوف. ولكن بعض السادة يقولون إن المنتزهات تسبب مشاكل أقل من المزارعين المستأجرين." ضحك بعصبية. "ولكن الأرستقراطيين بالطبع يحافظون على ما اعتادوا عليه."

قالت صوفي: "أرى ذلك. كيف حصل السيد سانغرس على نقوده؟"

"لم أسمع بذلك. كان ذلك من تجارة الفلفل والبهار، أو ربما كانت تجارة القفازات. كلا، القفازات كانت تجارة السير ريجينالد ليس في مارلي إند. إنه شخص برازيلي...مسفوع جداً بالشمس..."

"كن على ثقة من أمر واحد. لن تعاني من أي مشاكل"، قالت السيدة كلوك، قبل أن يأويا إلى الفراش.

والآن وصلت أنباء الشراء إلى السيد والسيدة كلوك وهما لوحدهما في الساعة (٨) بعد الظهر من يوم سبت. لم يغادر أحد المزرعة حتى انطلقا نحو الكنيسة في صباح اليوم التالي. ومع ذلك، حين وصلا إلى الكنيسة وكانا على وشك الانزلاق جانباً نحو مقعديهما المعتادين، خلف جرن المعمودية بقليل، من حيث يستطيعان مشاهدة الذيول ذات الفراء الأحمر لحبال الجرس وهي تهتز وتنثني في وقت الرنين، فقد دفعا إلى

الأمام على نحو لا تمكن مقاومته، وشخص من آل كلوك عن كل جانب (مع أنهما لم يكونا يسيران مع آل كلوك)، نحو الصدر المتراجع دائماً للقندلفت المرتدي لرداء أسود والذي أدخلهما إلى غرفة مقصورة عند رأس الجناح اليساري تحت المنبر.

تنهد بلهجة تأنيب: "هذه هي مقصورة باردونز"، ثم أغلق عليهما الباب.

كانا قادرين على مشاهدة المزيد من صبية الكورس في المذبح، ولكن حتى جذور شعر عنقيهما أحسا أن جماعة المصلين في الخلف كانت تلتهمهما بالعيون على نحو لا شفقة فيه.

"حين يلتفت الرجل الشريربعيداً". كان الصوت القوي الغريب للقسيس يتذبذب تحت السقف ذي العارضة القصيرة، وإحساس جديد بالوحدة لم يعرفاه سابقاً راح يغرق قلبيهما، وهما يبحثان عن أماكن في خدمة كنيسة إنكلترا غير المألوفة. صلاة الرب - "أبانا الذي..."- كانت خاتمة لذلك الأسى. وجدت صوفي نفسها تفكر كيف أنه في بلاد أخرى كان من شأن شرائهما للأرض أن يكون قد نوقش قبل ذلك بفترة طويلة من كل ناحية في اثنتي عشرة مطبوعة، مع نسيان أن جورج لم يكن مسموحاً له منذ شهور أن ينظر إلى تلك العناوين السوداء المتموجة. هنا لم يكن من شيء عدا الصمت ... ولا حتى العدائية! كانت اللعبة في أيديهم الآن. واللاعبون الآخرون كانوا يخفون أوراقهم وينتظرون. أحست بالقلق في الجو وحين توضح كل شيء أمام عينيها، رأت بالفعل لوحة جدارية لطائر بلا قدمين يفكر في الشعار المنحوت: "انتظر برهة...انتظر برهة."

في صلاة الابتهال عانى جورج من مشكلة مع وسادة القدمين غير الثابتة، فسحب البساط تحت مقعد المقصورة. دفعت صوفي الجانب الذي عندها إلى الخلف أيضاً، وأغلقت عينيها بسبب حرقة أحست بها كأنها دموع. وحين فتحتهما كانت تنظر إلى اسم أمها قبل الزواج وقد نحت على نحو جميل على حجر صفيحي على أرض المقصورة.

"إلن لاشمار ماتت عام ١٧٩٦ في سن السابعة والعشرين"

ركزت جورج بمرفقها وأشارت. وبينما كانا راكعين ومخفيين عن الأنظار، نظر بحثاً عن المزيد من المعرفة، ولكن بقية الحجر الصفيحي كان فارغاً.

همس: "هل سبق لك وسمعت بها؟"

"لم أعرف من قبل أن أصلنا من هنا."

"مجرد صدفة؟"

"ربما. ولكن هذا يجعلني أشعر شعوراً أفضل. "ثم ابتسمت ورمشت مبعدة دمعة عن رموشها، ثم أخذت يده وهما يصليان لأجل "كل النساء في المخاض" ... وليس "يخضن أخطار المخاض"؛ والسنونو التي وجدت طريقها عبر الحرس خلف النوافذ ذات الزجاج الملون راحت تسقسق فوق شجرة العائلة من المرمر المذهب لآل كونانت.

كانت مقصورة البارونت إلى يمين الممشى. بعد الصلاة تحرك شاغلوها دون سرعة، ولكن بحيث يغطون بفعالية على شخص غامض مع عائلة كبيرة كان يمضغ وهو يمشي وراءهم.

"البهارات على ما أعتقد"، قالت صوفي، وهي في حالة سرور عميقة وآل سانغرس على أعتاب آل كونانت. "فليبتعدوا ياجورج."

ولكن حين خرجا كان أناس كثر لا زالوا يتسكعون عند مدخل الكنيسة المسقوف.

"أريد أن أرى إن كان هناك المزيد من آل لاشمار مدفونين هنا"، قالت صوفي.

أجاب: "ليس الآن. يبدو هذا يوماً بطيئاً. لنعد إلى البيت بسرعة."

كانت مجموعة من الأسر، وآل كلوك على مبعدة قليلاً، قد أفسحت المجال لتدعهما يمران. حيّا الرجال بإيماءة متشجنة بالرأس والنساء ببقايا انحناءة. أما ابن إغولدن وحده، وأمه تمسك بذراعه، فقد رفع قبعته حين مرت به صوفي.

"جماعتك؟" قالت الصوت الصافي لليدي كونانت في أذنها.

"أعتقد ذلك"، قالت صوفي ووجهها يحمر خجلاً، فقد كانوا على مسافة ياردتين منها. ولكن ذلك لم يكن سؤالاً.

"إذن تلك الطفلة تبدو وكأنها مصابة بالنكاف. عليك أن تقولي للأم إنه ليس عليها أن تحضرها إلى الكنيسة."

قالت المرأة: "لا أستطيع تركها لوحدها ماي ليدي. ستحرق المنزل خلال دقيقة. لديها ذلك الولع بالكبريت. أليس كذلك يا مودي العزيزة؟"

"هل رآها الدكتور دالاس؟"

"ليس بعد ماي ليدي."

"يجب أن يراها. لا تستطيعين الهرب بالطبع، هم! خادمتي الحمقاء ستذهب غداً لأجل أسنانها في الثانية عشرة. ستمر لاصطحابها... في غيل أنستي، أليس كذلك؟...الساعة الحادية عشرة."

"أجل.شكراً جزيلاً ماي ليدي."

"لم يكن عليّ فعل ذلك" قالت الليدي كونانت معتذرة. "ولكن لم يكن هناك أحد في باردونز مدة طويلة حتى أنك تغفرين لي تطفلي. والآن ألا تستطيعان تناول الغذاء معنا ؟ يأتي الكاهن في العادة أيضاً. لا أستخدم الجياد في أيام الأحد"... نظرت إلى العربة المغطاة بصفائح الفضة التي يملكها البرازيلي. "ألا تتجاوز المسافة ميلاً واحداً عبر الحقول."

"لطف كبير منك"، قالت صوفي وهي تكره نفسها لأن شفتها ارتجفت.

"عزيزتي"... هبطت اللهجة القوية إلى غرغرة ملطفة. "أتظنين أني لا أعرف شعور المرء حين يأتي إلى مقاطعة غريبة ... أو عليّ أن أقول بعيداً عن شعبه؟ حين غادرت شايرز لأول مرة...من شروبشاير، كما تعرفين...بكيت ليلاً ونهاراً. ولكن الشكوى لا تجعل الوحدة أفضل. أوه، هاهي دورا. لقد لوت ساقها ذلك اليوم."

قالت الشابة الطويلة بصراحة: "لا زلت عرجاء كالشجرة"، عليك أن تخرجي مع كلاب صيد القضاعة يا سيدة تشابين.اعتقد أنهم سيسحبون ماءك في الأسبوع التالي."

كان السير وولتر قد سبق له واصطحب جورج إلى الأمام، وسار الكاهن.إلى الجانب الآخر من صوفي. لم يكن هناك مهرب من الموكب السريع أو الغداء المتمهل، حيث كان الحديث يأتي ويذهب بموجات هامسة وكانت القرية مركزها. سمعت صوفي الكاهن وسير وولتر وهما يخاطبان زوجها باستخفاف باسم "تشابين" مجرداً! (تذكرت أيضاً كثيراً من النساء اللواتي عرفن في حياة سابقة وكن يخاطبن أزواجهن في العادة

بالسيد فلان). بعد الغداء تحدثت الليدي كونانت إليها بصراحة عن حالات الولادة التي يمكن حدوثها في الأكواخ ومنازل المزارع البعيدة عن المساعدة وعن واجب سيدة باردونز عن ذلك.

كانت هناك بوابة في سياج من الزان يوصل إليه عبر مروج ثلاثية، وقد عبروها خلال موعد شرب الشاي نحو الجانب الجنوبي المهمل من أرضهما.

"أريد يدك من فضلك"، قالت صوفي ما أن أصبحا آمنين بين جذوع الزان والبهشية المتمردة. "أتذكر الخادم العجوز في ((العناية الإلهية والغيتار)) التي سمعت المفوض يشتم ولم تعتبر نفسها عذراء لاحقاً؟ لأني قريبتها. الليدي كونانت..."

قاطعها: "هل وجدت شيئاً يتعلق بآل لاشمار؟"

"لم أسأل. سأكتب إلى الخالة سيدني حول ذلك أولاً. أوه، لقد قالت الليدي كونانت شيئاً خلال الغداء حول شرائهم بعض الأراضي من آل لاشمار قبل سنوات قليلة. وقد وجدت أن هذا حدث في بداية القرن.

"وما الذي قلته؟"

"قلت: ((حقاً، كم هذا مثير للاهتمام!)) شيء كهذا... لن أدفع نفسي دفعاً. لقد سمعت عن جهود السيد سانغرس في ذلك الاتجاه. وأنت؟ لم أستطع رؤيتك من خلف الورود. هل كان الماء عميقاً جداً يا عزيزي؟"

مسح جورج جبيناً سبق له أن سفع من التعرض للشمس فترات طويلة لكثرة البقاء خارجاً.

"أوه - كلا... سهل جداً. لقد اشتريت فرايرز باردون لأمنع طيور

السير وولتر من أن تضل طريقها."

عدا ديك تدرج فوق الأوراق اليابسة وانفجر صائحاً تحت أقدامهما تقريباً. أجفلت صوفي.

قال جورج بهدوء: "هذا واحد منها."

قالت: "حسناً، أعصابك أفضل على أي حال. هل قلت لهم إنك اشتريت هذا الشيء لتلعب به؟"

"كلا، هنا انهارت أعصابي. لقد ارتكبت انهياراً سيئاً واحداً... على ما أعتقد. لقد قلت إني لم أكن قادراً على فهم السبب في أن تأجير الأرض للناس ليزرعوها لم يكن أمراً تجارياً كما هو أي شيء آخر."

"وما الذي قالوه؟"

"ابتسموا. سأعرف ما تعنيه تلك الابتسامة في أحد الأيام. إنهم لا يضيعون ابتساماتهم. هل ترين ذلك الدرب قرب غيل أنستي؟"

أطلاً من حافة غابة على أرض متحدرة على حفرة بشكل فنجان. كان الناس مثنى وثلاث في ملابس يوم الأحد يمرون على امتداد الممرات التي تصل مزرعة بأخرى.

قالت صوفي: "لم يسبق لي أن رأيت أناساً بهذه الكثرة فوق أرضنا. ما السبب؟"

"ليظهروا لنا أنه ليس علينا أن نمنع عنهم حقهم في المرور."

"هل تعني أن دروب البقر تلك التي كنا نستخدمها هي معابر؟" قالت صوفي بقوة.

"نعم. أي واحد منها سيكلفنا ألفي جنيه كنفقات قضائية حتى نغلقه."

قالت: "ولكننا لا نريد ذلك."

"سيحاربنا الجميع لو قررنا خوض المعركة."

"ولكنها أرضنا. نستطيع أن نفعل بها ما نشاء."

"إنها ليست أرضنا. لقد دفعنا ثمنها فحسب. نحن ننتمي إليها وهي تنتمي إلى الشعب... شعبنا ،كما يسمونهم. لقد ذهبت لتناول الغداء مع الإنكليز أيضاً."

مرا ببطء من الحقل المنقط بنباتات السرخس إلى التالي... وقد تضرج وجهاهما فخراً بالملكية، وراحا يخططان للتعديلات والترميمات عند كل منعطف. كانا يتوقفان في الدروب ليتجادلا أو يتباعدان ليريا منظرين في آن واحد أو يقتربان ليتفحصا منظراً واحداً. كان الأزواج يبتعدون عن طريقهما، ولكن بابتسامة خفية.

قال أخيراً: "سنقوم ببعض الأخطاء السيئة."

"معاً على أي حال. لن تدع شخصاً آخر يتدخل، أليس كذلك؟"

"باستثناء المقاولين. هذه النقابة تعالج هذه المسألة بواسطة الطريق الصغيرة."

ألحت: "ولكنك قد تشعر بأنك تريد شخصاً ما."

"سيحدث ذلك... ولكن أنت من سيشعر به. هذه أعمال تجارية يا صوفي، ولكن سيكون هناك الكثير من المتعة والمرح."

أجابت وهي تحمر خجلاً: "أرجوك يا ربي." ثم صرحت لنفسها وهما يعودان لتناول الشاي: "الأمر يستحق. أوه إنه يستحق."

كان الترميم والانتقال إلى فرايرز باردون من الأعمال التجارية شديدة التنوع والبحث، ولكن تم الأمر كله بالأسلوب الإنكليزي دون

خلاف. كان الوقت والنقود وحدهما هما موضع التساؤل. وكانت البقية تكمن في يدي المستشارين المفيدين من لندن أو الأرواح ذكوراً وإناثاً، والتي كان السيد والسيدة كلوك يستدعيانها من براري المزارع. وفي الوسط كان يقف جورج وصوفي، مذهولين قليلاً، واهتماماتهما تمتد خارجاً على كل جانب.

"لا أقول أي شيء ضد أهل لندن"، قالت كلوك، وهو الكاتب المعيّن ذاتياً للأعمال الخارجية، والمهندس الاستشاري ، ورئيس مكتب الهجرة، والمشرف على الغابات والأحراج. "ولكن شعبك لن يجني سوى الأرباح الكبيرة منك."

قال جورج: " كيف سيعرف المرء؟"

"بعد خمس سنوات من الآن أو نحوه، ستدرس حسابات أول سنة لك، وعندها تعرف آنذاك ما ستعرفه. ستقول: ((حسناً يا بيلي بيرتب))... أو كلوك العجوز كما قد تجري الأمور. ((لقد عاملني على النحو الصحيح حين كنت جديداً)). لا يحب أحد أن يوضع ذلك النوع من الأمور ضده."

"أعتقد أني أفهم"، قال جورج . "ولكن خمس سنوات فترة طويلة على الانتظار."

"أشك إن كان خشب السنديان ذلك الذي رماه بيلي في روبين غيل سيكون ملائماً لأرضية غرفة جلوسها في أقل من سبع"، قال كلوك متشدقاً.

"أجل، هذا هو عملي"، قالت صوفي. (بيلي بيرتب أوف غريفوز، حطاب بالتدريب والمولد، وهو مزارع مستأجر بسبب سوء حظ ناجم عن

زواج، وقد وضع فأسه العريض عند قدميها قبل شهر). "آسفة لو كنت قد جعلتك تذهب إلى أبدية أخرى."

"ولن نعرف حتى أين أخطأنا مع الدافع الجديد للعربة خاصتك قبل ذلك الأوان أيضاً"، قال كلوك، وهو الحريص دائماً على أن يبقى التوازن صحيحا - مع أونصة أو أونصتين لصالح صوفي. كانت الشهور الماضية قد علمت جورج الإجابة على نحو أفضل. كان طريق العربات يلتف صاعداً التل هو مركز اهتمامه الحاد. لقد انطلقوا ليتفرجوا عليه وعلى الكاشطة الأمريكية المستوردة التي أتلفت الروح المتشمسة جداً لـ" سكيم" وينش، سائق العربة. ولكن إغولدن الشاب كان مكلفاً بإدارة الأمور الآن، وتحت قيادته كان بولر وروبرتس، الحصانان الكبيران، يحركان الجبال.

"ترفعونها هكذا و تقلبونها هكذا"، شرح للمجموعة. "كان عمي مسؤولاً عن الطريق في كونكتيكوت".

"هل توجد طرق هناك ؟" قال سكيم وهو جالس تحت أشجار الغار.

"ليس أفضل من طرق التجهيزات. يسمونها قذرة. ولكنها ستلائمك يا سكيم."

"لماذا ؟" قال سكيم غير الحذر.

" لأنك لن تتأذى حين تسقط عن عربتك ثملاً في يوم سبت"، كان الجواب .

"ولم أتأذ أنا في المرة الماضية"، زمجر سكيم .

بعد ضحكة عالية، تكلم وايبارن العجوز من غيل أنستي بصوت ضعيف: "حسناً، قذارة أو دون قذارة، لاشك أن تشابين يعرف ما هو

العمل الجيد حين يراه. إنه ذلك الزنجي سانغرس."

"هي التي تعرف ما يدور في ذهنها"، قال بينكي، شقيق سكيم وينش، وهو بمثابة نابليون بين سائقي العربات و قد ساعد على إحضار البيانو الكبير عبر الحقول تحت أمطار الخريف.

قال إغولدن:" كانت مضطرة إلى ذلك. هوا! بولر! إنها من آل لاشمار. كانوا يفكرون بفكرتين متناقضتين في آن واحد."

"أوه، هل اكتشفت ذلك؟ هل يأتي الجواب من عمك؟" قال سكيم، وهو يشك إن كان لتلك الأرض شديدة البعد شأن أمريكا نظام بريدي.

نظر إليه الآخرون باحتقار. كان سكيم بطيء الفهم دائماً.

ارتاح إغولدن من أعماله. "إنها من آل لاشمار بما فيه الكفاية. لقد شرعت بالكتابة إلى عمي فوراً... في الشهر التالي بعد قولها إن أسرتها تأتي من فيرنغ هولو."

"حيث لا طرقات"، قاطع سكيم؛ ولكن لم يضحك أحد.

"لقد تزوج عمي امرأة أمريكية بعد زوجته الأولى، وقد فهمت الأمر شأن... شأن محقق في سبب الوفيات. وهي من آل لاشمار من موطن لاشمار القديم، فقد كانوا قد باعوا أرضهم إلى آل كونانت. وهي ليست من آل لاشمار من توت هيل، ولا أي واحد من آل كرايفورد. تأتي عائلتها من الأرض هنا، لا ((تشوك)) ولا ((فورست)) إنما ((وايلديشرز)). لقد أبحروا إلى أمريكا... لديّ هذا كله مدوّن من قبل زوجة عمي... في عام ألف وثمانمائة ولاشيء. يقول عمي إنهم جميعاً بطيئون في إنجاب الأولاد."

سأل سكيم : "هل سيكونون هناك من الأرستقراطية؟"

"كلا...لا أرستقراطية في أمريكا، بغض النظر عن طول فترة وجودك هناك. هذا ضد قوانينهم. هناك فقط أغنياء وفقراء. لقد عملوا في المحاماة وأمور أخرى مشابهة مائة سنة... ولكنها لاشمار على أي حال."

"يا إلهي! ما هي مائة سنة؟" قال وايبارن الذي عاش ثماني وسبعين عاماً منها.

"وهم يكتبون أيضاً، من هناك... زوجتي عمتي تكتب... أنك لا تزال قادراً على معرفتهم من العلامة التي في رؤوسهم. لا يزال شعرهم أحمر بلون الثعالب... وهم يمشون بطريقة خاصة. إنه ذو أصابع قدم متجهة نحو الداخل... يمشي مثل غجري، ولكن راقبها وسترى أنها تمشي مثل مهرة."

"اكتشافك يحتاج إلى إثبات". كانت أذنا بينكي قد التقطتا أصوات بشر، ومع تغلغل الاثنين بين أشجار الغار كان الرجال منهمكين وقد ركزوا أعينهم على قدمي صوفي.

كانت أقل حظاً في استفساراتها من إغولدن، فقد كانت عمتها سيدني من مريدين (ابنة الثورة الحاملة للشارة والشهادة علاوة على ذلك) قد ردّت على استفساراتها لمقالة من صفحتين حول الوطنية، ونشرات "جمعية تطوير القرية" التي كانت رئيسة لها وطلب انتساب متأخر إلى "دائرة مطالعة فتيات المعمل". أحرقت صوفي هذا كله في الموقد المقضّب الذي نحت عليه أورفيوس ويوريدايس وأبقت خططها طي الكتمان.

"ما أريد أن أعرفه"، قال جورج حين كان الربيع وشيكاً والحدائق في

حاجة إلى تفكير. "من سيدفع لي لقاء جهودي؟ لقد سبق لي ودفعت ما يعادل نصف مليون دولار."

سألته زوجته: "لا شك أنك لا تنهك نفسك إلى هذا الحد؟"

"أوه كلا. لم أكن واعياً لنفسي طوال الشتاء." نظر إلى حذائه الإنكليزي البني وابتسم. "أصبح كل شيء ورائي الآن. أعتقد أني أستطيع الآن الجلوس والتفكير في كل ذلك... تلك الأشهر قبل أن نبحر."

صرخت: "لا تفعل...أوه لا تفعل!"

"ولكن عليّ في يوم من الأيام أن أعمل. لا تريدين أن تبقيني خارج أعمالي على الدوام... أو هل تريدين ذلك؟" أنهى كلامه بضحكة عصبية.

تنهدت صوفي وهي تسحب شجيرة صغيرة (التي كان إغولدن قد قطعها) من رف في القاعة.

"ألا تبالغين في الأمر قليلاً؟ تبدين منهكة بعض الشيء"، قال جورج.

"أنت تنهكني. سأذهب إلى روكتس لأرى السيدة كلوك وأسألها عن ماري. (كانت هذه أخت عاملة التلغراف، والتي ترفعت إلى مرتبة عاملة خياطة في باردونز) هل سترافقني؟"

"عليّ أن أكون في بيرنت هاوس لأرى وضع البئر الجديدة. وبالمناسبة، هناك حالة التهاب حنجرة في غيل أنستي..."

"هذا نطاق عملي أنا، لا تتدخل. أطفال وايبارن يعانون دائماً من حناجر ملتهبة. يدعون ذلك للحصول على الأقراص المحلاة بطعم

الفاكهة."

"ابقي بعيداً عن غيل أنستي حتى أتاكد يا عزيزتي. كان من شأن كلوك أن يخبرني."

"هؤلاء الناس لا يخبرون. ألم تعرف ذلك بعد؟ ولكني سأطيع ماي لورد. أراك لاحقاً!"

انطلقت سيراً على الأقدام، فضمن الدروب الرئيسية الثلاثة التي كانت تحيط بالمثلث الكليل للإقطاعة (حتى في الليل كان المرء قادراً بصعوبة على سماع العربات تسير عليها) لم تكن العجلات تستخدم إلا في أعمال الزراعة. أما الدروب المطروقة بالأقدام فكانت تخدم لكل الأغراض الأخرى. ورغم أنهما كانا قد خططا في البداية لإجراء تحسينات، إلا أنهما سرعان ما اتخذا عادات مملكتهما المخفية، وراحا يتجولان في الدروب التي شقتها الأقدام في الغابات والأسيجة المؤلفة من شجيرات وأشجار وأجمات، كالأرانب. وبالفعل كانت صوفي في أغلب الأحيان تمشي حافية القدمين تحت خوذتها التي هي عبارة عن شعرها الكستنائي، ولكنها ابتليت مؤخراً بآلام أسنان غامضة وقد شرحت للسيدة كلوك التي طرحت بعض الأسئلة. كيف حدث ما حدث لم تعرف صوفي، ولكن بعد برهة من الزمن رأت ذراع السيدة كلوك يحيط بخصرها، ورأسها فوق ذلك الصدر العميق خلف باب المطبخ المغلق.

"يا عزيزتي!يا عزيزتي!" كادت المرأة الأكبر سناً تبكي. "وهل تقصدين أن تقولي لي إنك لم تشعري بأي شك قط؟ عجباً... عجباً... ألم يسبق لأحد أن علمك أي شيء إطلاقاً؟ طبعاً الأمر كذلك. إنه الأمر الذي كنا ننتظره فحسب، جميعنا. المرة تلو المرة قلت لليدي..."

تماسكت. "والآن سنكون كما يجب أن نكون."

"ولكن... ولكن... ولكن..." تذمرت صوفي.

"وأن أراك تبنين عـــشك وأنت شـديدة الانهـمـاك... بيـانوهات وكتب... ولكن دون أن تفكري قط بغرفة نوم الأطفال!"

"لم أفعل." جلست صوفي باستقامة وبدأت تضحك.

"لازال هناك ما يكفي من الوقت". راحت الأصابع تنقر بتأمل على الركبة العريضة. "ولكن... لا شك أن هؤلاء الناس الذين معك هناك غريبو الأطوار! يا عزيزتي، يا عزيزتي! لا تهتمي! ستكون سعيدة حين تعرف. هذا عمل من أعمال الرب. وكنا نحن ننتظره فحسب، فأنت لم تفشلي قط في واجبك بعد. ليس هذا دأبك. ما الذي قلته حول أفعال ماري؟" تقسى وجه السيدة كلوك وهي تضغط بذقنها على جبين صوفي. "لو فكرت أي واحدة من فتياتك في التصرف باعتباطية الآن، فسوف... ولكنهن لن يفعلن ذلك يا عزيزتي. سأحرص على جعلهن يقمن بواجبهن أيضاً. كوني على ثقة من أنك لن تعاني من أي مشاكل."

حين عادت صوفي سيراً عبر الحقول، تغيرت السماء والأرض من حولها كما في يوم وفاة إغولدن. وفكرت لحظة بالانحناء الواسع للدرج والدهان العاجي الأبيض الذي لم يكن ممكناً لزاوية أي تابوت أن تترك أثراً فيه، ولكن في الوقت الحاضر مرّ الظل في عجب وحيرة صافيين ممّا جعلها تصاب بدوار. اتكأت على واحد من أبوابهم الجديدة ونظرت عبر أراضيهما باحثة عن دعم.

"حسناً"، قالت بتصميم، بصوت نصف مرتفع. "علينا أن نحاول أن نجعله يشعر أنه ليس ثالثاً في فريقنا"، والتفّت من حول الزاوية التي

تشرف على فرايرز باردون وهي تشعر بالدوخة والغثيان والوهن.

وفجأة انتصب المنزل الذي اشترياه في نزوة كما لم تره من قبل، كان ذا واجهة واطئة وأجنحة عريضة، واسعاً، وقد تم تحضيره عبر أجيال من أجل كل هذه الأمور. وكما جعلها تحس بالشبات وهو مهجور، فإنه الآن وقد صار له معنى من شهور قليلة من السكن فيه، قد أصبح يريحها ويعدها بالأمور الطيبة. مضت لوحدها ودخلت القاعة بسرعة وقبلت كلا عمودي الباب هامسة: "كن طيباً معي. أنت تعرف! لم تفشل في تأدية واجبك بعد."

* * *

حين شرحت القضية لجورج، كان سيبحر فوراً إلى بلادهما، ولن صوفي رفضت ذلك.

قالت: "لا أريد علماً. بل أريد فحسب أن أُحَبّ، ولم يعد هناك وقت لذلك في الوطن. وعلاوة على ذلك، سيكون ذلك تخلياً"، أضافت وهي تنظر من النافذة.

كان جورج مجبراً على التسرية عن نفسه بربط فرايرز باردون بالنظام التلغرافي لبريطانيا العظمى بالهاتف... ثلاثة أرباع الميل من الأعمدة ، نصبها وايبارن وقلة من أصدقائه. كان أحد هؤلاء غريباً من الأبرشية المجاورة. وقد قال هذا حين سرت الحياة في الخط: "هناك شجرة دردار في طريقنا تماماً. هل نرميها؟"

"سكان أبرشية توت هول، لا رحمة ولا حظ جيد، فليساعدني الرب. "صرخ وايبارن العجوز بالقول المأثور المحلي من مسافة ثلاثة

أعمدة. "لن نستعمل حديد الفؤوس على خشب التوابيت هنا... ليس حتى نعرف أين نحن في هذه الأثناء. لندر من حولها! لندر من حولها! "

حتى هذا اليوم فإن ذلك الخلل المفاجئ في الخط المستقيم عبر المرعى العلوي يبقى أمراً غامضاً لصوفي وجورج. ولا يستطيعان أن يعرفا لماذا كان سكيم وينش، الذي يصل إلى كوخه تحت داتون شو وهو ثمل موسيقياً إلى حد كبير في الساعة ١٠,٤٥ مساء من ليلة كل سبت، كما فعل أبوه من قبله، ويتوقف عن الغناء عند أسفل درجات الحديقة، حيث كانت صوفي تخشى دائماً من انه سيدّق عنقه. كان الممرّ يتمتع بحق المرور منذ الزمن القديم دون شك، وفي الساعة ١٠,٤٥ مساء من أيام السبت كان سكيم يتذكر أن من واجبه أمام الأجيال القادمة كلها أن يبقيه مفتوحاً - حتى حدثته السيدة كلوك - ذات مرة. وقد تكلمت على نحو مشابه مع ابنتها ماري، وهي عاملة الخياطة في باردونز، وأفضل صديقات ماري الجديدات، خادمة المنزل اللندنية المستوردة التي يبلغ طولها خمسة أقدام وسبعة إنشات [حوالي ١٧٠ سم]التي راحت تعلم ماري كيف تزركش القبعات ووجدت الريف مملاً.

ولكن لم يكن هناك ضجيج - لم يكن هناك أي ضجيج في أي وقت - ثم حين سارت صوفي خارج البيت لم تكن تقابل أحداً في طريقها إلا إذا عبرت عن رغبتها في ذلك. ثم كانوا يظهرون ليحتجوا على أن كل شيء كان جيداً بالنسبة إليهم وإلى أطفالهم، ودجاجاتهم، وأسقفهم، وشبكة المياه وأبنائهم في الشرطة أو في السكة الحديد.

"ولكن ألا تجدينه مملاً يا عزيزتي؟" قال جورج وهو يبذل جهده لئلا يقلق والأشهر تمضي.

"كنت شديدة الانهماك في ترتيب منزلي فلم يكن لدي الوقت لأفكر"، قالت: "ماذا عنك؟"

"كلا، كلا. لو كنت فقط على ثقة منك."

التفتت نحو الأريكة الخضراء الخاصة بغرفة الجلوس (كانت من ماركة إمباير وليس هبلوايت على أي حال)، وقد وضعت جانباً لائحة بالبياضات والبطانيات.

همست: "لقد غيرت كل شيء، أليس كذلك؟"

"أجل يا ربي . ولكني لا أزال أظن أننا لو عدنا إلى بالتيمور..."

"ونفقد أول صيف حقيقي لنا معاً، كلا، شكراً لك يا ربي."

"ولكننا وحيدان تماماً."

"أليس هذا ما أبذل قصارى جهدي لأجد له علاجاً؟ لا تقلق. أنا أحب ذلك...أحبه حتى نقّي عظامي الصغيرة. أنت لا تدرك ما يعنيه للمرأة بيتها. ظننّا في العام الماضي أننا كنا نعيش فيه، ولكننا لم نبدأ بذلك بعد. ألا تحتفل بحجرة المطالعة خاصتك يا جورج؟"

"أفضل أن أكون هنا معك." جلس على الأرض قرب الأريكة وتناول يدها.

"السابعة"، قالت حين دقت الساعة الفرنسية. "في العام قبل الماضي وفي مثل هذا الوقت كنت تعود من عملك."

أجفل من الذكرى ثم ضحك. "العمل! عملت عشر ساعات بحالها اليوم."

"أين تناولت طعام الغذاء؟ مع آل كونانت؟"

"كلا. في داتون شو، جالساً على جذع شجرة، وقدماي في

مستنقع. ولكننا وجدنا مكان النبع القديم وسوف نمدّ الأنابيب منه إلى غيل أنستي في العام القادم."

"سأذهب لأرى في الغد. أوه، أرجوك افتح الباب يا عزيزي. أريد أن أرى الممر. أليست تلك الزاوية قرب رأس الدرج جميلة حين تضربها الشمس؟" نظرت من خلال عينين نصف مغمضتين إلى مشهد البياض العاجي والأخضر الفاتح وهو يسيح في ذهبي سائل.

"هناك درجة خارج غرفة نوم جين إلفيك، تابعت تقول..." وأول خطوة له في العالم يجب أن تكون نحو الأعلى. لن أتعجب لو لم يضعها أولئك الناس هناك عمداً. جورج، هل سيكون للأمر فرق لديك لو كان الطفل بنتاً؟"

أجاب كما سبق له مرات عديدة من قبل أن اهتمامه كان منصباً على زوجته وليس على الطفل.

"إذن فأنت الشخص الوحيد الذي يفكر على هذا النحو."ضحكت. "لا تكن أحمق يا عزيزي.هذا متوقع. أعرف ذلك. هذا واجبي. لن أتمكن من النظر في وجوه الناس لو فشلت."

"وما شأنهم هم؟"

"سترى. من حسن الحظ أن من تقاليد المنزل هو إنجاب الصبيان، كما تقول السيدة كلوك، إذن فأنا قد وجدت العناية المطلوبة. هل ستبدأ بفهم هؤلاء الناس؟ لن أبدأ أنا."

"وقد اشتريناه للمتعة...للمتعة؟" أنّ. "وهانحن قد علقنا لفترة لا يعرف سوى الرب كم ستطول!"

"لماذا ؟ هل كنت تفكر ببيعه؟" لم يجب. "هل تتذكر السيدة تشابين

الثانية" سألت.

كانت تلك امرأة جريئة ووقحة صغيرة الحجم ذات جبين أسود... أرملة بالاصطفاء - والتي كانت لدى وفاة صوفي ستتزوج جورج بالنفاق من أجل ثروته ولتدمره خلال عام. وبما أن جورج كان مشغولاً، فقد اخترعتها صوفي قبل عامين بعد زواجها، وظنت أنها الوحيدة في ذلك بين الزوجات.

سأل بقلق: "لن تعودي إلى ذكرها مجدداً؟"

"أريد فقط أن أقول إن عليّ أن أكره شخصاً ما اشترى باردونز أكثر بعشر مرات مما اعتدت أن أكره السيدة تشابين الثانية. فكر فيما وضعناه فيه من نفسينا نحن الاثنين."

"على الأقل مليوني دولار. أعرف أني كنت أستطيع أن..." قطع كلامه.

"الوحوش!" تابعت. "لا شك أنهم سيبنون سكناً من الآجر الأحمر عند البوابات ويتقاسمون المرج حتى ينشئوا مساكب. عليك أن تترك تعليمات في وصيتك بأنه لن يفعل ذلك أبداً يا جورج، ألن تفعل؟"

ضحك وتناول يدها مجدداً ولكنه لم يقل شيئاً حتى حان وقت ارتداء الملابس. عندها همهم: "ما فائدة بلد المرء له بحق الشيطان إن لم يكن قادراً على ممارسة الأعمال التجارية فيها؟"

* * *

بقي فرايرز باردون مخلصاً لتقاليده. ولد في الوقت المحدد ليس ثالث الفريقين والذي كانت صوفي تنوي أن تكون لطيفة جداً معه، بل

إله صغير. من حيث الجمال فقد كان واضحاً أنه يبزّ "إيروس"(٦)، أما في الحكمة فكان كونفوشيوس، معزّز المسرات، مجدّد الرفقة ومفسّر القدر. هذه الأخيرة لم يدركها جورج حتى قابل الليدي كونانت وهي تمشي بخطواتها الواسعة عبر داتون شو بعد أيام قليلة من الحدث.

"يا عزيزي"، صرخت، ثم ضربته بود على ظهره. "لا أستطيع أن أقول لك كم نحن سعداء جميعنا... ستكون على ما يرام. (لم يسبق أن حدث أي مكروه خلال ولادة وريث لباردونز). والآن أين ذاك بحق الشيطان؟" فتشت في تنورتها المثبتة الجلد ثم أخرجت ثوباً فضياً صغيراً. "لقد أرسلت رسالة مختصرة إلى زوجتك حول هذا، ولكن سائسي الأحمق الجحش نسي أن يأخذ هذا معه. يمكنك أن توفر عليّ مشواراً على الأقدام. بلّغها حبّي." ثم ابتعدت وهي تمشي بين حراسها من كلاب الصيد الضخمة الجدية.

كان الكوب مهترئاً ومليئاً بالأثلام فوق الحرفين المتشابكين .G.L. قد رسم عليه عرف طائر بلا قدمين والشعار: "انتظر قليلاً...انتظر قليلاً."

همست صوفي حين شاهدها في ذلك المساء: "هذا هو الجانب الآخر للأحجية. اقرأ رسالتها المختصرة..يكتب الإنكليز رسائل مختصرة جميلة."

((أحرّ الترحيب برجلك الصغير.آمل أن يقدّر مسقط رأسه بعد أن وصل إليه الآن. ورغم أنك لم تقولي شيئاً فإننا لا نستطيع بالطبع أن نعتبره غريباً صغيراً، لذلك أرسل له كوب التعميد القديم الخاص بآل لاشمار. وهذا معنا منذ أيام غريغوري لاشمار، شقيق جدة أمك...))

حدق جورج إلى زوجته.
"تابع"، وراحت تشع من الوسائد.

((الذي باع منزله إلى آل وولتر. ويبدو أننا حصلنا على بعض مقتنيات منزلكم في ذلك الحين، ولكن لا شيء قد بقي سوى الكوب والمهد القديم، الذي وجدته في ورشة الفخار وقد أصلحته لأجلك. آمل أن جورج الصغير ... سيكون من آل لاشمار، أليس كذلك؟ سيعيش ليرى أحفاده يسنّنون على هذا الكوب.
المحبة لك
ألبس كونانت
ملاحظة: لكم كنت كتومة حول هذا الموضوع كله.))

"حسناً، أنا..."
قالت صوفي: "لا تشتم. هذا سيئ لعقل الطفل."
"ولكن كيف حصل أن عرفت ذلك؟ هل قلت لها شيئاً حول آل لاشمار؟"
"أنت تعرف تلك المرة الوحيدة... تكلمت أمام إغولدن الشاب في روكتس – حين توفي إغولدن [العجوز]".
"شقيق جدة أمك! لقد تقفت آثار العائلة كلها. اكثر مما استطاعت العمة سيدني. ما الذي تعنيه هي بكونك كتومة؟"
التمعت عينا صوفي. "لقد فكرت في ذلك أيضاً. لقد انتقمنا من الإنكليز أخيراً. ألا تستطيع أن ترى أنها فكرت أننا إذ حسبنا أن كون

أمي من آل لاشمار فقد كان ذلك واحداً من تلك الأمور التي نتوقع من الإنكليز أن يكتشفوها بأنفسهم، وأن هذا ترك انطباعاً جيداً عندها ؟" قلّبت الكوب في يديها البيضاوين وتنهدت بسعادة. "انتظر لحظة - انتظر لحظة". ليس هذا بالشعار السيئ يا جورج. لقد كان الأمر يستحق الجهد."

"لن أستغرب لو لم يحسبوا قدومنا هنا جزءاً من خطة مدبرة بعناية ومكر لنكون قرب أسلافنا. سيفهمون ذلك. وانظري كيف قبلونا، جميعهم."

نخر جورج: "هل نحن غير مرغوب بنا بحد ذاتنا؟"

"كن عادلاً ماي لورد. سانغرس البائس لديه ضعف ما لدينا من المال. أتستطيع أن ترى مارم كونانت وهي تضربه بين كتفيه؟ ليس كثيراً! الوحش المسكين لا وجود له!"

"هل تعتقدين أن الأمر هو ذاك إذن؟" نظر نحو المهد قرب المدفأة حيث كان الإله الصغير يشخر.

"في الدقيقة التي أتعافى فيها سأحاول أن أستخلص من السيدة كلوك ما يعطيه كل فرد من آل لاشمار كصدقة (هذا ألطف من البقشيش) في كل مرة يولد فيها ولد مهم. لقد قمت بواجبي حتى الآن، ولكن الكثير متوقع مني."

هنا دخلت السيدة كلوك وعلّقت أشياء تخص العبادة فوق المهد. وقد عرضا عليها الكوب والتمع وجهها. "أوه، أرسلته الليدي كونانت الآن، وسيكون كل شيء على ما يرام يا سيدي، أليس كذلك؟ سيكون ((جورج)) بالطبع كما تأمل - ويأمل كل الناس - ((لاشمار)) أيضاً

وهذا سيضع حداً للأمر كله. كوب جميل جداً... فريد تماماً، كما يمكنني أن أتخيل. ((انتظروا لحظة - انتظروا لحظة)). هذا صحيح فيما يخص آل لاشمار، كما سمعت. هم بطيئون جداً في ملء منازلهم [بالأولاد] مثل السيد جورج الذي لم يفتح غرفة نوم الأطفال حتى أضحى في الثلاثين".

صرخت صوفي: "يا للحمل المسكين. ولكن كيف عرفت أني من آل لاشمار؟"

فكرت السيدة كلوك بعمق. "أنا واثقة أني لا أستطيع شرح ذلك يا سيدتي، ولكن لديّ اعتقاد بأنه من الأرجح أنك قلت شيئاً لإغولدن الشاب حين كنت في روكتس. هذا كان على الأرجح هو ما أعطانا تلميحاً. وهكذا تبين من الكلام المتبادل بين شخص وآخر، ومن حقيقة أن أولئك الأشخاص الأمريكيين في فيرينغ هولو كانوا كريمين بالأخبار كما قيل لي يا سيدتي."

"يا سكوت العظيم!" قال وهو يكتم غيظه. "هذه هي العلامة البسيطة!"

تابعت السيدة كلوك: "أجل. وكان كلوك يتساءل عصر هذا اليوم - لقد انزلقت وسادتك يا عزيزتي، لا تضطجعي على هذا النحو - لأجل أن تقولي شيئاً ما فحسب، سواء فكرت أم لا في استرداد مزارع آل لاشمار. وهم لا يصفّون أملاك السير وولتر. إنهم يقتربون منا أكثر فأكثر. وسيكون كلوك سعيداً أن يريكم ذلك كله في أحد الأيام."

"ولكن السير وولتر لا يريد أن يبيع، أليس كذلك؟"

"نستطيع أن نعرف من وكيله يا سيدي، ولكن"...باحتقار بارد - "أعتقد أن تلك الممرضة المدربة ستعود من غدائها، لذا أخشى أنه

سيكون علينا أن نسألك يا سيدي... والآن يا سيد جورج الصغير استيقظ دقيقة يا طفلي!"

* * *

بعد بضعة أشهر كان ثلاثتهم عند الجدول في غابات غيل أنستي للتمعن في مسألة إعادة بناء جسر مشاة جرفته فيضانات الربيع. أراد جورج لاشمار كل أزهار جريس الزرقاء التي فوق أرض الرب في ذلك اليوم ليأكلها، وكانت صوفي تهيم به بصوت مثل هديل الحمام. لذلك تأخرت الأعمال.

"هذا هو المكان"، قال أبوه أخيراً بين أزهار أذن الفأر المائية. "ولكن أين بحق الشيطان هي أعمدة خشب اللاركس يا كلوك؟ لقد قلت لك أن تجهزها هنا."

"سنجلبها إذا طلبت ذلك"، أجاب كلوك وهو يدفع شفته السفلى نحو الأمام وهذه عادة يعرفانها كلاهما جيداً.

"ولكني طلبت ذلك. لماذا جلبت حبال جسر الخشب تلك إلى هنا؟ نحن لا نبني جسر سكة حديد هنا.عجباً، في أمريكا تكفي نصف دزينة من الأخشاب طول الواحدة أربع أقدام وعرضها قدمان."

قال كلوك: "لا أعرف شيئاً حول هذا. وليس لدي ما أقوله ضد خشب اللاركس... إذا كنت تريد القيام بعمل مؤقت مستعملاً إياه. لم يسبق لي أن قلت لك ما هو غير ذلك يا سيدي. ولا تستطيع أن تقول إني حاولت خداعك أو جعلك تسير في أمر ما أبعد مما أردت أصلاً..."

قبل عام كان من شأن جورج أن يرقص من نفاد الصبر. والآن كشط

بعض الطين عن حذائه القديم بمسحاة الحفر خاصته وانتظر.

"كل ما أقوله هو أنك تستطيع استخدام خشب اللاركس وتصنع منه شيئاً مؤقتاً. وحين يحل الأوان لزواج السيد الصغير سيكون الأمر قد تم مجدداً. والآن، لقد جلبت زوجاً من ألواح خشب السنديان طولها ثمانية أقدام وعرضها ستة أقدام كما سبق لنا وخططنا. ضعها في المكان وانس الأمر نهائياً. من ناحية واحدة... لا أقول إنها ليست صحيحة. أنا أقول فحسب ما أفكر به... ولكن من ناحية أخرى قد يتزوج قبل أن نكون قد أنهينا الأمر. لست ملزماً بأخذ كلامي بعين الاعتبار، ولكنك لا تستطيع الخروج من ذلك."

"كلا"، قال جورج بعد توقف. "لقد أدركت ذلك منذ بعض الوقت. فليكن سنديانا إذن. لا نستطيع الخروج من ذلك."

الهوامش

(١) التوكاتة : مقطوعة موسيقية معدة لإظهار البراعة في العزف على البيانو أو الأرغن (المترجم)

(٢) موترة المفاتيح : آلة تعتبر الأصل الذي تطور منه البيانو (المترجم)

(٣) بومبي : المدينة الرومانية في إيطاليا التي دمرها بركان فيزوف عام (٩٧)م وأعيد اكتشافها في القرن التاسع عشر . (المترجم)

(٤) جزيرة في إندونيسيا . (المترجم)

(٥)الموحدّية : طائفة مسيحية ترفض التثليث وتقول بالتوحيد (المترجم)

(٦) إله الحب عند الإغريق . (المترجم)

الخلية الأم

(١٩٠٨)

لو لم يكن جذع الشجرة قديماً ومكتظاً، لما استطاعت عثة الشمع الدخول. ولكن حيث يكون النحل شديد الكثافة فوق قرص العسل فلابد من وجود مرض أو طفيليات. كانت حرارة الخلية قد ارتفعت مع تدفق عسل حزيران(يونيو)، ورغم أن نحلات المراوح قد عملت حتى آلمتها أجنحتها، لتبقي الجميع منتعشين، إلا أن الجميع قد عانوا.

زحفت نحلة شابة صاعدة لوح الهبوط الزلق الذي عرف الكثير من الوطء. بدأت تقول: "اعذرني، ولكن هذا أول طيران لي لجني العسل. هل لك أن تدلني على ..."

"... خليتك؟" قال الحارس بصوت حاد. "أجل! ادخلي واجلسي ولتصابي بمرض التهاب اليرقانات. من التالي؟".

"يا للعار!" صرخت نصف دزينة من العاملات العجائز بأجنحة وأعصاب مهترئة، وحدث شجار وطنين.

اقتربت عثة الشمع الرمادية الصغيرة من شق في لوح الهبوط وراحت طوال النهار تنتظر الفرصة. دخلت مسرعة كشبح، ولمعرفتها بأن النحلات الكبيرات سيطردنها فوراً، فقد دخلت إطار الحضانة حيث الصغار الذين لم يروا بعد الرياح وهي تهب ولا الزهور تطاطئ برؤوسها أمام الحياة المبحوثة بالتفصيل. هنا كانت في أمان، فالنحلات الصغيرات سيتحملن أي نوع من الغرباء. وخلفها وصلت النحلة التي

كلمها الحارس بفظاظة.

قالت إحدى الرفيقات: "كيف هي الدنيا ؟"

"قاسية! لقد جلبت حمولة من مادة من الصنف الأول، وطلب مني الحارس أن أذهب وأصاب بمرض التهاب اليرقانات!" جلست في مجرى الهواء البارد عبر أقراص الشمع.

قالت عثة الشمع بنعومة: "لو أنك سمعت فحسب وقاحة لهجة الحارس وهو يسب أختنا! لقد أثار ذلك غضب المجموعة كلها". وضعت بيضة. كانت قد تسللت لأجل هذا الغرض.

"كان هناك بعض الجلبة على الباب"، قالت ميليسا ضاحكة. "أكنت هناك يا آنسة... ؟"

لم تعرف كيف تخاطب الغريبة النحيلة.

"لا تناديني بآنسة. أنا أخت كل من هو في ألم ... مجرد أخت عاملة. لقد آلمني قلبي لأجلك وأنت تحت ذلك الحمل الثقيل." داعبت عثة الشمع ميليسا بقرون استشعارها الناعمة ووضعت بيضة أخرى.

صرخت ميليسا: "لا يجب أن تضعي البيض هنا. لستِ ملكة."

"يا طفلتي العزيزة. أعطيك كلمة شرف بأن هذه ليست بيوضاً. هذه هي مبادئي وأنا مستعدة للموت لأجلها." رفعت صوتها قليلاً فوق الضجيج وصوت الأقدام من حولها. "إن كنت تريدين قتلي فأرجوك أن تفعلي."

"لا تكوني قاسية يا ميليسا"، قالت نحلة شابة، وقد تأثرت بالطيات الطاهرة لجناح عثة الشمع التي كانت تغطي وضعها المتواصل للبيض.

أجابت ميليسا: "لم أفعل أي شيء. هي التي تفعل كل شيء."

"آه، لا تجعلي ضميرك يؤنبك لاحقاً، ولكن بعد أن تقتليني، اذكريني على الأقل كواحدة أحبت زميلاتها من العاملات."

وبينما راحت تضع بيضة مع كل شهقة بكاء، تراجعت عثة الشمع نحو حشد من النحلات الشابات، وتركت ميليسا حائرة ومنزعجة. لذلك رفعت صوتها الصغير في العتمة وصرخت: "مستودعات!" حتى وصلت مجموعة من مالئات الخلايا ليحيّينها وتركت معهن حمولتها.

قال صوت من فوق كتفها: "أخشى أني أصبتك بمرض التهاب اليرقانات للتو. كنت عند البوابة ثلاث ساعات والمرء من شأنه أن يدعو حتى على الملكة نفسها بمرض التهاب اليرقانات بعد ذلك. لم أكن أقصد الإهانة."

أجابت ميليسا بمرح: "لم تحصل إهانة. سأكون حارسة يوماً أنا أيضاً. ما الذي سأفعله الآن؟"

"هناك إشاعة عن وجود ((عثات رأس الموت)) في المكان. أرسلي عصبة من الشابات إلى البوابة، وقولي لهن أن يضيّقوها بزوج من أعمدة نفايات الشمع القوية. وهذا سيجعل الخلية حارة ولكننا لن ندع عثات رأس الموت في وسط محصول العسل."

"أجنحتي الوحيدة! لا أعتقد ذلك!" كان لدى ميليسا ذلك الكره المتوارث للنحلة السليمة ضد "لص الخلايا" الريشي الزاعق. "أسرعن إلى الخارج!" نادت على مساكن الشابات. كل واحدة منكن من اللواتي لا تطعمن الصغار، فلتظهر سيقاكن. اصنعن أعمدة من نفايات الشمع عند البوابة!" غنّت الأمر مفصّلاً.

أجابت نحلة زغباء عمرها يوم واحد: "هذا هراء. أولاً، لم يسبق لي أن سمعت أن عثة رأس الموت تدخل إلى الخلية. لا يقوم الناس بمثل هذه الأمور. ثانياً، إن بناء أعمدة لمنعها من الدخول حيلة قبرصية محضة،لا تليق بالنحل الإنكليزي. ثالثاً، لو وثقتم برأس الموت فسوف تثق بكم. بناء الأعمدة يدل على نقص في الثقة. أختنا العزيزة باللون الرمادي تقول ذلك."

"أجل. الأعمدة غير إنكليزية وهي استفزازية ومضيعة للشمع المطلوب لغايات أسمى وأكثر عملية". قالت عثة الشمع من حجيرة تخزين فارغة.

"سلامة الخلية هي أسمى شيء سبق لي أن سمعت به. ليس عليك أن تعلمينا أن نرفض العمل"، بدأت ميليسا بالكلام.

"لقد أسأت فهمي كالعادة يا حبيبتي. العمل هو جوهر الحياة. ولكن أن ننفق أمراً حيوياً ثميناً لا يمكن استرداده وجهداً حقيقياً ضد خطر متخيّل، هذا أمر عجيب إلى حد يحطم القلب! لو استطعت فحسب أن أعلّم... القليل من الاحتمال...القليل من اللطف العادي هنا تجاه تلك الغولة التي تسمونها رأس الموت، لما كنت قد عشت عبثاً".

"لم تعش عبثاً، الحبيبة!" صرخت عشرون نحلة معاً. عليك أن تري حياتها الأشبه بحياة القديسين يا ميليسا! إنها تكرس نفسها فحسب لنشر مبادئها و... و... تبدو جميلة!"

دخلت نحلة عجوز صلعاء إلى قرص العسل.

"عاملات الأعمدة إلى البوابة! اخرجن وامضغن النفايات. هيا أسرعن!" قالت. انزلقت عثة الشمع جانباً.

اصطفت النحلات الشابات على امتداد الإطار وهن يتهامسن.

"ما الذي جرى لهن؟" قالت النحلة العجوز. "لماذا ينادين الواحدة الأخرى بـ ((البطة)) و((حبيبتي))؟ لا شك أنه الطقس. "تشممت الجو بارتياب. "رائحة رهيبة خانقة هنا، مثل رائحة اللحاف النتن. ليست رائحة عثة الشمع كما آمل يا ميليسا؟"

"ليس حسب معرفتي"، قالت ميليسا التي لم تكن تعرف بالطبع عثة الشمع إلا كسيدة ذات مبادئ ولم يسبق لها أن فكرت في التبليغ عن وجودها. لقد تخيلت دائماً عثات الشمع على أنهن يعاسيب حمراء كالدم.

"الأجدر بك أن تروّحي هذه الزاوية فترة من الزمن"، قالت النحلة العجوز ثم تابعت رحلتها. أمالت ميليسا رأسها فوراً، وأمسكت بطرفيها الأماميين بقوة وراح تروّح بامتثال وفق السرعة النظامية: ثلاثمائة خفقة بالثانية. والترويح امتحان لمزاج النحلة، لأن عليها دائماً أن تبقى في المكان نفسه حيث لا يبدو أنها تقوم بأي عمل مفيد، وفي هذه الأثناء فإنها تنهك أجنحتها الوحيدة. حين لا تستطيع النحلة الطيران فليس عليها أن تعيش. والنحلة تعرف ذلك. زحفت عثة الشمع نحو الأمام وداعبت ميليسا مجدداً.

همهمت: "أرى أنك واحدة ((منّا)) في الواقع."

أجابت ميليسا باختصار: "أعمل مع الخلية."

"الأمر سيان. نحن والخلية واحد."

"إذن لماذا قرون استشعارك مختلفة عن قروننا؟ لا تحضنيني هكذا."

"لا تكوني ضيقة الأفق يا ((كاريسيما)).لا يمكن أن يكون العالم كله متشابهاً... بعد."

ألحت ميليسا: "ولكن لماذا تضعين البيض؟ أنت تضعينه كالملكة... ولكنك تضعينه في بقع في كل أرجاء المكان. لقد راقبتك."

"آه، يا ذات العيون الذكية، إذن فقد أدركت حيلتي، أجل هذا بيض. وسينشر تدريجياً مبادئنا.ألست سعيدة؟.

"لقد حلفت بشرفك بأنه ليس بيضاً."

"تلك كانت حيلتي الصغيرة يا أعز الأعزاء... في سبيل ((القضية)). والآن علي الوصول إلى الصغار." تحركت عثة الشمع نحو إطار التفقيس الرابع حيث كانت النحلات الصغيرات مشغولات بإطعام الوليدات.

قد يستغرق الأمر بعض الوقت حتى تدرك نحلة سليمة كذبة شريرة ومستمرة. "إنها عذبة جداً ومكسوة بالريش." كان هذا كل ما فكرت به ميليسا." ولكن حديثها يبدو ذا مذاق كمذاق عسل اللبلاب. الأفضل أن أعود إلى عملي الحقليّ مجدداً."

وجدت البوابة في اهتياج كئيب. كانت الصغيرات اللواتي أمرن ببناء الأعمدة قد رفضن مضغ نفايات الشمع لأن ذلك آلم أفكاكهن، وكن يصحن مطالبات بشمع جديد.

قال الحارس المتضايق: "أي شيء لإنهاء العمل! فلتعلق بعضكن أنفسهن وليصنعن الشمع لهؤلاء الأخوات بطيئات الأفكاك."

قبل أن تصنع نحلة الشمع عليها أن تتخم نفسها بالعسل، ثم تتسلق إلى موطئ قدم آمن وتعلق نفسها، بينما تقوم نحلات أخريات

متخمات بالتعلق بها في عنقود. وهناك ينتظرن في صمت حتى يأتي الشمع. وتؤخذ القشور من جيوب صانعات الشمع من قبل العاملات أو تتساقط فوق العاملات المنتظرات. تمضغها العاملات (لا فائدة منها دون مضغ) ضمن شمع الخلية الداعم المطوق لها.

ولكن الآن، ما أن تجمّع عنقود صنع الشمع حتى صاحت العاملات من الأسفل:

"انزلن مجدداً! تعالين واعملن! هيا أيتها الطفيليات المشرقيات! لا تظنن أنكن ستمتعن أنفسكن هناك في الأعلى بينما نشقى نحن في الأسفل هنا!"

ارتجف العنقود فقد راحت تسري الرجفة من القائمة الأمامية المعلقة إلى القائمة الخلفية المعلقة كالرسالة التلغرافية وهي تنقل القلق. وأخيراً قفزت عاملة إلى الأعلى و أمسكت بأخفض حاملة شمع و تأرجحت وهي ترفس رفيقاتها.

صاحت: "أستطيع صنع الشمع أنا أيضاً! املؤوا بطني بالعسل وسأصنع أطناناً منه."

"اصنعيه إذن"، قالت النحلة التي تشبثت بها. سرت الكلمة المنطوقة عبر العنقود. اهتز العنقود والتمع كفرو الهرّ في العتمة. همهمت: "فليكن! لا شمع لأحد اليوم."

"أيتها اللصات الكسولات! تعلقن فوراً وأنتجن شمعنا"، قالت النحلات في الأسفل.

"مستحيل! ولّت روح الكدح. حتى نصنع شمعكن يجب أن يكون لدينا هدوء ودفء وغذاء. فليكن انفكاكاً! فليكن انفكاكاً!"

انفرطن وهن يهمهمن واختفين بين النحلات الأخريات، ولم يكن بالطبع ممكناً تمييزهن عن الأخريات.

"يبدو وكأننا مضطرات لمضغ شمع النفايات لأجل تلك الأعمدة على أي حال"، قالت إحدى العاملات.

"ليس في قرص كامل"، صرخت النحلة الصغيرة التي فكت العنقود. "اسمعن هنا! لقد درست المسألة لأكثر من عشرين دقيقة. إنها بسيطة شأن السقوط عن زهرة الربيع. هل سمعتن بتشيشاير وروت ولانغستروث؟"

لم يكن قد سمعن بهم، ولكنهن صرخن: "لانغستروث الجيدة القديمة!" مع ذلك.

"هؤلاء الثلاثة يعرفون كل ما يمكن معرفته حول صنع الخلايا وأحدهم أو الآخر قد صنع خليتنا لابدّ، ولوكانوا قد صنعوها فهم يعرفون الاعتناء بها. خليتنا «خلية ذات براءة مكفولة». تستطعن رؤية ذلك على اللصاقة التي في الخلف.

"يا للكفالة الجيدة القديمة! هيا نحيّي اللصاقة التي في الخلف!" هدرت النحلات.

"حسناً، بما إن الحال على ما هي عليه أقول إنه حين نجد أنهم خدعونا، نستطيع أن ننتقم منهم شر انتقام."

"يا للانتقام الجيد القديم! يا لروت الجيد القديم!" حيّا الحشد وانفرط عقده حين انقضت ميليسا عبره.

"هل تعرفين أين يعيش لانغستروث وروت وتشيشاير إن كنت تريدين الوصول إليهم؟" سألت الخطيبة المعتزة بنفسها واللاهثة.

"ألصقوني بالصمغ إن كنت أعرف هل هم على قيد الحياة أم لا. ولكن أليست أسماؤهم جميلة عند النطق؟ هل رأيتن كيف أثارت حماسة الأخوات؟"

"أجل، ولكنهن لم يدافعن عن البوابة"، أجابت.

"آه، ربما هذا صحيح، ولكن فكري كم هو موقفي حساس يا أختي. لديّ شهية عظيمة ولا أحب العمل. إنه ضار بالعقل. تقول لي عزيزتي إني أستطيع أن يكون لي تأثير كابح على الآخرين. لربما كانوا في حالة أسوأ لولاي."

ولكن ميليسا كان قد سبق لها وارتفعت وراحت تتجه نحو مكان واسع من البرسيم الأبيض الذي لم يُمس، والذي هو لنحلة مرهقة جداً مريح شأن الحياكة العادية للمرأة.

"أعتقد أني سآخذ هذا الحمل إلى قسم الأطفال"، قالت بعد أن انتهت. "كان المكان هادئاً هنا دائماً في أيامي"، ثم ارتفعت مع قالبين صغيرين من غبار الطلع لأجل الصغار.

وقد قابلت في قرص الحضانة الرابع مجموعة مندفعة من الأخوات المستشارات يهمهن معاً.

قالت: "كل واحدة بدورها! اسمحن لي أن أنزل حملي. والآن ما الأمر يا ساكاريسا؟"

" الأخت الرمادية - تلك الزغباء أعني - لقد جاءت وقالت إن علينا أن نخرج إلى الشمس لنجمع العسل لأن الحياة قصيرة. قالت إن أي نحلة عجوز تستطيع رعاية صغارنا وإن النحلات العجائز ستفعلن ذلك يوماً. هذا ليس صحيحاً يا ميليسا، أليس كذلك؟ ولا تستطيع

النحلات العجائز أن تبعدنا عن صغارنا، هل يستطعن؟"

"بالطبع لا. أنتن تطعمن الأطفال ورؤوسكن طرية. حين تتقسى رؤوسكن تذهبن إلى العمل الحقلي. أي واحدة تعرف ذلك."

"لقد قلنا لها ذلك. قلنا لها ذلك! ولكنها لوحت بقرون استشعارها وقالت إننا نستطيع جميعاً وضع البيض شأن الملكات لو أردنا ذلك. وأخشى أن كثيراً من الأخوات الأضعف يصدقنها، ويحاولن فعل ذلك. هذا أمر مثير للقلق جداً!"

أسرعت ساكاريسا إلى حجيرة عاملة مغلقة كان غطاؤها ينبض، بينما كانت النحلة التي في الداخل تشق طريق الخروج.

"هيا يا غاليتي!" همهمت ثم رفعت الغطاء الرقيق من الجانب الآخر. دفع شيء شاحب رطب مغضّن بنفسه بوهن نحو القرص. تغيرت لهجة ساكاريسا فوراً. "لا وقت لدينا نضيعه! اصعدي الإطار وغضني نفسك!" قدمي نفسك للقيام بواجب رعاية الصغار في جناحي غداً مساء في السادسة. توقفي لدقيقة. ما خطب ساقك اليمنى الثالثة؟"

رفعتها النحلة الصغيرة في صمت... إنها دون شك ساق غير قادرة على جمع غبار الطلع.

"شكراً. ليس عليك أن تقدمي نفسك قبل بعد الغد." التفتت ساكاربسا إلى رفيقتها. "هذه خامس واحدة تفقس على هذا النحو الشاذ في جناحي منذ الظهر. لا أحب هذا."

قالت ميليسا: "هناك دائماً عدد محدد منهن. لا تستطيعين منع البعض القليل من الأخوات العاملات عن وضع البيض بين الحين والآخر

بعد أن يتخمن أنفسهن. وهن لا يعطين سوى ذكور قزمة."

"ولكننا نفقس ذكوراً من مَعِدات العاملات. عاملات ذوات معدات كمعدات الذكور. وكذلك المصابات بالمهق وذوات السيقان المختلطة اللواتي لا يستطعن جمع غبار الطلع... مثل تلك النحلة الصغيرة المسكينة هناك. لا أعترض على الذكور الأقزام أكثر منك (كلها تموت في تموز/يوليو)، ولكن هذا الفقس المتواصل للشاذات الخلقة يخيفني يا ميليسا!"

"لكم أنت ضيقة الأفق! إنهن جميعاً ذكيات على نحو ممتع وغير عاديات ومثيرات للاهتمام"، هكذا زعقت عثة الشمع من شق فوقهما. "تعالي إلى هنا يا عزيزتي، يا بطتي الزغباء، واحكي لي عن مشاعرك."

"أتمنى لو ترحل!" أخفضت ساكاريسا من صوتها. "إنها تقابل هؤلاء ... الشاذات وهن يجففن أنفسهن وتحضنهن في الزوايا".

"أفترض أن الحقيقة هي أننا قد خزنّا ما يزيد عن حاجتنا وأننا قد تغذينا إلى حد لا نستطيع معه التحليق في مجموعات كبيرة"، قالت ميليسا.

"هذه هي الحقيقة"، قال صوت الملكة من خلفهما. لم تكونا قد سمعتا وقع الأقدام الملكية الثقيل الذي يجعل الحجيرات الفارغة تتذبذب. قدمت ساكاربسا غذاءها فوراً. أكلت ثم سحبت جسدها المنهك نحو الأمام. "هل تستطيعين اقتراح علاج؟"، قالت.

"مبادئ جديدة!" صرخت عثة الشمع من شقها. "سنطبقها بهدوء...لاحقاً."

"مـاذا لو أرسلنا حـشـداً يطيـر؟" اقـتـرحت مـيليـسـا. "الوقت تأخر قليلاً، ولكن هذا قد يخفف من الأمر."

"سينقذنا، ولكني...أعرف الخلية! سترين بنفسك." صرخت الملكة العـجوز "صرخة الطيران بالحشود" والتي تعني للنحلة الجيدة ما كـان يعنيه النفير لحصان أيوب الحربي. ورغم عمرها المديد (ثلاث سنوات)، فـقـد رنّ الصـوت بين الإطارات المتـحـدرة كـمـا ترن القـطعـة الموسيـقـيـة العسكرية الاسكتلندية في ممرّ جبلي. غيرت نحلات الترويح من نبرتهن ورحن يرددن الصرخة في كل دهليز. أما الذكور ذوو الأجنحة العريضة، القـوية والتـواقـة، فـقـد أطلقـوا نفـيـراً مثـيـراً للأعـصـاب. "الملكة تريد! احتشدوا للطيران! احتشدوا! احتشدوا!"

ولكن الهدير الذي كـان يجب أن يتبع "النداء" كـان ناقصاً. سمعوا الدمدمة المتقطعة مثل همهمة تيار ساقط.

"نحـتـشـد للطيران؟ لماذا؟ أمسكوا بي وأنا أغـادر خلية إطار جيـدة لها أساسات ثابتة من أجل سنديانة عفنة عتيقة في العراء حيث يمكن أن يهطل المطر في أي لحظة! نحن جـمـيـعـاً بخـيـر! إنهـا ((خليـة مكفـولة البـراءة)). لماذا يريدون أن يطردونا؟ اللعنة على الاحـتـشـاد للطيـران! اخترع الاحتشاد لحرمان العاملة من راحتها الملائمة. هيا إلى السرير!"

همدت الضجة مع استـقرار النحلات في الحجيرات الفارغـة لقضاء الليل.

قالت الملكة: "أتسمعون؟ أعرف الخلية!"

صرخت عثة الشمع: "بيني وبينك، أنا علمتهم ذلك. انتظري حتى تتطور مبادئي وسترين النور من اتجاه آخر."

"لقد نطقت الحقيقة مرة واحدة"، قالت الملكة فجأة، فقد ميزت وجود عثة الشمع. "ذلك النور سيتخلل قمة الخلية.وسيتبعه ((دخان)) حار ولن يستطيع أطفالك الاختباء في شق."

همست ميليسا: "أهذا ممكن؟ أنا... نحن سمعنا أحياناً بأسطورة كهذه."

أجابت الملكة العجوز: "ليست بالأسطورة. لقد سمعتها من أمي، وهي من أمها. بعد أن تقوى عثة الشمع، سيحل ((ظل)) عبر البوابة. وسيتحدث صوت من وراء ستار. سيكون هناك ((نور)) و((دخان حار)) وزلازل ومن يبقى حياً سيرى كل شيء تم فعله، كله معاً في مكان واحدة، محترقاً في ((نار)) عظيمة. كانت الملكة العجوز تحاول أن تحكي عما روي لها عن معالجة مالك خلايا النحل لخلية أصيبت بالعدوى في المنحلة، قبل موسمين أو ثلاثة. وبالطبع فمن وجهة نظرها كانت المسألة ذات شأن عظيم بقدر ما هو ((يوم الدينونة)).

سألت ساكاريسا المرتاعة: "وبعد ذلك؟"

"بعد ذلك، سمعت أن نوراً صغيراً سيضاء في عتمة هائلة وربما سيبدأ العالم من جديد. أنا نفسي لا أعتقد ذلك."

صرخت عثة الشمع: "هراء! هراء! أنتم الناس الطيبون البدينون تتنبؤون دائماً بالخراب لو أن الأمور لم تسر حسب هواكم. ولكني أضمن لكم حدوث تغييرات."

وقد حدثت. حين فقست بيوضها، كان الشمع قد تثقب بأنفاق صغيرة تغطيها الملابس القذرة لليساريع. راحت خطوط صوفية تجري عبر مخازن العسل، وأماكن حفظ غبار الطلع، والأساسات، وكذلك – وهذا

أسوأ ما في الأمر - عبر الأطفال الصغار في أمهادهم، حتى أن الحارسات عاملات النظافة أنفقن نصف أوقاتهن وهن يبعدن الجثث الصغيرة عديمة الفائدة. وقد انتهت الخطوط في متاهة من الشباك الدبقة فوق سطح الخلية. لم تكن اليساريع قادرة على التوقف عن النسج وهي تمشي، وبينما راحت تمشي في كل مكان، كانت تطغى على كل شيء وتلتهم كل شيء. وحتى حين كانت لا تعيق أقدام النحلات، فإن الرائحة الكريهة الحامضة للنسيج كانت توقفهن عن العمل. رغم أن بعض النحلات اللواتي مارسن وضع البيض قلن إن ذلك شجعهن على أن يصبحن أمهات وعلى أن يحتفظن باهتمام حيوي بالحياة.

حين أصبحت اليساريع عثات فقد عقدن صداقات مع النحلات الشاذات الخلقة اللواتي كن يزددن عدداً باضطراد... المصابات بالمهق، وذوات الأرجل المختلطة، والمركّبات ذوات العين الواحدة، والذكور عديمو الوجوه، وأنصاف الملكات والأخوات البيّاضات. وقد راحت العصبة المتناقصة العدد من النوع القديم تعمل جاهدة حتى تصلع رؤوسها وتنهك أجنحتها لتطعم من وضع في عهدتها. لم تكن معظم النحلات الشاذات الخلقة قادرات بسبب تشوهاتهن على القيام بالعمل الحقلي اليومي. ولكن عثات الشمع اللواتي كن مشغولات دائماً في قرص التفقيس، قد وجدن أعمالاً منزلية سارة لهن. فقد كانت إحدى النحلات المصابات بالمهق مثلاً توزع عدد أرطال العسل المخزن على عدد النحلات في الخلية، وقد برهنت على أنه لو جمعت كل نحلة عسلاً لمدة سبع دقائق وثلاثة أرباع الدقيقة في اليوم، لكانت قادرة على التمتع ببقية النهار وتستطيع مرافقة الذكور في رحلات الجماع. لم يكن الذكور سعداء بهذا قط.

وقال ذكر آخر دون عينين ودون قرون استشعار إن كل خلايا التفقيس يجب أن تكون دوائر كاملة، حتى لا تتدخل مع الكادحات أو العاملات. وقد أثبت أن الخلايا السداسية القديمة قد بنيت فقط لأن العاملات كن يبنين الواحدة أمام الأخرى على الجانبين المتقابلين للجدار، وأنه لو لم يكن هناك تدخل، لن تكون هناك زوايا. وقد حاولت بعض النحلات تنفيذ الخطة الجديدة مدة من الزمن، فاكتشفن أنها تكلف من الشمع ثمانية أضعاف ما تكلفه المواصفة السداسية القديمة. وبما أنه لم يكن هناك مجال لعنقود أن يتدلى لصنع الشمع، فقد كان الشمع نادراً. وعلى أي حال ، فقد احتلن على مهمتهن بالورنيش المسروق من التوابيت الجديدة في الجنازات، وقد أصابهن هذا بالغثيان. ثم آخذن بالتطفّل على معامل السكر والجعة، لأنه كان أمراً سهلاً حصولهن على المادة من تلك الأماكن. ولكن مزيج الغلوكوز والجعة تخمر طبيعياً خلال خزنه وشوه شكل حجيرات التخزين، كما كانت له رائحة كريهة. وقد حذرتهن بعض النحلات العاقلات السليمات بأن المكاسب التي تتحقق بطرق غير شرعية لا يمكن لها أن تنجح وتزدهر، إلا أن شاذات الخلقة أحاطت بهن فوراً وكوّرتهن حتى الموت. وكانت هذه عقوبة كن مغرمات بها كما بالأكل تقريباً، وكن يتوقعن من النحلات السليمات أن يطعمنهن. ومن الغريب حقاً أن الغريزة القديمة غريزة الإخلاص والتفاني نحو الخلية قد جعلت النحلات السليمات يفعلن هذا، رغم أن عقولهن قالت لهن إن عليهن أن ينسحبن ويتحدن مع نسل صحّي آخر في المنحلة.

وماذا عن عمل سبع دقائق وثلاثة أرباع الدقيقة الآن؟" قالت ميليسا في أحد الأيام وهي تدخل. "أنا أعمل منذ خمس ساعات وليس

لديّ سوى نصف حمولة."

"أوه، تعيش الخلية على العسل الخلوي الذي تنتجه الخلية"، قالت نحلة شاذة عمياء وهي تقعي فوق جحيرة تخزين.

"ولكن العسل يجمع من الزهور في الخارج...وأحياناً من مسافة ميلين"، صرخت ميليسا.

"اعذريني"، قالت العمياء وهي تمص بقوة. "ولكن هذه هي الخلية، أليس كذلك؟"

"كانت. إنها الحظ السيئ."

"والعسل الخلوي هنا، أليس كذلك؟" فتحت حجيرة تخزين جديدة لتبرهن على كلامها."

"أجل، ولكن لن يدوم الأمر طويلاً بهذه النسبة"، قالت ميليسا.

"النسبة لا علاقة لها بالموضوع. تنتج هذه الخلية العسل الخلوي. أنتم معشر النحل لا يبدو أنكم تفهمون البساطة المضحكة التي تكمن تحت الحياة كلها."

قالت ميليسا المسكينة: "أوه يا للحسرة! ألم يسبق لك وخرجت إلى ما وراء بوابة الخلية؟"

"طبعاً لا. إن عيني الأحمق في نهايات الأرض. أما عيناي ففي رأسي." أكلت حتى أتخمت.

التجأت ميليسا إلى عملها الحقلي ضعيف الأجر وحكت الحكاية لسكاريسا.

"هراء!" قالت النحلة الحكيمة وهي تتذمر مع عجوز شوكية. "احكي لنا شيئاً جديداً. الخلية مليئة بمثله... أعني بمثلها."

"ما نهاية هذا الأمر؟ العسل كله يخرج ولا يدخل منه شيء. لا يمكن للأمور أن تدوم على هذه الحال!" قالت ميليسا.

"من يكترث؟" قالت ساكاريسا. "أعرف الآن كيف يشعر الذكور في اليوم السابق على مقتلهم. حياة قصيرة ومرحة لي!"

"لو أنها كانت مرحة فحسب! ولكن فكري في الشاذات الكريهات الجديات اللامتناسبات وهن ينتظرننا في البيت - يزحفن ويتسلقن ويعظن - ويلوثن الأشياء في الظلام."

"لا أهتم كثيراً بأغانيهن الحمقاء، بعد أن أطعمناهن، وكلها تدور حول ((العمل بين الزهور المرحة المرحة))"، قالت ساكاريسا من أعماق جريسة كانتربري الذاوية.

قالت ميليسا: "أنا أكترث. كيف هي ملكتنا؟"

"يائسة بمرح، كالعادة. ولكنها تضع بيضة بين الحين والآخر."

"حقاً؟" ذهبت ميليسا إلى الجريسة التالية بحركة التوائية. "فلنفترض الآن أننا نحن العاملات الصحيحات حاولنا أن نرفع أميرة إلى زاوية نظيفة؟"

"لن تجدي واحدة بسهولة.الخلية ملأى بعثات الشمع والقاذورات.ولكن...حسناً؟"

"قد تساعدنا الأميرة في الوقت الذي يأتي فيه ((الصوت من خلف الحجاب)) الذي تتحدث عنه الملكة. وأي شيء أفضل من العمل في خدمة الشاذات اللواتي يغنين أغاني العمل الذي لا يستطعن أداءه، ويستهلكن ما نجلبه إلى الخلية."

قالت سكاريسا: "من يكترث؟ أنا معك من أجل التسلية.

ستكورنا الشاذات حتى الموت، لوعرفن. تعالي إلى البيت وسنبدأ."

* * *

لا مجال لنحكي كيف وجدت ميليسا المجرّبة إطاراً بعيداً شديد اللخّبطة وسوء التدبير من التجارب المتخّلى عنها في مجال بناء الحجيرات، حتى أنه ويا للعار لم يكن مطروقاً من قبل النحل إطلاقاً. وكيف قامت في ذلك اليباب بسد "حجيرة ملكية" بالشمع السليم، إلا أنها موّهت ذلك بالنفايات حتى بدت مثل تل بين تلال مهجورة. وكيف استطاعت إقناع الملكة اليائسة بأن تبذل جهداً واحداً أخيراً وتضع بيضة قيّمة. كيف أطاعت الملكة وماتت. وكيف رمي جثمانها عديم النفع فوق كومة النفايات، وكيف أن عدداً كبيراً من الأخوات واضعات البيض ذهبن ورحن يسقطن بيوض الذكور حيث يشأن ويقلن إنه لم تعد هناك حاجة إلى الملكات. وكيف قامت سكاريسا، تحت غطاء هذه الفوضى، بتعليم بعض النحلات الصغيرات ليعلّمن نحلات وليدات فن صنع "الهلام الملكي"، وهو الفن الذي كاد يضيع. وكيف أن الرحيق لأجل ذلك قد تم جمعه من خلال ساعات من العمل بين أنياب الرياح القارسة. وكيف أن البيضة المخبأة قد فقست حقاً - ولم تكن ذكراً بل ملكة من سلالة ملكية. وكيف توّجت وكيف عملن بيأس لتغذية الشاذات الكثيرات الآن بل وتغذيتهن تغذية مضاعفة، حتى لا يثيرهن أي نقص في الواردات الغذائية للبدء بالاستفسار والبحث، وكانت تلك تسليتهن الوحيدة مع أغان تدور حول العمل. وكيف حدث في ساعة ميمونة، في ليلة ظلماء، أن تقدمت الأميرة -"أميرة" حقيقية-وكيف هربتها ميليسا إلى مخزن

عسل فارغ معتم، لتنتظر الفرصة الملائمة. وكيف كان الذكور- وهم يعرفون بوجودها- يتجولون وهم يغنون أغاني الحب العميقة سيئة السمعة... إلى فضيحة الأخوات اللواتي يضعن البيض، واللواتي لديهن تحامل ضد الذكور. وهذه الأمور مكتوبة في "كتاب الملكات" المخبأ في فجوة في شجرة "الأغدراصيلة" الكبيرة، شجرة الدردار.

بعد أيام قليلة تغير الطقس مجدداً وأصبح رائعاً. وحتى الشاذات كن سينضممن الآن إلى الحشد الذي تعلق فوق لوح الحطّ ، وكن سيغنين عن العمل بين الزهور المرحة المرحة حتى تتلقى أذن غير مدربة الأغنية على أنها أغنية خلية عاملة. ومع ذلك فإن عسل التخزين كان قد التهم منذ زمن بعيد. كن يعشن من يوم إلى آخر على جهود النحلات السليمات القليلات بينما تذمرت عثات الشمع واستهلكت مجدداً شمعها الذي سبق له وتعرض للخراب. ولكن النحلات السليمات لم يذكرن قط هذه المسائل. كن على علم، أنه لو حدث ذلك، فإن الشاذات سيجتمعن ليكورنهن حتى الموت.

"والآن ترون ما الذي فعلناه"، قالت عثات الشمع. "لقد خلقنا مادة جديدة، ميثاقاً جديداً، نوعاً جديداً، كما قلنا سابقاً بأننا سنفعل."

"وإمكانيات جديدة لنا"، قالت الأخوات واضعات البيض بامتنان. "لقد منحتننا عمل حياة جديدة، حياة مترعة بالحيوية والسمو."

"بل أكثر من ذلك"، غنت الشاذات تحت نور الشمس. "لقد خلقتن سماء جديدة وأرضاً جديدة. سماء صافية ويمكن الوصول إليها." (كان المساء شديد الكمال، واحداً من أمسيات شهر آب/أغسطس/، "وأرضاً موارة بزهور مرحة، مرحة، لا تنتظر سوى عملنا الشريف لتتحول كلها

نحو الصلاح. إن النجمية والزعفران وقرص السسيدات في موسمها، والأقحوان كنوع، وزهرة غويلدر تثمر كثيراً برغم ذلك".

"أوه يا لهايمتوس المقدس!" قالت ميليسا مصعوقة. "لقد عرفت أنهن لم يعرفن كيف يصنع العسل، ولكنهن نسين! ((نظام الزهور))! ما الذي سيحل بهن؟"

سقط ظل عبر لوح الحطّ مع وصول صاحب المنحلة وابنه. زحفت الشاذات إلى الداخل، وقال صوت من وراء حجاب: "لقد أهملت الخلية العتيقة طويلاً. أعطني آلة الدخان."

سمعت ميليسا ذلك واندفعت عبر البوابة. صرخت "تعالي، أوه تعالي! إنه الدمار الذي تنبأت به الملكة العجوز أيتها الأميرة، تعالي!"

قال أحد شواذ الخلقة في إحدى الحارات: "كلماتك من الطراز القديم حقاً. قد تكون غيمة قد عبرت أمام الشمس، فلماذا هذه الهيستيريا؟ وعلى أي حال، فلماذا هن الأميرات متأخرات؟ هل تعرفين أنه حان وقت تناول الشاي الخلوي؟ فلنرتل صلاة المائدة."

زحفت ميليسا عبره بكل أرجلها الستة. كانت ساكاريسا قد هربت إلى ما تبقى من قرص التفقيس الخصب. "هيا اخرجن!" نادت عبر الاتساع الأسمر للقرص."المربيات والحرس ونحلات التهوية وعاملات النظافة... خارجاً! لا تكترثن بالأطفال. يفضل أن يموتوا. اخرجن قبل النور والدخان الحار!"

كان أول نداء واضح وجريء للأميرة (كانت ميليسا قد وجدتها) قد ارتفع وتردد عبر الإطارات: "الملكة تأمر! حلقن حشوداً!حلقن!حلقن!"

اهتزت الخلية تحت صوت راعد مع غطاء الخلية.

قالت عثات الشمع: "لا تقلقن يا عزيزاتي".هذا هو عملنا. انظرن إلى الأعلى وسترين فجر يوم جديد."

اخترق النور أعلى الخلية كما تنبأت الملكة: نور صريح فوق النحلات الهائجات المتحيرّات. جمعت ساكاريسا شتات حرس المؤخرة اللواتي هبطن عن الإطار مباشرة، وانضممن إلى حارسات الملكة اللواتي كن يندفعن نحو البوابة. كان الذعر قد انتشر الآن، وكانت كل نحلة سليمة قد وجدت نفسها محاطة بثلاث نحلات شاذات على الأقل. الغريزة الأولى للنحلة الخائفة تدفعها إلى اختراق المخزن والتهام ما تستطيعه من العسل، ولكن لم تكن هناك مخازن، لذلك تقاتلت النحلات الشاذات مع السليمات.

"عليكن أن تطعمننا أو نموت!" صحن وهن يتمسكن ويتشبثن وينزلقن، بينما كانت دويبات أبو مقص الصامتة الخائفة والعناكب الصغيرة تزحف ملتوية بين أرجلها. "فكرن بالخلية أيتها الخائفات!الخلية المقدسة!".

صاحت النحلات السليمات: كان عليكن أن تفكرن بها من قبل! ابقين لترين فجر يومكن الجديد."

وصلن البوابة أخيراً عبر الأجساد الطرية للكثيرات ممن قدمن لهن العون.

"إلى الأمام!خارجاً!عالياً!"هدرت ميليسا في أذن الأميرة. "لأجل الخلية! إلى السنديانة العتيقة!"

غادرت الأميرة لوح الحطّ، فدارت مرة واحدة، ورمت بنفسها على أدنى غصن من "السنديانة العتيقة"، وتبعها الحشد الصغير المخلص-

تستطيع أن تغطيه بكوب واحد سعة ثمن غالون- فتعلق بالغصن.

شهقت ميليسا: "ابقين متماسكات! لقد تحققت الأساطير القديمة!انظرن!"

كانت الخلية نصف مختفية تحت الدخان، وكانت هناك أشكال تتحرك عبر الدخان. سمعن إطاراً ينصدع بلزوجة ورأينه وهو يطير عالياً ويقذف بين يدين ضخمتين - رعب ملطخ ومنتفخ ومفسد من الشمع الرمادي والمفقسة الخربة وحجيرات الذكور الصغيرة، وكلها مغطاة بالشاذات الزاحفات المستغربات من وجود الشمس.

"عجباً، هذه ليست خلية نحل! هذا متحف للعجائب"، قال الصوت وراء الحجاب. كان ذاك هو صاحب المنحلة يكلم ابنه.

قال صوت ثان: "هل تستطيع أن تلومهن يا أبي. الخلية أفسدتها عثة الشمع. انظر هنا!"

صعد إطار آخر عالياً. اقتحمه أصبع فانهار متحولاً إلى رقاقات من العفن الرمادي.

"الإطار رقم أربعة! كان هذا قرص أمك المفضل ذات مرة"، همست ميليسا للأميرة. "كثيرة هي البيوض الجيدة التي راقبتها توضع هنا."

"ألست تخلط المغالطة المنطقية بالمغالطة غير المنطقية ؟" قال صاحب المنحلة. "لا تنجح عثة الشمع إلا حين تسمح لها النحلات الضعيفات بالدخول." فرقع إطار ثالث وبرز إلى النور. "كل هذا عبارة عن فقس لعاملات وضعن بيضاً. وهذا لا يحدث قط حتى يكون النسل الأصلي قد انتابه الوهن، تفو!"

ضربه على ركبته مثل دف صغير وقد تفتت أيضاً.

ارتجف الحشد المحلق الصغير وهو يراقب يرقانات الذكور القزمة تتلوى فوق العشب. كان كثير من النحلات السليمات قد رعى ذلك الإطار، وهن يعرفن جيداً أن عملهن كان دون طائل. ولكن الرؤية الفعلية للعمل غير المجدي وقد أضحى خراباً يثبط من همة العامل النشيط.

قالت الصوت الثاني: "لا، لاتزال لديهن بقية من قوة العافية. هاهي خلية ملكة!"

"ولكنها مخبأة بين... ما الذي جرى للبائسات الصغيرات؟ رفع الأب الإطار حيث كانت النحلات قد جربن صنع حجيرات مستديرة. بدا أشبه بالرأس المثقب لفطر من نوع الغاريقون أصابه التفسّخ.

"ليس تماماً "، صححّ له الابن. "هناك خط واحد على الأقل من الحجيرات الجيدة على نحو كامل."

قالت سكاريسا: "هذا عملي. أنا سعيدة لأن الإنسان قد أنصفني أمام..."

وهذا الإطار أيضاً رمي به فوق الإطارات الأخرى والأغطية القذرة لدويبات أبي مقص.

وحين راح إطار يتلو الإطار، راقب الحشد المحلق من النحلات رفع وكشف ودمار كل ما كان قد صنع على نحو جيد أو رديء في كل شق من منذ أجيال عدة. كان هناك قرص أسود عتيق جداً حتى أنهن نسين أين كان معلقاً. كان قرص تخزين برتقالي اللون مصبوغاً وملمعاً بالمغرة ، قد بُنى كما اعتاد النحل أن يبني قبل أيام الأساسات الاصطناعية. وكان هناك عمل صغير أبيض هش وجديد. كانت هناك صفائح فوق صفائح من أقراص التفقيس المستوية التي حملت في زمانها آلافاً لا تعدّ من

العاملات مجهولات الاسم، وبقعاً من قرص الذكور الذي بطل طرازه، عريض وله أكتاف عالية، مما يظهر العلامات المتوقع من الذكر الصغير الوصول إليها في نموه، وفيه ما سماكته بوصتان من مخازن العسل الفارغة إنما التي لا تزال رائعة. وكلها ألصقت وصمّغت ضمن عمل دقيق مجدول منحرف فوق الأسلاك، أنصاف حجيرات، بدايات متخلى عنها، أو حجيرات فخمة مركبة ذات جدران ضعيفة بنيت من النفايات وغطيت بالقاذورات.

وسواء كانت صالحة أو رديئة، فقد كانت كل بوصة منه مثقبة بأنفاق عثة الشمع حتى أنه تهاوى إلى غيمة من الغبار حين رمي فوق الكومة.

قالت سكاريسا: "أترون! إنه الحريق الكبير الذي تنبأت به ملكتنا، من يستطيع تحمل النظر؟"

زحف لهيب صعوداً في الكومة من النفايات وشممن رائحة الشمع المحترق.

انحنى الشكلان ورفعا خلية النحل وهزّاها وقد قلب عاليها سافلها فوق النار. وقد انزلق منها شلال من النحلات الشاذات وفتات من قرص مكسور وقشور وزغب وديدان، وقد طقطقت وأزّت وتقافزت قليلاً، ثم هدرت النيران واستهلكت كل الوقود.

قال صوت: "علينا أن نطهّر. أحضر شمعة كبريت من فضلك."

أعيد هيكل خلية النحل إلى مكانه، ووضع نور في فراغها الدبق، وراح الشكلان يبنيانها طبقة طبقة، وأغلقا المدخل ومضيا بعيداً. راقب الحشد الطائر النور يتسرب عبر الشقوق طوال الليلة الطويلة. وعند

الفجر اقتربت عثة شمع واحدة مهتاجة بوقاحة.

"لقد حدث سوء حساب فيما يخص ((اليوم الجديد)) يا عزيزاتي، لا يمكن للمرء أن يتوقع من الناس أن يكونوا كاملين على الفور. كان ذلك خطأنا."

قالت الأميرة: "كلا، كان الخطأ كله خطأنا نحن."

قالت عثة الشمع: "عفواً. حين تفكرن بالاضطراب العظيم- سواء كان جيداً أو رديئاً- الذي حصل بتأثير منا، سيكون عليكن أن تعترفن بأننا... ولوحدنا ..."

قالت الأميرة: "أنت؟ إن نسلنا لم يكن قوياً. لذلك وصلت أنت... كما قد يصل أي مرض. تعلقن متماسكات يا نحلاتي."

حين بزغت الشمس، وصلت أشكال تضع حجباً وشاهدت حشدهن المحلق عند طرف الغصن ينتظر نافذ الصبر قرب خلية النحل القديمة... كن حفنة صغيرة إنما مستعدة للاستمرار بالعمل.

ثعالب صغيرة

"حكاية حملة صيد جيحون"

(١٩٠٩)

خرج ثعلب من وكره على ضفاف نهر جيحون الذي يسقي إثيوبيا.
رأى رجلاً أبيض يمتطي حصانه عبر سيقان الذرة(*) ، وحتى يتحقق مصيره المقدر له فقد نبح عليه.

توقف الراكب بين القرويين المتحلقين حول ركابه.

قال: "ما ذاك؟"

قال شيخ القرية: "ذلك ثعلب. يا صاحب السعادة، مديرنا."

"أليس ابن آوى (جقلاً) إذن؟ "

ليس ابن آوى بل هو "أبو الحصين"(*)، "أبو المكر".

قال الرجل الأبيض بصوت نصف مرتفع: "وأنا أيضاً مدير الإقليم".

صاحوا: "هذا صحيح.يا سعادة المدير.(*)"

كان نهر جيحون الكبير المعتاد جيداً على أمزجة الملوك، ينزلق بين ضفتين تبعد الواحدة ميلاً كاملاً عن الأخرى باتجاه البحر، بينما راح "المدير" يحمد الرب بصوت مرتفع ثاقب لم يسبق أن سمعه النهر من قبل.

وحين كان قد أخفض سبابته اليمنى خلف إذنه اليمنى، تحدث القرويون إليه عن محاصيلهم... الشعير والذرة والدخن والبصل وما شابه. نهض المدير في الركاب. نظر شمالاً نحو شريط من المزروعات

(*) كل الكلمات المشار إليها على هذا النحو وردت في الأصل باللغة العربية المكتوبة بأحرف لاتينية (المترجم)

الخضراء بعرض مئات عدة من الياردات يقبع كسجادة بين النهر والخط الصحراوي الأسمر المصفّر. امتد ذلك الشريط مسافة ستين ميلاً أمامه ومثلها خلفه. وعند كل نصف ميل كانت ناعورة تئن وترفع الماء الطري من النهر إلى المحاصيل بواسطة قناة بنيت من الطين. كان عرض القناة قدماً أو نحوه. أما ضفتها فكانت بارتفاع خمسة أقدام أو تزيد، وكانت قاعدتها عريضة بالتناسب. كان "أبو الحصين" المسمى خطأً "أبا المكر"، قد شرب من النهر تحت وكره، وكان ظله طويلاً تحت الشمس الواطئة، لم يستطع أن يفهم الصرخة العالية التي صرخها المدير.

تحدث شيخ(*) القرية عن المحاصيل التي كان كل حكام البلدان يحصلون على ربع منها، ولكن عيني المدير كانتا قد ثبتتا من بين أذني حصانه على أقرب قناة مائية.

"أشبه بمصارف المياه في إرلندا"، همهم وابتسم وهو يحلم بضفة مشذبة كحد الموس في "كيلدار".

وإذ تشجع الشيخ بتلك الابتسامة فقد تابع قائلاً: "حين تخفق المحاصيل من الضروري تخفيف الضرائب. عندها يكون الأمر صالحاً. يا سعادة مديرنا، لو إنك تأتي لترى فحسب محاصيلنا التي أخفقت، لتعرف أننا لم نكذب."

"بكل تأكيد"، قال المدير وهو يقصّر عنانه فخبّ الحصان متابعاً سيره وصعد عند جسر القناة المائية ثم غيّر حركة قوائمه بمهارة فوق القمة، وقفز نازلاً مثيراً غيمة من الغبار الذهبي.

ومن وكره راقب "أبو الحصين" ما يجري باهتمام. لم يكن قد سبق له وشاهد مثل هذه الأمور.

"بكل تأكيد"، كرر المدير ثم عاد من الطريق التي جاء منها. "من الأفضل دائماً أن يرى المرء الأمور بنفسه."

وصلت باخرة قديمة لا زالت عجلة تغديفها مبقعة بآثار الرصاص ولها زورق مربوط إليها بسلسلة، من حول منحنى النهر. صفّرت لتبلغ المدير أن عشاءه كان جاهزاً، وصهل الحصان الذي رأى علفه مكوماً فوق الزورق.

أضاف الشيخ: "وعلاوة على ذلك، في ((أيام الظلم)) فإن الأمراء ومخلوقاتهم جردوا شعبي من أراضيه. على امتداد النهر صعوداً ونزولاً ينتظر الناس العودة إلى حقولهم الشرعية."

قال المدير: "عُين قضاة لتسوية هذه القضايا. سرعان ما سيأتون في بواخر ويستمعون إلى الشهود."

"لماذا؟ هل قتل القضاة الأمراء؟ نفضل بالأحرى أن يكون قضاتنا هم الرجال الذين نفذوا حكم الله على الأمراء. نفضل بالأحرى الالتزام بقراركم يا سعادة مديرنا."

أومأ المدير. لقد مر عام منذ أن رأى الأمراء وقد تمددوا من حول جلود الأغنام المخضبة باللون الأحمر هامدين حيث اضطجع المهدي، نبي الله. والآن لم يكن قد بقي أثر من هيمنتهم سوى الباخرة القديمة، التي كانت ذات مرة جزءاً من أسطول الدراويش الصغير، وكانت الآن منزله ومكتبه. انحرفت الباخرة نحو الشاطئ وأدلت بلوح خشبي وتبع المدير حصانه إلى متنها.

بقيت الأنوار مضاءة عليها حتى وقت متأخر من الليل، وراحت تنعكس باهتة على في النهر الذي راح يجذب حبال مرساتها. كان المدير

يقرأ، وليس للمرة الأولى، التقارير الإدارية التي أرسلها شخص يسمى جون جورروكس.

قال فجأة للمفتش: "سنكون في حاجة إلى عشرة أزواج تقريباً. وسأحصل عليها عندما أذهب إلى الوطن. ستكون حامل السياط يا بيكر."

أشار المفتش الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين إلى موافقته بالأسلوب المعتاد، بينما نبح "أبو الحصين" على القمر الصحراوي الكبير.

"هه!" قال المدير، وهو يخرج ببجامته. "ثلاثة أشهر وسنعطيك مدراً للبول يا صديقي."

* * *

مضت أربعة أشهر في الواقع قبل وصول باخرة تجر زورقاً محملاً بكلاب الصيد النابحة رست عند ذلك الرصيف. فقفز المفتش فيما بينها فاستقبلته الكلاب الجوالة التواقة إلى الوطن كأخ.

"لقد أطعمها الجميع على ظهر الباخرة، ولكنها في الواقع كلاب صيد نيّقة في قرارة نفوسها"، فسّر المدير. "اسم ذاك الذي تمسك به ((رويال)) – أفضل كلب في المجموعة – والكلبة التي تلتصق بك – إنها مستثارة قليلاً– اسمها ((ماي كوين)). إنها من سلالة مريمان من غوتسمور مودلين كما تعرف."

"أعرف. ((كلبة عجوز ضخمة لها حاجبان أسمران ضاربان إلى الصفرة))، هكذا هدل المفتش. أوه يا ((بن))! سأكون أكثر اكتراثاً بالحياة الآن. اسمعها! اسمعها!"

أما "أبو الحصين" تحت الضفة العالية، فتابع عمله الليلي. حمل تيار معاكس رائحته إلى الزورق، وسمعت ثلاث قرى الصخب الموسيقي الذي تلا ذلك. حتى ذلك الحين كان "أبو الحصين" لا يزال جاهلاً إلى حد أنه رد عليها بالنباح.

سأل المدير: "حسناً، وماذا عن إقليمي؟"

"ليس سيئاً إلى ذلك الحد"، أجاب المفتش ورأس رويال بين ركبتيه. "بالطبع كل القرى تريد تخفيضاً للضرائب، ولكن حسب ما أرى فإن البلد كلها مليئة بالثعالب النتنة. مشكلتنا ستكون في تعقبها في مخابئها. لدي لائحة بالقرى الوحيدة التي يحق لها التخفيض. ما اسم ذلك الكلب مسطح الجوانب المرقش بالأزرق ذي اللغد؟"

" ((بيغل بوي)). لدي شكوك حوله. هل تظن أننا نستطيع العمل يومين في الأسبوع؟"

"سهل. وبالعدد الذي تريده من الأمور الثانوية. إن شيخ هذه القرية هنا يقول لي إن شعيره لم ينبت، ويريد تخفيضاً قدره خمسون بالمائة."

قال المدير: "سنبدأ به غداً، وننظر إلى محاصيله في طريقنا. لاشيء كالإشراف الشخصي."

انطلقنا عند الفجر. انطلق فريق الكلاب مسرعاً من الزورق في كل اتجاه، وبعد الوثبات، راحت الكلاب تحفر مثل كلاب الصيد الصغيرة في أوكار "أبي الحصين" العديدة. ثم شربت حتى امتلأت بطونها من نهر جيحون بينما كان المدير والمفتش يعاقبانها بالسوط. أضيفت العقارب، فقد تشممت "ماي كوين" عقرباً وكان أن أخذت إلى الزورق وهي تنوح. أما "ميستري" (وهو جرو ياللأسف!) فقابل حية، وكان أن أكل "بيغل

بوي" ذو النقاط الزرقاء (لم يكن كلباً نيقاً قط) ما كان عليه أن يمر بها دون أن يلمسها. أما "رويال" ذو الرأس الأصفر "البلفوار" والعينين الحزينتين الذكيتين، فقد حاول أن يتمسك بشرف انكلترا أمام عيون القرية المترصدة.

قال المدير بعد الإفطار: "لا تستطيع توقع كل شيء."

قال المفتش: "لدينا على أي حال كل شيء عدا الشعالب. هل شاهدت أنف ماي كوين؟"

"كمامات ميستري. سنبقيها مربوطة في المرة التالية حتى نصل إلى ما بين المحاصيل. أقول، ياله من خاطف جثث أحمق بيغل بوي ذاك! يجب أن يغرق!"

"إنهم يغرقون الناس كأمر عادي في هذه الأرجاء.امنحه فرصة أخرى"، توسل المفتش وهو لا يعرف أنه سيعيش ليندم أشد الندم.

قال المدير: "طالما ذكرت الفرص، فإن هذا الشيخ يكذب حول أن شعيره لم ينبت. فلو كان عالياً بما فيه الكفاية ليخفي كلباً في هذا الوقت من العام، إذن فهو في حال جيدة. وهو يريد تخفيضاً بنسبة خمسين بالمائة كما تقول."

"لم تمر بحقل البطيخ حيث حاولت أن أفلت ((ووندرر)). لقد احترق كله من هناك وحتى الصحراء. أما ناعورته الأخرى فقد تحطمت أيضاً"، أجاب المفتش.

"جيد جداً. سنقسم الفرق ونسمح له بتخفيض قدره خمسة وعشرين بالمائة. أين سنتقابل غداً؟"

"هناك بعض المشاكل بين القرويين في أسفل مجرى النهر حول ملكية الأراضي. إنه لأمر جيد الذهاب إلى هناك أيضاً." قال المفتش.

جرى اللقاء التالي إذن على بعد عشرين ميلاً باتجاه أسفل مجرى النهر، ولم يطلق سراح فريق الكلاب حتى أصبحت بين الحقول. انتهت أربع عمليات صيد مهتاجة كل واحدة من أربع دقائق - أربع كلاب لكل ثعلب - في أربعة أوكار فوق النهر مباشرة. كانت القرية كلها تتفرج.

"لقد نسينا أمر الأوكار. الضفاف محفورة كلها بالأوكار. وفي هذا ستكون هزيمتنا"،" قال المفتش.

"انتظر لحظة!" سحب المدير كلب صيد يعطس. "لقد تذكرت للتو أني مدير هذه الأرجاء."

"إذن فلترسل كتيبة سوداء تنتظرنا، سنحتاج إليها أيها الصديق."

استقام المدير في جلسته ثم صاح: "أصغوا أيها الناس! لقد أصدرت قانوناً جديداً !"

اقترب القرويون. صاح:

"من الآن فصاعداً سأمنح دولاراً للرجل الذي يوجد أبو حصين في أرضه. ودولاراً آخر" - رفع قطعة النقود - "للرجل الذي تقتل هذه الكلاب أبو حصين على أرضه. ولكن الرجل الذي يهرب فوق أرضه أبو حصين ويختبئ في وكره، لن ينال مني دولارات بل ضرباً لا حد له. هل هذا مفهوم؟"

"يا صاحب سعادتنا" - تقدم رجل نحو الأمام- "على أرضي وجد أبو حصين هذا الصباح. أليس الأمر كذلك أيها الأخوة؟"

لم ينكر أحد ذلك. رمى المدير أربعة دولارات إليه دون أن ينبس بكلمة واحدة.

صرخ آخر: "في أرضي ركضت جميعاً إلى أوكارها. لذلك يجب أن أُضرب."

"ليس الأمر كذلك. الأرض أرضي، والضرب ضربي."

تقدم المتكلم الثاني وقد سبق له وعرى كتفيه وصاح القرويون.

قال المدير: "مرحبا! شخصان تواقان إلى الضرب؟ لا شك بوجود غش يتعلق بالأرض." ثم أكمل باللهجة المحلية: "ما هي حقوقك في الضرب؟"

وكما يتغير لسان النهر تحت انحدار الشمس، فإن ما كان حشداً متفرقاً تحوّل إلى محكمة لها أقدم نظام قضائي. راحت الكلاب تهاجم وتنشج على مصطلى أبي الحصين، دون أن يلحظها أحد بين سيقان الشهود، وجيحون، المعتاد أيضاً على القوانين، راح يهرّ موافقاً.

"ألن تنتظروا حتى يصل القضاة صاعدين النهر لتسوية النزاع؟" قال المدير أخيراً.

"كلا!" صرخت القرية كلها عدا الرجل الذي طلب أولاً أن يضرب. "سنلتزم بقرارصاحب سعادتنا. فليطرد صاحب سعادتنا مخلوقات الأمراء الذين سرقوا أرضنا في أيام الظلم."

التفت المدير إلى الرجل الذي طلب أن يضرب أولاً : "وما تقول أنت؟"

"أقول إني سأنتظر حتى يصل القضاة الحكماء بالباخرة. عندها سأحضر شهودي الكثيرين."

قال شيخ القرية: "إنه غني. سيحضر الكثير من الشهود."

"لا داع لذلك. من فمك أدينك!" صرخ المدير. "لا ينتظر شخص يملك أرضه شرعاً ساعة واحدة قبل دخولها. قف جانباً!" تراجع الرجل وسخرت القرية منه.

أما المدعي الثاني فانحنى بسرعة تحت محصول الصيد المحصود.
ابتهجت القرية.

قال المدير وقد حثه الشيخ: " يا له من فلان ابن فلان. عليك منذ يوم إرسال الأمر بأن تسد كل الأوكار التي يمكن لأبي الحصين أن يختبئ فيها على أرضك!"

انتهت الضربات الخفيفة. نهض الرجل منتصراً، وبذلك الوسام أقرت الحكومة العليا حقوقه أمام كل الناس.

وبينما راحت القرية تثني على حدة ذهن المدير، اقترب طفل عار مجدور الوجه من الوكر ووقف على رجل واحدة دون اهتمام كأنه كركي صغير.

قال: "هه!" وهو يضع يديه خلف ظهره. "يحتاج هذا إلى أن يسد برزم من سيقان الذرة... أو برزم من الشوك وهذا أفضل."

قال المدير: "الشوك أفضل، على أن تكون النهايات الغليظة نحو الداخل."

أومأ الطفل بجدية وأقعى على الرمل.

"يوم رديء لك يا أبو الحصين"، هكذا صرخ في فم الوكر. "يوم العوائق لعوداتك الفاضحة في الصباح!"

"من هذا؟" سأل المدير الشيخ. "إنه يفكر".

"هذا ((فرج اليتيم)). لقد ذبح أهله في ((أيام الظلم)). الرجل الذي منحه صاحب سعادتنا الأرض هو خاله."

قال المدير: "هل يأتي معي ليطعم الكلاب الكبيرة؟"

انسحب الأطفال المحدقين الآخرون. صرخوا: "اركض. سيطعم

صاحب سعادتنا الكلاب الكبيرة فرجاً."

قال فرج: "سأحضر. ولن أذهب قط." رمى بذراعه من حول عنق ((رويال))، ولعق الحيوان الحكيم وجهه.

صرخ المفتش: "بنيامين وحق جوبيترا"

قال المدير: "لا! أعتقد أن لديه مؤهلات ((جيمز بيغ))!"

لوح فرج بيده إلى خاله وقاد رويال إلى الزورق. لحقت بهما بقية فرقة الكلاب.

* * *

كان جيحون الذي شهد الكثير من أنواع الرياضة يعرف زورق الصيد جيداً. لقد قابله وهو يلتف في منحنياته في صباحات أيام كانون الأول (ديسمبر) الرمادية على وقع موسيقى عنيفة ومؤسفة شأن الخفقان المنسي تقريباً لطبول الدراويش، حين راح فرج ينشد عن الحرب الخالدة ضد أبو الحصين وكل نسله بصوت يعلو صوت جرس رويال "التينور" وأكثر حدة من "فولستو" بيغل بوي. عند شروق الشمس كان النهر يدفع بالزورق إلى مكانه ويصغي إلى اندفاع وعدو فريق الكلاب وهو ينطلق من فوق المعبر الخشبي ووقع حوافر حصان المدير العربي من خلف الكلاب. كانوا سيمرون فوق حافة المنحدر نحو المحاصيل الخالية من الندى، حيث كان نهر جيحون، المنخفض والمنكمش، لا يستطيع سوى أن يخمن تخميناً ما كانوا يفعلونه حين طار أبو الحصين هابطاً الضفة لينكش وكراً مسدوداً، ثم عاد ليطير عائداً نحو الشعير مجدداً. وكما تنبأ فرج، فقد كانت تلك أياماً رديئة لأبي الحصين قبل أن يتعلم اتخاذ

الإجراءات الضرورية والهرب بخفة. أحياناً كان جيحون يرى كامل موكب الصيد وقد ارتسم ظله على زرقة الصباح، وراح يرافقه على امتداد أميال كثيرة. بعد كل نصف ميل كانت الجياد والحمير تقفز فوق القنوات المائية... صعوداً، استمراراً، بدل ساقك، وانطلق مجدداً... مثل الأشكال في جهاز الزويتروب، حتى يبدو الموكب صغيراً على امتداد خط النواعير. ثم كان جيحون ينتظر عودتهم المخشخشة عبر المحاصيل، فيرتاحون على صدره في الساعة العاشرة. وبينما تتناول الجياد علفها، وينام فرج ورأسه على خاصرة رويال، كان المدير والمفتش يعملان لصالح "حملة الصيد" و"إقليمه".

بعد فترة قصيرة لم تعد هناك حاجة لضرب أي رجل لإهماله أوكاره. كانت وجهة الباخرة تبلغ برقياً من ناعورة إلى أخرى، وكان القرويون يتصرفون حسب ذلك. لو تم تجاهل وكر ما، فهذا يعني وجود نزاع ما حول ملكية الأرض، وعندها كانت "حملة الصيد" تدقق في الأمر وتسويه على هذا النحو: يقف المدير والمفتش جنباً إلى جنب، ولكن المفتش يتأخر عنه بطول نصف حصان. ويكون المدعيان بملكية الأرض قد عرّيا أكتافهما في المقدمة. يتحلق القرويون في نصف دائرة خلفهما، وكذلك فرج مع فريق الكلاب، الذي فهم تماماً التمثيلية، فكان يجلس إلى اليسار. كانت عشرين دقيقة كافية لتسوية أكثر القضايا تعقيداً، فكما قال المدير إلى قاض حقيقي فوق متن الباخرة: "يحصل المرء على واقعة في حقل الصيد على نحو أسرع بكثير مما يحدث في محاكمكم."

"ولكن ماذا تفعل حين يكون الدليل متضارباً؟" سأل القاضي مقترحاً.

"أراقب الحقل. سينطقون بسرعة كافية إذا كنت ترسل الرائحة الخطأ. لم يسبق لك أن استلمت استئنافاً على واحد من قراراتي بعد."

الشيوخ فوق الجياد - الأشخاص الأدنى منزلة فوق حمير رشيقة - الأطفال الذين يحتقرهم فرج إلى حد كبير- سرعان ما فهموا أن القرى التي أصلحت نواعيرها وقنواتها كانت تحظى برضا المدير. كان يشتري شعيرهم لأجل جياده.

قال: "القنوات ضرورية حتى نقفز فوقها. إنها ضرورية علاوة على ذلك لأجل المحاصيل. فليكن هناك الكثير من النواعير والقنوات السليمة... والكثير من الشعير الجيد."

"بدون نقود" أجاب الشيخ العجوز "لا يمكن أن تكون هناك نواعير."

قال المدير: "سأقرض النقود."

"كم هي الفائدة يا صاحب سعادتنا؟"

"خذ جروين من جراء ماي كوين لتربيهما في قريتك بأسلوب يستطيعان معه ألاّ يأكلا القاذورات ولا يفقدا شعرهما ولا يصابا بالحمى من المكوث في الشمس، وعلى أن يصبحا كلبين حكيمين."

"مثل ((راي... يال))...وليس مثل ((بيغلباي؟)) " (سبق وأصبحت مقارنة رجل مع الكلب المخادع ذي البقع الزرقاء آكل لحم البشر سبة على امتداد النهر).

"بكل تأكيد مثل ((راي ... يال)) ... وليس إطلاقاً مثل ((بيغلباي)). ستكون هذه هي الفائدة على القرض. دعوا الجراء تزدهر والنواعير تبنى وسأكون راضياً"، قال المدير.

"ستبنى الناعورة، ولكن يا صاحب سعادتنا، لو حصل بعون الله

وكبرت الجراء وأصبحت ذات أنوف جيدة ولم تكن من أكلة القاذورات ولا غير معتادة على اسمها، ولا مخالفة للقانون، فمن سيحكم بالعدل عليها وعليّ لدى الحكم على الكلاب الشابة؟"

"كلاب الصيد حين يتم الحكم عليها في الشاهو. لدي أعداء في أسفل مجرى النهر وقد ائتمن <<سعادتنا>> كلاب صيد لديهم لتربيتها."

"جراء يا رجل! جراء، هكذا نسميها أيها الشيخ،وهي صغيرة بعد."

"جراء. أعدائي قد يحكمون على جرائي ظلماً في ((الشاهو)). هذا أمر يجب أن يؤخذ في الحسبان."

"أرى العائق. اسمعني الآن. إذا كانت الناعورة تبنى في شهر دون ظلم، فأنت أيها الشيخ ستعين كأحد القضاة الذين سيحكمون على الجراء في الشاهو. هل هذا مفهوم؟"

"مفهوم. ستبنى الناعورة. أنا ونسلي مسؤولون عن تسديد القرض. أين جرائي؟ إن كانت تأكل الطيور، فهل عليها أن تأكل الريش بأي حال من الأحوال؟"

"ليس عليها أن تأكل الريش بأي حال من الأحوال. فرج في الزورق سيحكي لك كيف لتعيش."

ليس هناك مثال واحد على أي تقصير في قروض المدير الشخصية وغير المفوض بها وقد سموه من أجلها "أبا النواعير". ولكن كان أول عرض للجراء في العاصمة يحتاج إلى مهارة هائلة وحضور الكتيبة السوداء التي تتدرب بتباهٍ في ساحة الثكنة لمنع وقوع المشاكل بعد منح الجائزة.

ولكن من يستطيع أن يؤرخ لأمجاد حملة صيد جيحون...أو

عيوبها؟ من يتذكر القتل في السوق حين أمر المدير الشيوخ والمحاربين المجتمعين أن يلاحظوا كيف تلتهم الكلاب على الفور جثة أبي الحصين. ولكن كيف جرى حين قطّعها بأسلوب علمي أن نأت عنها الكلاب المرهقة كارهة، وبكى فرج لأنه قال إن وجه العالم قد اسود؟ أي رجال لم يمتطوا جيادهم بعد إلى ما وراء صوت أي بوق يتذكرون جري منتصف الليل ذاك الذي انتهى بين القبور بقيادة بيغل بوي، وضربات السوط السريع واليمين الذي حلف فوق العظام على نسيان القلق؟ ذلك الجري الصحراوي حين تخلى أبو الحصين عن الزرع وعدا ستة أميال إلى وكر في خور مهجور... وحين اجتاح راكبو جمال مسلحون غرباء وادياً، وبدلاً عن خوض معركة، عرضوا أن يأخذوا الكلاب المنهكة إلى بيوتهم فوق جمالهم. وقد فعلوا ذلك واختفوا.

وفوق ذلك كله، من يتذكر موت رويال حين بكى شيخ معين فوق جثة الكلب الخالية من البقع وكأنها جثة ابنه... وفي ذلك اليوم توقفت حملة الصيد؟ ولا يقول السجل، الذي لم يكن محفوظاً جيداً، الكثير عن هذا، ولكن في نهاية موسمهم الثاني (تسعة وأربعون زوجاً) يظهر بند داكن: "الدم الجديد مطلوب بشدة. لقد بدأت تصغي إلى بيغل بوي."

* * *

اهتم المفتش بالأمر حين آن أوان إجازته.

قال المدير: "تذكر. عليك أن تحصل لنا على أفضل نسل في إنكلترا - كلاب حقيقية نيّقة - والتكلفة لاتهم، ولكن لا تثق بحكمك الشخصي. قدّم رسائل التعريف الخاصة بي وخذ ما يعطونك.

قدم المفتش رسائله في جمعية تهتم كثيراً بالجياد وأكثر بالكلاب وأعضاؤها شديدو الرقة في التعامل مع الرجال القادرين على امتطاء الخيل. وقد تنقلوا به من مبنى إلى آخر، وأركبوه حسب مزاياه وأطعموه، بعد خمس سنوات قضاها على لحم الماعز المفروم وصلصلة وورسستر، وربما كانت هذه فكرة غنية جداً.

لا أهمية للمكان أو القلعة حيث قام بضربته الكبرى. فقد كان على المائدة أربعة من ملاك كلاب صيد الثعالب، وعندما ثمل بعض الشيء حكى لهم حكايات صيد جيحون. وأنهى كلامه قائلاً: "قال ((بن)) إنه ليس عليّ أن أثق بحكمي الشخصي فيما يخص كلاب الصيد، ولكن أعتقد بوجوب وجود تعرفة خاصة بصانعي الإمبراطورية."

ما أن استطاع مضيفوه الكلام حتى طمأنوه من هذه الناحية.

قال أحدهم: "والآن إحك لنا عن أول استعراض لجرائكم مرة أخرى."

قال آخر: "وماذا عن سد الأوكار، هل كان ذلك اختراع ((بن)) الخاص؟"

"انتظروا لحظة"، قال رجل ضخم الجثة حليق الوجه- ليس من ملاك كلاب صيد الثعالب - في نهاية المائدة: "هل يضرب قرويّوكم على نحو معتاد من قبل مديرك حين يفشلون في سد أوكار الثعالب؟"

كانت اللهجة والجملة كافيتين، حتى لو كان الرجل الضخم الأزرق ذو الذقن المزدوج لا يبدو مثل بيغل بوي إلى حد كبير. وقد أبدى غضبه لأجل شرف إثيوبيا.

"نحن لا نصيد إلا مرتين في الأسبوع... أحياناً ثلاث مرات. لم يسبق لي أن عرفت رجلاً عوقب أكثر من أربع مرات أسبوعياً - ما لم

يكن هناك مبرر."

رمى الرجل الضخم رخو الشفتين فوطته أرضاً ودار من حول المائدة وجلس على الكرسي المجاور للمفتش، ثم اتكأ نحو الأمام بحماسة، حتى أنه راح يتنفس في وجه المفتش.

قال: "يعاقب بماذا ؟"

"بالكرباج ...على قدميه. والكرباج هو سير من جلد فرس النهر القديم وله نوع من الذيل مثل الحد القاطع لناب الخنزير البري. ولكننا نستخدم الجانب المستدير لمن يرتكب المخالفة للمرة الأولى."

"وهل لمثل هذه الأمور أي نتائج؟ أعني بالنسبة إلى الضحية... ليس بالنسبة إليكم؟"

"نادراً جداً. فلأكن منصفاً. لم يسبق لي أن شاهدت رجلاً يموت تحت السوط، ولكن قد يصاب بالغنغرينا إن كان الكرباج منقوعاً."

"منقوعاً في أي شيء؟"

كانت المائدة كلها صامتة ومهتمة.

قال المفتش: "في كبريتات الحديدوز طبعاً. ألا تعرف ذلك؟"

"الحمد لله أني لا أعرف"، لفظ الرجل الضخم رشاشاً واضحاً من اللعاب.

مسح المفتش وجهه وأصبح أكثر جرأة.

"ليس عليك أن تفكر في أننا نهمل أولئك الذين يسدون لنا الأوكار. لدينا صندوق صيد خاص لأجل شراء القار الحار. وهو ضماد رائع إن لم تكن أظافر القدم قد اقتلعت بالسياط. ولكننا نمارس الصيد في بلد واسع، لذلك فقد يمر شهر كامل قبل أن نعود إلى قرية ما، وإذا

لم يتجدّد الضماد وبدأت الغنغرينا تفعل فعلها، فغالباً ما تجد الرجل وهو يمشي على جدعتين. ولدينا اسم محلي لهؤلاء هناك عند النهر. نسميهم "كراكي المدير". وكما ترى فقد أقنعت المدير أن يجلدهم على قدم واحدة فقط."

"على قدم واحدة؟ كراكي المدير!" احمر وجه الرجل الضخم حتى أعلى رأسه الصلعاء."هل لك أن تذكر لي الكلمة المقابلة باللهجة المحلية لـ((كراكي المدير))؟"

ومن ذاكرة مخزنة جيداً سحب المفتش كلمة دبقة تدهش بحد ذاتها حتى إثيوبيا التي لا يتضرج وجهها. وقد تهجأ بالكلمة ورأى الرجل الضخم يكتبها على طرف كمه وينسحب. ثم ترجم المفتش القليل من معانيها ومضامينها للملاك الأربعة لكلاب صيد الثعالب. غادر بعد ثلاثة أيام ومعه ثمانية أزواج من أفضل كلاب الصيد في إنكلترا: هدية مجانية وودية وملائمة من أربعة فرق إلى حملة صيد جيحون. كان ينوي بصدق ألاّ يخدع الرجل المبقع بالأزرق، ولكنه نسي ذلك نوعاً ما.

كانت المجموعة الجديدة علامة على فصل جديد في تاريخ "حملة الصيد". ومن ظاهرة منعزلة في زورق أصبحت مؤسسة دائمة لها أوجارها المبنية من الآجر على الشاطئ، وتأثير اجتماعي وسياسي وإداري وذو حدود مشتركة مع حدود "الأقاليم". غادر"بن" - المدير- إلى إنكلترا حيث كان يحتفظ بفريق من كلاب الصيد الأصليين النّيقين، ولكنه لم يتوقف عن التوق إلى تلك القديمة اللاشرعية. وقد أضحى خلفاؤه بحكم المنصب "أسياد حملة صيد جيحون"، حيث أضحى كل المفتشين "سوّاطين". أحد الأسباب كان أن فرج، المسؤول عن وجار

الكلاب، والمرتدي للملابس الخاكي ولفافات الساق، لا يطيع أوامر أي شخص أقل من "صاحب سعادة"، ولم تكن الكلاب تطيع سوى فرج. وكان السبب الآخر فإن أفضل طريقة لتقدير عائدات المحصول والدخل كان الركوب مباشرة مع الكلاب. وكان السبب الثالث، رغم أن القضاة في أسفل مجرى النهار أصدروا صكوك ملكية موقعة ومختومة لكل الملاّك الشرعيين، أن الرأي العام على امتداد النهر لم يكن يعتبر هذه الصكوك صحيحة حتى يتم تثبيتها وفقاً للسابقة، من قبل محصول صيد المدير في حقل الصيد، فوق الوكر المهمل من عمد. صحيح أن الاحتفال كان قد اختصر إلى ثلاث نقرات على الكتف، ولكن المدراء الذين حاولوا تجنب هذا وجدوا أنفسهم ومنصبهم محاطين بسحابة كبيرة من الشهود الذين أنفقوا الكثير من الوقت على القضايا القانونية وأهملوا بالتالي- وهذا أمر أسوأ ايضاً - الجراء. وقد أيد الشيوخ الأكبر سناً بانفعال الجلد القديم الشديد الذي كان معروفاً في الأيام السالفة - فكلما كانت العقوبة أشدّ - كما جادلوا - كلما كان حق الملكية مضموناً أكثر. ولكن يد التقدم الحديث كانت ضدهم في هذا، وقد أقنعوا أنفسهم بقص الحكايات عن "بن" أول المدراء، الذي كانوا يسمونه "أبا النواعير"، وعن ذلك العصر البطولي حين كان الناس والجياد وكلاب الصيد يستحقون أن يتبعوا.

هذا "التقدم العصري" نفسه الذي أحضر بسكويت الكلاب وصنابير المياه النحاسية إلى وجارات الكلاب كان يفعل فعله في كل أنحاء العالم. لقد برزت "قوى" و"نشاطات" و"حركات" إلى الوجود، وقد حثت هذه نفسها واتحدت، وثم انطلقت بانهيار سياسي واحد وطغت على

إنكلترا المتحيرة إنما التي لم تكن تنوي ذلك إطلاقاً. إن صدى "العهد الجديد" قد حملت إلى "الإقليم" على أجنحة الكابلات غير المفسرة. قرأت جماعة "حملة صيد جيحون" الخطب والمشاعر والسياسات التي كانت تذهلهم وقد حمدوا الله، قبل الأوان، على أن إقليمهم كان بعيداً جداً وحاراً جداً وصعب الوصول إليه جداً عن قبل أولئك الخطباء أو سياساتهم. ولكنهم أساؤوا - مع آخرين - تقدير مدى "العهد الجديد" وغرضه.

وواحداً في إثر الآخر راحت "أقاليم الامبراطورية" تُجذَب وتُهاجَم وتُعَض وتحبس وتساط تحت البطن، وتجبر على الإقعاء وذلك لتسلية أسيادها الجدد في أبرشية ويستمنستر.[1] وواحداً إثر واحد تهاوت وهي متألمة وغاضبة، وراحت تقارن جلدات السوط بين شخص وآخر في أطرف هذا العالم القلق. ومع ذلك فإن "حملة صيد جيحون"، مثل أبي الحصين في الأيام القديمة، لم تفهم. ثم وصلهم عبر الصحافة أنهم كانوا يجلدون باستمرار حتى الموت مزارعين طيبين من دافعي الدخل. كانوا يهملون سد الأوكار. إلا أن القلة، القلة القليلة التي لم تمت تحت سياط جلد فرس النهر المنقوعة في كبريتات الحديدوز كانت تمشي على عظام كواحلها لمصابة بالغنغرينا وكانت تسمى بنوع من السخرية "كراكي المدير". وقد أثبت التهم في مجلس العموم السيد ليثابي غرومبرايد الذي شكّل لجنة، وكان يوزع المنشورات. تأوه "الإقليم"، وصفّر المفتش الذي أصبح الآن مفتشاً على المفتشين. لقد نسي الرجل الذي كان ينشر اللعاب في وجوه الناس.

---

(١) ويستمنستر :مبنى البرلمان البريطاني . (المترجم)

"ما كان عليه أن يبدو شبيهاً ببيغل بوي إلى ذلك الحد!" كان دفاعه الوحيد حين قابل المدير على طعام الإفطار فوق متن الباخرة بعد اجتماع.

"ما كان عليك أن تمزح مع حيوان من تلك الطبقة"، قال المدير بيتر. "انظر ما الذي جلبه فرج إليّ!"

كانت نشرة موقعة نيابة عن لجنة من قبل الأمينة العامة لها، ولكن ألفها شخص كان يفهم جيداً لغة "الإقليم". وبعد أن تروي النشرة حكاية عمليات الجلد، فقد أوصت كل المجلودين أن يلاحقوا مديرهم قضائياً لدى المحكمة الجنائية وأن يتمردوا بأسرع وقت ممكن ضد الظلم والاستبداد البريطانيين. ومثل هذه الوثائق كانت جديدة في إثيوبيا في تلك الأيام.

قرأ المفتش آخر نصف صفحة. "ولكن...ولكن"، تلعثم. "هذا مستحيل. لا يكتب الرجال البيض مثل هذا الكلام."

"ألا يفعلون ذلك؟ "قال المدير. "لقد جعلوا وزراء يقومون به أيضاً. لقد ذهبت إلى الوطن في العام الماضي. أعرف."

قال المفتش بضعف: "سرعان ما سينسى الأمر."

"كلا. غرومبرايد قادم إلى هنا للتحقيق في الأمر خلال أيام قليلة."

"بنفسه؟"

"والحكومة الإمبراطورية من ورائه. ربما تود أن ترى أوامري." وضع المدير برقية غير مرمزة أمامه. وكانت نهايتها تقول: "ستقدم للسيد غرومبرايد كل التسهيلات المتعلقة بتحقيقاته وسوف تعتبر مسؤولاً عن عدم وجود عراقيل توضع في طريقه ليقوم بأفضل استجواب ممكن للشهود الذين يعتبر الاستماع إليهم ضرورياً. وسوف يرافقه مترجمه

الخاص الذي لا يجب أن يتعرض لأي محاولة للتأثير عليه."

قال المدير بيتر: "هذا موجّه إلي...أنا مدير الإقليم."

أجاب المفتش: "يبدو الأمر وشيكاً بما فيه الكفاية."

دخل فرج، المسؤول عن الوجار إلى الصالون، وكانت تلك إحدى المزايا الذي يتمتع بها.

قال: "عمي الذي ضربه أبو النواعير يريد الاقتراب يا صاحب السعادة، وهناك آخرون على الضفة."

قال المدير: "فليدخل".

عندها صعد إلى متن الباخرة شيوخ وقرويون بلغ عددهم سبعة عشر. وكان في يد كل رجل منهم نسخة من النشرة. وفي عيني كل رجل كان الرعب والقلق من النوع الذي ينفق المدراء الكثير لإزالته أو يخسرون وظيفتهم بسببه. تكلم عم فرج، وهو شيخ القرية الآن: "لقد كتب في هذا الكتاب، يا صاحب السعادة، أن عمليات الجلد التي بموجبها نمتلك أراضينا هي جميعها غير ذات قيمة. كما كتب أن كل رجل تلقى مثل ذلك الجلد من أبي النواعير الذي ذبح الأمراء يجب أن يبدأ على الفور برفع قضية، لأن هذا الحق في ملكية الأرض غير صالح."

"هذا ما هو مكتوب هنا. ونحن لا نريد قضايا. نريد أن نتمسك بأراضينا كما منحت لنا بعد أيام الظلم"، هكذا صرخوا معاً.

نظر المدير إلى المفتش. كان هذا أمراً جدياً. إن الشك في ملكية الأرض تعني في إثيوبيا السماح للمياه بالاندفاع وإخراج الجنود.

قال المدير: "حقوقكم في الملكية شرعية." وقد أكد المفتش على كلامه بإيماءة من رأسه.

"إذن فما معنى هذه الكتابات التي وصلت من أسفل مجرى النهر حيث يقيم القضاة؟" لوّح عم فرج بنسخته. "بأمر من أمرنا بأن نذبحك يا صاحب سعادة مديرنا."

"ليس مكتوباً أن عليك ذبحي."

"ليس ذلك مكتوباً بهذه الكلمات نفسها، ولكن لو تركنا وكراً دون سد، فالأمر هو نفسه وكأننا نريد إنقاذ أبو الحصين من الكلاب. هذه الكتابات تقول: ((تخلصوا من حكامكم.)) كيف سنتخلص منهم دون قتل؟ نسمع إشاعات عن شخص سيأتي من أسفل مجرى النهر قريباً ليقودنا إلى القتل."

"حمقى!" قال المدير. "حقوقكم في الملكية شرعية. هذا جنون!"

أجابوا كمجموعة واحدة: "هذا ما هو مكتوب."

قال المفتش برقة: "اسمعوا. أعرف من سبّب في كتابة هذه الكتابات وإرسالها. إنه رجل ذو حنك مبقع باللون الأزرق، ويشبه بيغلباي الذي كان يأكل الأشياء القذرة. سيصعد مجرى النهر وسوف يتحدث عن عمليات الجلد."

"هل سيشكك في حقوقنا في أراضينا؟ سيكون يومه أسود!"

همس الحاكم: "خفف من لهجتك يا بيكر. سيقتلونه لو خافوا على أراضيهم."

"سأحكي حكاية." أشعل المفتش لفافة تبغ. قولوا من منكم تمشى مع جراء ميلكميد؟"

سأل فرج بسرعة:

"جراء ميلكميد من البطن الأول أم الثاني؟"

"الثاني... ذاك الذي أصابه العرج من الشوك"

"كلا...كلا. جراء ميلكميد من البطن الثاني التي أصيبت أكتافها بالتواء وهي تقفز فوق قناتي المائية."

صرخ أحد الشيوخ. "أما جراء ميلكميد من البطن الأول فقد عانت من العرج بسبب الأشواك في أول يوم حين وقع صاحب سعادتنا أرضاً ثلاث مرات."

"صحيح...صحيح. كان قرين ميلكميد الثاني هو مالفوليو كلب الصيد الأرقط"، قال المفتش.

قال عم فرج: "كان لديّ اثنان من جراء ميلكميد من البطن الثاني. وقد ماتا من السعار حين بلغا شهرهما التاسع."

قال المفتش: "وكيف تصرفا قبل أن يموتا؟"

"راحا يتسكعان في الشمس ويريلان حتى ماتا."

"لماذا؟"

"الله أعلم. هو الذي أرسل السعار. لم يكن الخطأ خطئي."

"لقد أجابك فمك." ضحك المفتش. "الأمر مع الناس كما هو مع الكلاب. يصيب الرب البعض بالسعار. ليس الخطأ خطأنا لو تسكع بعض هؤلاء الرجال في الشمس وراحوا يريلون. الرجل القادم سيرش اللعاب من فمه وهو يتكلم، وسوف يقترب من سامعيه ويحتك بهم. حين ترونه وتسمعونه ستفهمون أن الله ابتلاه: فهو مسعور. إنه بين يدي الرب."

"ولكن ماذا عن حقوقنا؟ هل حقوقنا في أراضينا شرعية؟" كرر الحشد.

"حقوقكم بين يديّ...إنها شرعية"، قال المدير.

"وذاك الذي كتب الكتابات ... ذاك الذي ابتلاه الله؟" قال عم فرج.

صرخ المدير: "هذا ما قاله المفتش. سترون حين يصل الرجل. أيها الشيوخ والرجال، هل ركبنا الجياد معاً ورافقنا الجراء معاً واشترينا وبعنا الشعير للجياد معاً حتى نقوم نحن، بعد كل هذه السنوات، بالتمرد إذا شممنا رائحة رجل مسعور... رجل ابتلاه الله؟"

"ولكن الصيد يدفع لنا لنقتل أولاد آوى المسعورين"، قال عم فرج.
"وذاك الذي سيطرح الشك في حقوقي في أرضي..."

"آه! احذروا الشغب!" فرقع المدير سوط صيده مثل مدفع من عيار ثلاثة أرطال. ثم هدر: "والله لو كان الذي ابتلاه الرب سيتعرض لأي أذى على أيديكم، فأنا بنفسي سأطلق النار على كل كلب وكل جرو، وسوف تتوقف حملة الصيد. ستقع المسؤولية على رؤوسكم. اذهبوا بسلام وليخبر الجميع الآخرين."

قال عم فرج: "أستتوقف حملة الصيد؟ إذن، كيف سيتم التحكم بالأراضي؟ كلا... كلا... يا صاحب السعادة يا مديرنا، لن نلمس شعرة من رأس الذي ابتلاه الله. سيكون بالنسبة إلينا كما هي زوجة أبي الحصين في موسم التوالد."

بعد أن رحلوا مسح المدير جبينه.

"علينا أن نضع بعض الجنود في كل قرية يزورها غرومبرايد هذا يا بيكر. قل لهم أن يبقوا متوارين عن الأنظار، وأن يراقبوا القرويين. سيثقل كاهلهم."

"يا صاحب السعادة"، قال الصوت الناعم لفرج وهو يضع بثبات على المنضدة كتابي "حقل" و"الحياة الريفية". "هل الذي ابتلاه الله الذي يشبه بيغلباي هو الرجل الذي قابله المفتش في المنزل الكبير في إنكلترا وحكى له حكاية ((كراكي المدير))؟"

قال المفتش: "الرجل عينه يا فرج."

"غالباً ما سمعت المفتش يحكي الحكاية إلى "صاحب سعادتنا" حين كنا نطعم الكلاب في الوجار: ولكن بما أني في خدمة الحكومة فلم يسبق لي أن ذكرت ذلك لأهلي. هل يمكنني الآن أن أنشر هذه الحكاية بين القرى؟"

أومأ المدير برأسه. قال: "لا ضرر من ذلك."

* * *

سأحذف عن عمد تفاصيل وصول السيد غرومبرايد مع ترجمانه الذي اقترح هو أن يتناول الطعام معه على مائدة المدير وكذلك خطبته الموجهة إلى المدير حول "الحركة الجديدة" وخطايا الإمبريالية. في الثالثة بعد الظهر، قال السيد غرومبرايد: "سأخرج الآن وأخاطب ضحاياك في هذه القرية."

قال المدير: "ألن يكون الجو حاراً بالأحرى؟ في العادة يكونون في قيلولة حتى وقت الغروب في هذا الوقت من السنة."

زمّ السيد غرومبرايد شفتيه الكبيرتين الرخوتين. أجاب بحدّة: "سيكون ذاك كافياً لجعلي أحزم أمري. أخشى أنك لم تطلع تماماً على تعليماتك. هل لي أن أطلب منك أن ترسل وراء ترجماني؟ آمل أن

تابعيك لم يؤثروا عليه."

كان غلاماً أصفر اللون يسمي عبدول، وكان قد أكل وشرب جيداً مع فرج. لم يكن المفتش- بالمناسبة - قد حضر وجبة الطعام.

قال السيد غرومبرايد: "مهما كانت المخاطرة فسوف أذهب دون مرافقة. إن وجودك سيجعلهم يجبنون فلا يقدمون الدليل. عبدول، يا صديقي الطيب، هل لك أن تفتح المظلة؟"

عبر المعبر الخشبي إلى القرية، ودون تمهيد آخر عدا ما تقوم به مفرزة من "جيش الإنقاذ" في حي الأكواخ في بورتسماوث، صرخ قائلاً: "أوه يا إخوتي!"

لم يكن قد خمّن كيف كان طريقه قد مهّد له. كانت القرية مستيقظة تماماً. وكان فرج في ملابس فضفاضة متهدّلة لا تشبه قط ملابس الخاكي وأربطة الساقين الخاصة بالمسؤول عن وجار كلاب الصيد، فقد كان قد اتكأ على جدار بيت عمه. "تعالوا وانظروا إلى من ابتلاه الله"، هكذا راح يصرخ بلهجة موسقة." والذي يشبه وجهه بالفعل وجه بيغلباي."

وصل سكان القرية وقرروا أن فرج كان على حق إجمالاً.

"لا أستطيع أن أفهم بالضبط ما يقولونه"، قال السيد غرومبرايد.

"يقولون إنهم مسرورون جداً لمشاهدتك يا سيدي"، ترجم له عبدول.

"إذن أعتقد فعلاً انه كان من شأنهم إرسال وفداً إلى الباخرة. ولكن أعتقد أنهم خشوا من الموظفين. قل لهم ألا يكونوا خائفين يا عبدول."

"يقول إنه ليس عليكم أن تخافوا"، شرح لهم عبدول. ضحك طفل هنا وأطلق رشاشاً من فمه. صرخ فرج: "تجنبوا المرح. الذي ابتلاه الله هو

ضيف صاحب السعادة مديرنا. نحن مسؤولون عن كل شعرة في رأسه."

تكلم أحدهم فقال: "ليس لديه ولا شعرة واحدة. لديه جرب أبيض ولامع."

"والآن قل لهم إني جئت إلى هنا يا عبدول، وأرجوك أن تبقي المظلة عالية، وأعتقد أني سأحتفظ لنفسي بخطابي الصغير باللهجة المحلية حتى النهاية."

"اقتربوا! انتظروا! اسمعوا!" غنى عبدول. "الذي ابتلاه الله سيلهو قليلاً الآن. في الوقت الحاضر سيتحدث بلسانكم، وسوف يجعلكم تغرقون في الضحك. سأحكي لكم حول ملابسه التحتانية والعطور التي يضعها على رأسه."

وراح يحكي لهم مطولاً.

"وهل أخذت أياً من زجاجات عطره؟" قال فرج في النهاية.

أجاب عبدول: "أنا خادمه. لقد أخذت اثنتين."

قال عم فرج: "اسأله، ما الذي يعرفه عن حقوقنا في أراضينا. أنتم الشبان كلكم متشابهون." لوح بالنشرة. ابتسم السيد غرومبرايد حين رأى كيف أن البذرة التي بذرها في لندن قد أثمرت عند نهر جيحون. يا للأسى، كل الرجال المسنين كانوا يحملون نسخاً من النشرة.

"إنه يعرف أقل مما يعرفه جاموس، لقد قال لي على الباخرة إنه قد طرد من أرضه من قبل ((الديماقراطية)) وهذه شيطان بسكن الجماهير والمجالس"، قال عبدول.

"الله بيننا وبين الشر!" فرقعت امرأة من ظلام كوخ. "ادخلوا أيها الأطفال، قد تكون له عين حاسدة."

قال فرج: "كلا يا عمتي.ليس للذي ابتلاه الله عين حاسدة. انتظري حتى تسمعي الخطاب المثير للمرح الذي سيلقيه. لقد سمعته مرتين من عبدول."

"يبدون سريعين جداً في فهم المسألة. إلى أين وصلت يا عبدول؟"

"حول كل ما يتعلق بعمليات الجلد يا سيدي. إنهم مهتمون جداً."

"لا تنس مسألة الحكم الذاتي المحلي، وأرجوك أن ترفع المظلة فوقي. من العبث الهدم إلاّ إذا شيّد المرء أولاً."

"قد لا تكون له عين حاسدة" ،همهم عم فرج، "ولكن شيطانه قاده بكل تأكيد إلى الشك في حقوق ملكية الأرض. اسأله إن كان لا يزال يشك في حقي في أرضي؟"

صرخ المسنون: "أو أرضي أو أرضي؟"

"يا للغرابة؟ إنه مبتلى من الله." صرخ فرج. "تذكروا الحكاية التي رويتها لكم."

"أجل، ولكنه إنكليزي ولا شك أن له نفوذاً، وإلا فإن صاحب سعادتنا ما كان استضافه. اجعل ذلك المغفل القادم من أسفل مجرى النهر يسأله".

قال عبدول: "سيدي، هؤلاء الناس يخشون إلى حد كبير أن يطردوا من أرضهم نتيجة لملاحظاتك.لذلك فهم يسألونك أن تعدهم بأنه لن تكون هناك نتائج سيئة لزيارتك."

أمسك السيد غرومبرايد أنفاسه وتحول لونه إلى الأرجواني. ثم ضرب الأرض بقدمه.

صرخ: "قل لهم إنه لو لمس أي موظف شعرة واحدة من رؤوسهم لأي

سبب كان، فإن إنكلترا كلها ستسمع بذلك. يا للرب الطيب! ياله من ظلم فادح! الأماكن المعتمة من الأرض مليئة بالقسوة." مسح وجهه ورفع ذراعيه وصرخ: "قل لهم، أوه! قل للخدم الفقراء ألا يخشوني. قل لهم إني جئت لأنصفهم... وليس لأضيف إلى أعبائهم والسماء تعرف ذلك!"

لقد سرتهم القرقرة الطويلة للخطيب المتمرس.

قال فرج: "هكذا يجري صوت صنبور الماء الجديد في الوجار. صاحب السعادة مديرنا يستضيفه حتى يسلينا بمرحه. اجعله يلقي خطابه المثير للسرور."

"ما الذي قاله عن حقوقي في أرضي"، كان عم فرج عنيداً.

فسّر له فرج: "يقول إنه لا يرغب سوى في أن تعيش فوق أراضيك في سلام. إنه يتكلم وكأنه يظن نفسه مديراً."

"حسناً. نحن هنا جميعاً شهود على ما قاله. والآن هيا لنرى المرح". سوّى عم فرج ملابسه. "كم نوّع الله في مخلوقاته! لقد منح أحدهم القوة لذبح الأمراء، وجعل آخر يجن ويتجول تحت الشمس، مثل جراء ميلكميد المسعورة."

قال فرج: "أجل، وأن يرش اللعاب من فمه كما حكى لنا المفتش. سيجري كل شيء كما تنبأ المفتش. كما لم يسبق لي أن رأيت المفتش يسقط عن حصانه خلال أي جري."

"أعتقد..." شد عبدول كم السيد غرومبرايد. "أعتقد أنه من الأفضل الآن يا سيدي لو ألقيت خطابك الصغير الجميل باللغة المحلية. فهم لا يفهمون الإنكليزية، ولكنهم مسرورون جداً من تنازلاتك."

"تنازلاتي؟" التف السيد غرومبرايد حول نفسه. "لو أنهم يعلمون

فحسب شعوري تجاههم في قلبي! لو كنت أستطيع التعبير ولو قليلاً عن مشاعري! علي أن أبقى هنا وأتعلم لغتهم. إرفع المظلة يا عبدول. أعتقد أن خطابي الصغير سيريهم أني أعرف شيئاً عن حياتهم الحميمة."

كان خطاباً قصيراً وبسيطاً وقد لقّن له بعناية، وكانت اللهجة، بإشراف عبدول فوق متن الباخرة، قد سمحت للمستمعين أن يخمنوا معناه والذي كان طلباً لمشاهدة أحد "كراكي المدير"، بما أن الرغبة الوحيدة في حياة الخطيب، والهدف الذي سيكرس أيامه من أجله، هو أن يحسن من حال "كراكي المدير". ولكن عليه أولاً أن يراهم بعينيه. هل يمكن لأخوته الذين يحبهم أن يعرضوا على بصره كركياً من كراكي المدير لرغبته في محبته؟

كرر مرة ثم مرة أخرى وثالثة في ختام خطبته هذا الطلب مستخدماً على الدوام - حتى يروا أنه على اطلاع بلغتهم الخاصة - مستخدماً على الدوام، كما أقول، الكلمة التي أعطاه إياها المفتش في إنكلترا قبل زمن طويل - وهي كلمة قصيرة دبقة تدهش بحد ذاتها حتى إثيوبيا التي لا يتضرج وجهها خجلاً.

هناك حدود للتهذيب الرفيع الذي يميّز شعباً عريقاً. ولكن رجلاً ضخم الجثة، أزرق الذقن في ملابس بيضاء، وقد كتب اسمه بأحرف حمراء فوق مقدمة قميصه السفلية، ويتكلم مدمدماً من تحت مظلة مبطنة باللون الأخضر ويطلب والدموع ملء عينيه أن يجري تقديمه إلى "ما لا يمكن أن يقدم إليه"، وهو يسمي بصوت مرتفع اسم ذلك الذي "لا يُسمى" ويرقص، كما يبدو، في متعة تدل على الانحراف لدى مجرد ذكر "ما لا يُذكر"، هذا كله جعل تلك الحدود قابلة للتجاوز. كان هناك صمت

استمر لحظة، ثم حل المرح الهائل الذي لم يسمع نهر جيحون عبر قرونه كلها له مثيلاً، وكان هدير كهدير شلالاته في أوج فيضانه. رمى الأطفال بأنفسهم على الأرض وراحوا يتلوون وهم يطلقون الهتافات المرحة، بينما راح رجال أقوياء يشهقون ووجوههم مخفية في ملابسهم وهم يتأرجحون في صمت، حتى أصبح الألم لا يطاق فرفعوا رؤوسهم ونبحوا للشمس. وراحت النسوة والأمهات والعذارى يطلقن الصرخات الحادة المتصاعدة ويضربن أفخاذهن بأيديهن الأشبه بقصف البنادق القديمة. وحين حاول الجميع أن يلتقطوا أنفاسهم فإن صوتاً نصف مخنوق كان يصيح بالكلمة مجدداً فيبدأ الهرج والمرج من جديد. وكان آخر من سقط عبدول الذي تلقى تعليمه في المدينة. لقد تابع حتى وصل إلى حدود السكتة، ثم انهار هو يرمي المظلة بعيداً عنه.

لا يجب أن يحكم على السيد غرومبرايد بقسوة شديدة. فالمران والانفعال الشديد تحت شمس حارة، وصدمة اللا امتنان العام، كل هذا أربك روحه. لف المظلة وضرب بها عبدول الساجد، وهو يصرخ بأنه تعرض للخيانة.

وبهذا الوضع وجده فجأة المفتش الراكب ظهر جواده يتبعه المدير.

* * *

قال المفتش: "هذا كله جيد جداً "، وذلك وهو يأخذ شهادة عبدول المتظاهر بأنه ينازع الموت فوق متن الباخرة. "ولكنك لا تستطيع أن تضرب شخصاً من السكان المحليين لمجرد أنه يضحك عليك. لا أرى سوى أن على القانون أن يأخذ مجراه."

"ربما تخفض التهمة إلى ... محاولة التأثير على ترجمان"، قال المدير. كان السيد غرومبرايد أشد حزناً من أن يعرف السلوان.

انتحب قائلاً: "ما أخشاه هو شيوع وانتشار الأمر. ألا توجد وسيلة ممكنة لإخماد القضية؟ لا تعرفون ما يعنيه سؤال - سؤال واحد في مجلس العموم لرجل في مركزي ... إنه خراب لعملي في السياسة، كما أؤكد لكم."

"ما كنت سأتخيل ذلك"، قال المدير متأملاً.

"ورغم أنه لم يكن علي قول ذلك، إلا أني لست دون شرف في بلدي... أو دون نفوذ. كلمة في أوانها، كما تعرفون، يا صاحب السيادة. قد يؤدي ذلك إلى السير بشخص صاحب منصب رسمي بعيداً."

ارتجف المدير.

"أجل، سيحصل هذا أيضاً"، قال في نفسه. "حسناً، انظر هنا. لو قلت لهذا الرجل خاصتك أن يسحب التهمة ضدك، تستطيع الذهاب إلى جهنم ولا أكترث. والشرط الوحيد الذي يهمني هو أنك إن كتبت - وأعتقد أن هذا جزءاً من عملك - حول سفراتك، فلن تمدحني!"

وقد التزم السيد غرومبرايد بهذا التفاهم وبإخلاص حتى الآن.

"جرام المنزل"

((١٩٠٩))

في أمسية بعد عيد الفصح، جلست إلى منضدة في حجرة تدخين باخرة مبحرة إلى الوطن، حيث كان نصف دزينة منا يحكون حكايات عن الأشباح. ومع انفكاك الجلسة، فإن رجلاً كان يلعب لعبة "الصبر" في الحجرة التالية قال لي: "لم أفهم تماماً نهاية تلك الحكاية الأخيرة حول اللعنة التي تنصب على بكر العائلة."

فسّرت له قائلاً: "تبين أنها مصارف المياه. ما أن توضع مصارف جديدة في المنزل ترفع اللعنة عنه. أعتقد أني لم أعرف قط أولئك الناس."

"آه! لقد جددت مصارف مياهي مرتين. أنا مصاب بحصاة الكلية والمثانة أيضاً."

"لا تعني أن تقول إنه لديك شبح في منزلك؟ لم لم تنضم إلى مجموعتنا؟"

قاطعه المضيف: "أي طلبات أخرى أيها السادة قبل أن يغلق البار؟"

"اجلس ثانية وتناول كأساً معاً"، قال لاعب "الصبر". "كلا، ليس شبحاً. مشكلتنا هي الكآبة أكثر من أي شيء آخر."

"لكم هذا مثير للاهتمام! إذن ليست هي بالأمر الذي يمكن أن يراه أحد؟"

"إنها... إنها لاشيء أسوأ من كآبة صغيرة. والجزء الغريب هو أنه

لم تحدث وفاة في المنزل منذ أن شيّد... في عام (١٨٦٣). وقد أيّد المحامي ذلك. وهذا جعلني أتخذ قراري - أو بالأحرى هي زوجتي الطيبة من اتخذت القرار- وقد جعلني المحامي أدفع ألفاً زيادة عليه."

قلت: "لكم هذا غريب! غير معتاد أيضاً!"

"أجل، أليس كذلك؟ لقد شيد لأجل ثلاث أخوات - لقبهن هو ((مولتري)) - ثلاث أخوات عجائز. وقد عشن معاً. وكان المنزل ملكاً لكبراهن. وقد اشتريته من محاميها قبل سنوات قليلة، ولو أني أنفقت جنيهاً واحداً على المكان أولاً وأخيراً، فلا بد أني أنفقت خمسة آلاف. النور الكهربائي وجناح خاص بالخادمات، وحديقة... كل تلك الأمور. يجب أن يكون الرجل وأسرته سعداء بعد كل هذه النفقات، أليس كذلك؟" نظر إلي من قعر كأسه.

"وهل هذا يؤثر كثيراً على أسرتك؟"

"على زوجتي الطيبة...إنها يونانية بالمناسبة ... وأنا نفسي رجل متوسط العمر. نستطيع تحمل الكآبة. ولكنها صعبة على ابنتي الصغيرة. أقول صغيرة، ولكنها في العشرين. ونحن نرسلها في زيارات للهرب من ذلك. لقد أمضت العام الماضي في الفنادق والمصحات المائية تقريباً، ولكن هذا ليس ممتعاً لها. لقد اعتادت أن تكون كنارياً- كنارياً كاملاً - يغني على الدوام. وعليك أن تسمعها. إنها لا تغني الآن. مثل هذا الأمر ليس صحياً للشباب، أليس كذلك؟"

اقترحت: "ألا تستطيع التخلص من المكان؟"

"ليس دون تضحية، ونحن مغرمون به. إنه يلائمنا تماماً نحن الثلاثة. وكنا سنحبه لو سمح لنا بذلك."

"ما الذي تعنيه بعدم السماح؟"

"أعني بسبب الكآبة. إنها تفسد كل شيء."

"كيف هي بالضبط؟"

"لا أستطيع شرحها جيداً. لا بدّ أن تقيِّم كما يقول أصحاب المزادات. والآن، فقد تركت الحكاية التي كنت تقصها للتو انطباعاً عظيماً لديّ."

قلت: "لم تكن حقيقية."

"حكايتي حقيقية. لو تفضلت وجئت معي وقضيت ليلة في بيتي الصغير، لعرفت أكثر من كل ما يمكنني أن أحكيه لك من الآن وحتى الصباح. من الأرجح ألا يكون هناك مساس بك إطلاقاً. قد تكون...حصيناً، أليس كذلك؟ ومن ناحية أخرى، إن كان تأثير الأنفلونزا يفعل فعله بك حقاً، فأعتقد أن التجربة ستكون جيدة."

وبينما كان يتحدث أعطاني بطاقته، وقرأت اسمه: "ل.ماكسويل ملويد / هولمزكروفت". وكان عنوانه في المدينة مثبتاً في إحدى الزوايا.

أضاف قائلاً: "اعتدت أن أعمل في تجارة الفراء. إن كنت مهتماً بالفراء فأنا منحت ثلاثين عاماً من حياتي لها."

همهمت: "لطف كبير منك"

"الأمر كذلك، وهذا ما أؤكده لك. أستطيع مقابلتك عصر يوم السبت القادم في أي مكان في لندن تختاره، وسيسعدني جداً أن أرافقك بالسيارة. من المفروض أنه مشوار ممتع في هذا الوقت من السنة... ستكون الوردية منتشرة ومتفتحة. أعني ذلك. أنت لا تعرف إلى أي حد أعني ذلك. من المرجح جداً أن هذا لن يؤثر فيك إطلاقاً. و... أعتقد أنه

يمكنني أن أقول إنه لديّ أجمل مجموعة من أنياب كركدن البحر في العالم. إن على أفضل الجلود والقرون أن تمر بلندن، وإن ل.ماكسويل ملويد يعرف من أين تأتي وأين تذهب. هذا عمله."

خلال بقية الرحلة صعوداً في القناة حكى لي السيد ملويد عن تجميع وتحضير وبيع أندر أنواع الفراء، وروى لي أموراً حول تصنيع المعاطف المبطنة بالفراء صدمتني تماماً. وبشكل ما أو بآخر، فحين رسونا يوم الأربعاء، وجدت نفسي وقد وعدته بقضاء عطلة نهاية الأسبوع معه في هولمزكروفت.

يوم السبت قابلني بسيارة جيدة معتنى بها وسرنا بها مسافة ساعة ونصف حتى وصلنا إلى منطقة سكنية حصراً من الطرقات النظيفة والفيلات الريفية أنيقة التصميم، وكل واحدة منها تقف ضمن مساحة تتراوح بين ثلاثة إلى خمسة آكرات من الأرض المحددة بالكامل. وقد حكى لي إن الأرض تباع هنا بسعر ثمانمائة جنيه للآكر الواحد، وأن المروج جيدة لممارسة لعبة الغولف، وقد مررنا بجناح الملكة آن للتو الذي كلف إنشاؤه أربعة وعشرين ألف جنيه تقريباً.

كان هولمزكروفت منزلاً كبيراً من طابقين، ليس مرتفعاً ولكنه مغطى بالنباتات المتعرشة. كانت هناك شرفة في الجانب الجنوبي تطل على حديقة وملعبين للتنس يفصلهما عن مرج أشبه بالمنتزه مساحته حوالي خمسة إلى ستة آكرات مع حاجز حديدي مصمم بذوق رفيع، وكانت هناك بقرتان من نوع دجيرزي ترعيان فيه. كان الشاي جاهزاً في ظل شجرة زان نحاسية واعدة، واستطعت أن أرى فوق المرج مجموعات من الشبان والشابات في ملابس ملائمة يلعبون كرة تنس المروج تحت نور الشمس.

قال السيد ملويد: "منظر جميل ، أليس كذلك؟ زوجتي الطيبة تجلس تحت الشجرة، وهناك ابنتي الصغيرة في ثوب قرنفلي اللون فوق ملعب التنس الأبعد. ولكني سأرافقك إلى غرفتك، ثم سنتقابل جميعاً لاحقاً."

قادني عبر قاعة فرشت أرضيتها بالخشب وأثاثها بلون ليموني فاتح، مع أواني ورود ضخمة مجزعة وبيانو من الأبنوس والذهب، وصفوف طويلة من أصص الزهور النحاسية من نوع "بينارس" صعوداً على درج من السنديان فاتح اللون يؤدي إلى منبسط فسيح كانت فيه أريكة من المخمل الأخضر المزينة بالفضة. كانت الستائر مسدلة والنور يهبط بخطوط متوازية على الأرضيات.

قادني إلى غرفتي وهو يقول بمرح: "قد تكون متعباً بعض الشيء. غالباً ما يكون المرء غير مدرك للأمر بعد رحلة بالسيارة. لا تنزل إلاّ حين تشعر أنك قد ارتحت تماماً. وسنكون جميعاً في الحديقة."

كانت غرفتي حبيسة الهواء بالأحرى وتفوح فيها رائحة الصابون المعطر. رفعت النافذة على الفور، ولكنها فتحت قريباً جداً من الأرض ووجدت صعوبة في فتحها حتى كدت أقع جانباً، وكنت عندها سأخرب بكل تأكيد نبتة اللابورنوم المائلة إلى جانب في الأسفل. وبينما رحت أغسل عن نفسي وعثاء السفر، بدأت أشعر ببعض التعب. ولكني فكرت في أني لم أقدم إلى هنا في هذا الطقس وبين هذه الأرجاء لأشعر بالكآبة، لذلك بدأت أصفّر.

وعند ذلك بالضبط أدركت وجود ظل رمادي، وكأنه رقاقة ثلجية ترى على الفور، وتعوم على مسافة هائلة في مؤخرة دماغي. لقد

أزعجتني، وقد هززت رأسي للتخلص منها. ثم أبرق دماغي أنها كانت طليعة كآبة سريعة الحركة كان لا يزال هناك وقت للهروب منها إن كنت سأجبر أفكاري على الابتعاد عنها، كما الرجل الذي يقفز ناجياً بحباته فيدفع بجسده نحو الأمام وبعيداً عن جدار يسقط. ولكن الكآبة انتابني قبل أن أستطيع فهم معنى الرسالة. تحركت نحو السرير، وكل عصب فيّ يؤلمني مع المعرفة المسبقة بالألم الذي سيتم التعامل معه، بينما كانت روحي المنذهلة والغاضبة قد سقطت، في هاوية في إثر هاوية، في رعب العتمة الكبرى المذكورة في الكتاب المقدس، والتي، كما يقول أصحاب المزادات، لا بدّ من تجريبها حتى يتم تقييمها.

يأس فوق يأس وبؤس فوق بؤس وخوف بعد خوف، وكل واحد منها يسبّب في حصول كرب متميز ومنفصل، وقد حلّ بي لفترة غير مسجلة من الزمن، حتى أصبحت أخيراً ضبابية كلها معاً، وسمعت طقطقة في دماغي مثل الطقطقة في الأذن حين ينزل المرء في غرفة الغوص، وعرفت أن الضغوط كانت متعادلة في الداخل والخارج، وأنه في هذه الآونة، فإن الأسوأ كان قد انتهى. ولكني عرفت أيضاً أنه في أي لحظة فإن العتمة قد تحلّ مجدداً. وبينما رحت أتأمل في هذه الفكرة بالضبط كرجل يعذب سناً ملتهبة بلسانه، فقد ابتعدت نحو الظل الرمادي الصغير على الدماغ من حيث أتت أول مرة، ومن جديد سمعت دماغي، الذي عرف ما سيتكرر، وهو يبرق إلى كل الجهات طالباً المساعدة أو التحرر أو التحوّل.

فتح الباب وعاد السيد ملويد إلى الظهور. شكرته بلطف وقلت إني مفتون بغرفتي، وأني تواق لمقابلة السيدة ملويد، وأني انتعشت كثيراً

بعد أن اغتسلت، وهكذا دواليك. من خلف دبق صغير عند زوايا فمي، بدا لي أني كنت أتدبر أمر كلماتي على نحو مثير للإعجاب، وفي هذه الأثناء فأنا نفسي كننت أجثم مرتعشاً في قاع حفرتي غير القابلة لتسلقها صعوداً. وضع ملويد يده فوق كتفي، وقال: "لقد حلّت بك، أليس كذلك؟"

أجبت: "أجل. وهي تجعلني أشعر بالمرض."

"ستزول حين تخرج من المنزل. أعدك بأنها ستزول عندئذ. تعال!"

مشيت متثاقلاً من خلفه، ومسحت جبهتي في البهو.

قال: "ليس عليك أن تهتم، أتوقع أن يتعبك الركض. إن زوجتي الطيبة تجلس هناك تحت شجرة الزان النحاسي."

كانت امرأة بدينة في ثوب مشمش اللون، بوجه طلي بالمساحيق الثقيلة، بحيث بدت عيناها السوداوان طويلتي الأهداب مثل حبتي عنب في كعكة. وقد جرى تقديمي إلى سيدات وسادة كثيرين من ذلك الحي. كانت عربات فخمة وسيارات مغطاة تدخل وتخرج من الطريق الخاصة، وكان الجو مرحاً بصرخات لاعبي التنس.

ومع حلول الغسق مضوا جميعاً، وتركت لوحدي مع السيد والسيدة ملويد، بينما لملم الخدم من الذكور والإناث كل أدوات التنس والشاي. كانت الآنسة ملويد قد تمشت قليلاً على الطريق الخاصة مع شاب فاتح اللون الشعر كان يعرف كل شيء على ما يبدو حول عن أسهم شركات سكة حديد أمريكا الجنوبية. كان قد حكى لي مع الشاي أن هذه كانت أيام الاختصاص المالي.

قال السيد ملويد لزوجته: "أعتقد أن الأمر سار على نحو جميل يا

عزيزتي"، ثم قال لي: "لا بد أنك تشعر على ما يرام الآن، أليس كذلك؟ بالطبع أنت كذلك."

سارت السيدة ملويد عبر الممر المفروش بالحصى كالموجة. وكان زوجها يتقافز برشاقة أمامها نحو الشرفة الجنوبية، ثم أدار مفتاحاً فإذا بهولمزكروفت كله يتدفق بالأنوار.

قال وهما يدخلان: "تستطيع فعل ذلك من غرفتك أيضاً. هناك شيء يستطيع المال فعله، أليس كذلك؟"

دخلت الآنسة ملويد ورائي في الغسق. قالت: "لم نتعرف بعد، ولكني أعتقد أنك ستبيت الليلة عندنا؟"

أجبتها: "كان أبوك لطيفاً بما فيه الكفاية ليدعوني."

أومأت برأسها: "أجل، أعرف. وأنت تعرف أيضاً،أليس كذلك؟ لقد رأيت وجهك حين وصلت لتصافح أمي. لقد أحسست بالكآبة في وقت مبكر جداً. يكون الأمر مخيفاً أحياناً في غرفة النوم تلك. ما رأيك؟ هل هو سحر؟ في اليونان حيث عشت وأنا طفلة صغيرة بعد، يمكن للأمر أن يكون كذلك، ولكن ليس في إنكلترا، ما رأيك؟"

أجبت: "لا أعرف ما أفكر به، لم يسبق لي أن شعرت بذلك الشعور. هل يحدث هذا غالباً؟"

"أجل أحياناً. إنه يأتي ويذهب."

"أمر سار!" قلت وأنا أتمشى على الممر المفروش بالحصى عند حافة المرج. "كيف كانت تجربتك مع هذا الأمر؟"

"من الصعب القول، ولكن – أحياناً أعني – فإن تلك الكآبة هي كما كانت"... أومأت بأسلوب أشد ما يكون بعداً عن أن يكون

إنكليزياً... "نور. أجل نور يتحول إلى غرفة ... مجرد نور من سواد، هل تفهم؟ ...إلى غرفة سعيدة. فأحياناً نكون سعداء جداً، ثلاثتنا جميعاً... سعداء جداً جداً. ثم هذا السواد، إنه يحلّ بنا مثل...آه، أعرف ما أعنيه الآن... مثل مصباح السيارة الأمامي، ونحن مكسوفون. وهناك أمر آخر..."

رن جرس ارتداء الملابس، ودخلنا القاعة المضاءة بشكل مفرط. كان ارتدائي لملابسي أداء رياضياً نشيطاً متنوعاً مع انفجارات غنائية ... اهتمام حريص بالنطق والتعبير. ولكن لم يحدث شيء. وحين أسرعت بالنزول إلى الطابق الأرضي، حمدت السماء لأنه لم يحدث شيء.

قدم الشاي بأسلوب الفطور. وضعت الأطباق على خوان فوق سخانات، وخدم كل واحد نفسه بنفسه.

"نفعل هذا دائماً حين نكون وحدنا، وهكذا نتكلم على نحو أفضل"، قال السيد ملويد.

قالت الابنة: "ونحن دائماً وحدنا."

قال بإلحاح: "ابتهجي يا ثيا. سيكون كل شيء على ما يرام."

"كلا يا أبي. "هزت رأسها الداكن اللون. "لا شيء على ما يرام حين تأتي تلك."

"إنها لا شيء فعلناه نحن في حياتنا...وأقسم لك على ذلك"، قالت السيدة ملويد فجأة. "وقد غيّرنا خدمنا مرات عديدة. لذلك نعرف أن الأمر ليس منهم."

"لا يهم. هيا نمتع أنفسنا بينما نحن قادرون على ذلك"، قال السيد ملويد وهو يفتح زجاجة شمبانيا.

ولكننا لم نستمتع. وفشل الحوار. كانت هناك فترات صمت طويلة.

قلت: "أرجو عفوكم" فقد ظننت أن شخصاً ما قريباً مني أراد الكلام.

قالت الآنسة ملويد: "هذا هو الأمر الآخر!" أنّت أمها.

صمتنا مجدداً، وخلال ثوان قليلة، فإن حزناً حياً لا يمكن وصفه - ليس خوفاً أو رعباً شجياً، ولكنه حزن أليم يائس - سيطر علينا، كل واحد كما أحسست حسب طبيعة أو طبيعتها، وبقي ثابتاً مثل شعاع من العدسة الحارقة. وخلف ذلك الألم كنت واعياً بوجود رغبة من جهة شخص ما بأن يشرح شيئاً ما يعتمد عليه، شيئاً هاماً جداً.

في هذه الأثناء لففت كرات من الخبز وتذكرت خطاياي. راح ملويد يتأمل في انعكاس صورته على ملعقة. أما زوجته فبدت كمن تصلي، وتململت الفتاة بيأس محركة يديها وقدميها حتى عبرت العتمة... وكأن الأشعة الخبيثة للعدسة الحارقة قد أبعدت عنا.

"إليك" قالت الآنسة ملويد وهي تنهض نصف نهضة، "والآن ترى ما هو البيت السعيد. أوه، بعه... بعه يا أبي، ودعنا نرحل بعيداً!"

"ولكني أنفقت الآلاف عليه. ستذهبين إلى هاروغيت في الأسبوع القادم يا عزيزتي ثيا."

"ولكني عدت للتو من الفنادق. لقد مللت كثيراً من توضيب الحقائب."

"ابتهجي يا ثيا. لقد انقضى الأمر. تعرفين أنه لا يأتي غالباً مرتين في الليلة الواحدة. أعتقد أني أجرؤ الآن على أن أكون مرتاحاً.

رفع غطاء أحد الأطباق، وسكب لزوجته وابنته. كان وجهه مليئاً

بالتجاعيد ومتهدّلاً مثل وجه رجل عجوز بعد انغماس في الملذات، ولكن يده لم تهتز، وبقي صوته صافياً. وبينما راح يعمل على إعادة البهجة إلينا بالفعل والكلمة، فقد ذكرني بكلب رعي اسكوتلندي ضخم يقود أغناماً خائفة.

بعد العشاء جلسنا من حول مدفأة غرفة الطعام - ربما كانت غرفة الجلوس تحت "الظل" دون أن نعرف - ورحنا نتحدث بحميمية الغجر على جانب الطريق، أو الجرحى الذين يقارنون الملاحظات بعد اشتباك. وحين دقت الساعة الحادية عشرة فإن ثلاثتهم كانوا قد ذكروا لي كل اسم أو تفصيل يتذكرونه والذي يمكنه أن يثقل على المنزل وما يعرفونه عن تاريخه.

ذهب كل إلى فراشه تحت وهج قوي من الأنوار الكهربائية. كان خوفي الوحيد هو أن تعود الهبة العاصفة من الكآبة: وهو أكثر الطرق ضماناً في إعادتها. بقيت مستيقظاً حتى الفجر، وأنا أتنفس بسرعة وأتعرق قليلاً تحت ما يصفه "دي كوينسي"[١] على نحو غير ملائم بأنه "ظلم الإثم الذي لا يغتفر". وما أن أطل الفجر الجميل، حتى انتابتني أفظع الأحلام إطلاقاً... ذلك الحلم المرح الذي لا يكون فيه الماضي الشرير كله قد مسح تماماً من حياتنا، بل لا يكون قد ارتكب قط. نكون في نعيم براءتنا الأكيدة قبل أن يصرخ أحباؤنا ويغيروا سحناتهم، حين نستيقظ على اليوم الذي كسبناه.

كان صباحاً بارداً ولكننا فضلنا تناول الإفطار في الشرفة الجنوبية. ثم قضينا الضحى في الحديقة، متظاهرين بلعب الألعاب التي تخرج من

---

(١) دي كوينسي ، توماس ٠ (١٧٨٥-١٨٥٩) كاتب وناقد إنكليزي ، (المترجم)

صناديق مثل الكروكيت وغولف الساعة. ولكننا معظم الوقت كنا نجتمع معاً ونتحادث. اصطحب الشاب الذي يعرف كل شيء عن سكك حديد أمريكا الجنوبية الآنسة ملويد في مشوار على الأقدام بعد الظهر، وفي الخامسة اصطحبنا السيد ملويد جميعاً لنتعشى في البلدة بعد تفكير.

"والآن لا تقل لي إنك ستخبر ((الجمعية السيكولوجية)) وأنك ستأتي مجدداً"، قالت الآنسة ملويد حين افترقنا. "فأنا أعرف أنك لن تفعل."

قالت أمها: "لا يجب عليك قول ذلك.عليك أن تقولي: "وداعاً يا سيد بيرسيوس. تعال مجدداً."

صرخت الفتاة: "ليس هو! لقد رأى رأس ميدوزا!"

حين نظرت إلى نفسي في مرايا المطعم، بدا لي أن لم أستفد كثيراً من عطلة نهاية الأسبوع هذه. في صباح اليوم التالي كتبت كل ملاحظاتي حول هولمزكروفت مطولاً على أمل أن أنساها تماماً. ولكن التجربة فعلت فعلها في ذهني كما يقولون. إن بعض أنواع الأشعة التي لم تُفهم جيداً بعد تفعل فعلها في الجسد.

لست من ذلك النوع من الرجال القادر على لعب دور شرلوك هولمز قط، فأنا يعوزني المنهج والصبر، ولكن فكرة متابعة المشكلة حتى مصدرها فتنتني. لم تكن لديّ نظرية أنطلق منها، عدا فكرة غامضة عن وصولي بين قطبي تفريغ الشحنة وأني تلقيت صدمة كان مقصوداً بها غيري. وقد تبع هذا شعور بالغضب الشديد، فانتظرت بحذر متوقعاً أن ينتابني الرعب من ما فوق الطبيعة، ولكن ذاتي بقيت ساخطة على نحو بشري، كأنها بالضبط كانت ضحية لنكتة علمية. كانت في ألم

واضطراب عظيمين- أحسست بهذا في كل نسيج من جسمي - ولكن فكرته المهيمنة، لو عبّرنا عن الأمر دون صقل، هي استعادة شيء من نفسها. وبهذا عرفت أني قد أستطيع التقدم لو قدرت أن أجد الطريق.

بعد أيام قليلة خطر لي أن أذهب إلى مكتب السيد ج.م.م.باكستر، المحامي الذي باع هولمزكروفت إلى ملويد. شرحت له أني أفكر في شراء المنزل. هل له أن يكون وكيلي في هذه القضية؟

لم يبد السيد باكستر، وهو رجل ضخم أشيب ذو صوت مغمغم، أي حماسة. "لقد بعته للسيد ملويد، ولا يليق بي أن أعود فأسلك هذا الدرب مجدداً إنما بالعكس. ولكني أستطيع أن أوصي..."

قاطعته: "أعرف أنه يطلب سعراً مرتفعاً، وفوق ذلك أنه يريد ألف جنيه زيادة لقاء ما يسميه براءة صحتك التامة."

استوى السيد باكستر في جلسته. لقد أثرت اهتمامه تماماً.

"كفالتك التي تعطى مع المنزل. ألا تذكرها؟"

"أجل، أجل. أنه لم تحدث وفاة في المنزل منذ أن شُيّد. أتذكر تماماً."

لم يزدرد ريقه كما يفعل الرجال من غير ذوي الخبرة حين يكذبون، ولكن فكيه تحركا على نحو دبق، أما عيناه فالتفتا نحو الملفات التي تحوي الصكوك على الجدار ثم خبا بريقهما. عددت الثواني: واحد، اثنان، ثلاثة، واحد، اثنان، ثلاثة،....حتى العشرة. يستطيع الإنسان، كما أعرف، أن يعيش عصوراً من الكآبة الذهنية خلال هذه الفترة الزمنية.

"أتذكر كل شيء بالكامل." فغر فمه قليلاً وكأنه تذوق مرارة عتيقة.

تابعت قـائلاً: "بالطبع ذلك النوع من الأمـور لا يروق لي.لا أتوقع شراء منزل خال من الموت."

"لا بكل تأكـيـد. لا يفـعـل أحـد ذلك. ولـكن كـانـت تلك نـزوة من نزوات السـيـد ملويد... أو زوجتـه بالأحرى. وطالما استطعنا تلبيـتـهـا - كـان ذلك واجبي تجـاه مـوكلي - مـهـمـا كـان الثـمـن الذي أدفـعـه من مشاعري - لأجعله يدفع."

"لهذا السبب جئت إليك. لقد فهمت منه أنك عرفت المكان جيداً."

"أجل. لقد عرفته. كان يخص في الأصل بعض أقربائي."

"الآنسـات مولتري على مـا أعـتـقـد. لكم هذا مـثـير للاهتـمـام! لابد أنّهن أحببن المكان قبل أن يعرف الريف المجاور حركة العمران."

والآن تأتي واحدة من أغـرب خواص الإنكليـز وأكـثـرها ثبـاتـاً: أنهم في الحديث المهـذب - وقد حاولت جـهـدي أن أكـون مـهـذبـاً- لا يفـعـل أي واحد منهم أو يبيع أي شيء مقابل النقود فحسب.

"مرضت الآنسة آغنس: الأخت الصغرى." (كان يلفظ كلماته بتمهل بين الواحدة والأخرى) "وبما أنهن كنّ شديدات التعلق الواحدة بالأخرى، فقد حطم ذلك عرى البيت."

"بالطبع. لقد تخيلت أنه كـان لابد شيئاً من ذلك النوع. فـالمرء لا يربط عـادة بين آل مولتري من ستافوردشاير" (ابتكرهم في تلك اللحظة شيطان اللامسؤولية خاصتي) " وبين الإعسار."

"لا أعـرف إن كنا أقـربـاء لأولئك"، أجـاب بلهـجـة تدل على علو الشأن."ربما يكون الأمر كذلك، ففرعنا من العائلة يأتي في الأصل من ميدلاندز."

وأنا أقتبس هذا الحوار مطولاً لأني فـخور جداً بأول محاولة لي في

مجال العمل الخاص بالمفتشين السريين. وحين تركته بعد عشرين دقيقة أخرى، مع تعليمات برفع قضية ضد مالك هولمزكروفت بقصد الشراء، وقد كنت أكثر اضطراباً من أي دكتور واطسون [٢] في افتتاحية أي من القصص.

لماذا يكون على محام متوسط العمر أن يشحب لونه ويسقط فكه لدى تذكيره بهذه المسألة شديدة البراءة والفرح مع أنه لم تجر أي حادثة وفاة في منزل باعه؟ لو كنت أعرف مفرداتي باللغة الإنكليزية على الإطلاق، فإن اللهجة التي نطق بها عبارة "مرضت الأخت الصغرى" عنت أنها قد جنّت. قد يفسر هذا تغيّر وجهه، وكان ممكناً بالضبط أن يكون تأثيرها المخبل لا يزال متلبثاً من حول هولمزكروفت. ولكن البقية كانت بعيدة عن متناولي.

وقد شعرت بالراحة حين وصلت إلى مكتب ملويد في المدينة، واستطعت أن أبلغه بما فعلته... وليس بما فكرت فيه.

كان ملويد راغباً بالضبط في دخول لعبة الشراء ولكنه لم يقتنع بأن معرفتي بباكستر ستكون مفيدة.

قلت: "إنه الشخص الحي الوحيد الذي أستطيع الوصول إليه وله علاقة بهولمزكروفت."

قال ملويد: "آه! الشخص الحي جيد. وعلى أي حال فإن ابنتنا الصغيرة سيسرها، كونك ما تزال مهتماً بنا، أن تزورنا في أحد أيام هذا الأسبوع."

سألت: "كيف هي الأمور هناك الآن؟"

---

(٢) مساعد شرلوك هولمز.

قطب وقال: "مخيفة ببساطة! ثيا الآن في درويتويتش."

"أرغب كثيراً بهذه الزيارة، ولكن عليّ أن أسعى لكسب صداقة باكستر الآن. سيكون عليك أن تتأكد من إبقائه مشغولاً من جهتك، أليس كذلك؟.

نظر إليّ باحتقار هادئ. "لا تخف. سأكون يهودياً جيداً. سأكون محامي نفسي."

وقبل أن يمر أسبوعان، أقرّ باكستر بحزن بأن شركة ملويد كانت أفضل من معظم الشركات في مجال عملها. حن الباعة كنا خجولين، مجادلين، وقد صدمنا سعر هولمزكروفت، وكنا كثيري الأسئلة أو متحفظين بالتناوب، ولكن السيد ملويد البائع كان يتجاوب معنا أو يتفوق علينا. وكان السيد باكستر يسجل كل رسالة وبرقية واستشارة بالأسعار الصحيحة في فاتورة أشبه بفيلم سينمائي. وفي نهاية الشهر قال إن الأمر يبدو وكأن السيد ملويد، بفضل جهوده هو بالذات، كان سيستمع إلى صوت المنطق. كنت قد خسرت بضع جينهات، ولكني عرفت شيئاً ما عن السيد باكستر من الناحية الإنسانية. وكنت استحق ذلك. لم يسبق لي في حياتي أن عملت على استرضاء وتسلية وإطراء كائن بشري كما جرى مع محاميّ هذا.

وقد بدا أنه يلعب الغولف. لذلك أصبحت لاعباً مبتدئاً متحمساً وحريصاً على التعلم. وقد غزوت مكتبه مرتين وأنا أحمل حقيبة (أعارني إياها ملويد) مليئة بكل الأدوات المطلوبة لهذه اللعبة الكريهة مع المفردات المطلوبة لذلك. وفي المرة الثالثة ذاب الجليد واصطحبني السيد باكستر إلى ملعب الغولف خاصته الذي يبعد حوالي عشرة أميال،

حيث رحنا نمشي بنشاط ضمن متاهة من خطوط الترام والسكة الحديد والمرضعات ونحن نقلع العشب بمضارب الغولف من حول تسعة ثقوب في الأرض مثل بارجتين تندفعان عبر البحار. كان يلعب بشكل رديء ولم يكن يتوقع قط أن يلتقي بلاعب أسوأ منه. ولكنه حين أدرك مستواي، أعتقد أنه بدأ يحبني، فقد وضعني تحت إشرافه مدة ساعتين. بعد أسبوعين لم يعد قادراً على إعطائي أكثر من ضربة لكل ثقب، وحين استطعت بهذا السماح منه ذات مرة أن أغلبه بواحدة، فقد كان سعيداً عن حق، وأكد لي أن عليّ أن أصبح لاعب غولف لو تابعت جهودي. كنت أتابع جهودي لأجل غاياتي الخاصة، ولكن ضميري كان يخزني في بعض الأحيان، فقد كان الرجل شخصاً لطيفاً. بين المباريات كان يقدم لي أجزاء عرضية من الأدلة مما كان يعرفه عن آل مولتري طوال حياته، فهو ابن خالتهن، وكانت الآنسة ماري، الأخت الكبرى، امرأة غير متسامحة لا تترك شيئاً من الماضي يُنسى. وقد تساءلت بالطبع ما الذي لديها ضده. وعلى نحو ما فقد وجدت له صلة سلبية مع أغنس المجنونة.

"على الناس أن تسامح وتنسى"، هكذا تطوع بالكلام في أحد الأيام بين جولتي لعب. "خاصة حين لا يكون المرء متأكداً من الاستنتاجات في طبيعة الأشياء. ألا تعتقدين ذلك؟"

أجبت: "كل هذا يعتمد على طبيعة الدليل الذي يشكل المرء حكمه وفقاً له."

صرخ: "هراء! أنا محام كفؤ إلى حد أعرف معه أنه لاشيء هناك في العالم مضلّل شأن الدليل الظرفي. ولم يكن هكذا قط."

"لماذا؟ هل سبق وشاهدت أشخاصاً يشنقون بدليل ظرفي؟"

"يشنقـون؟ كـان من المفروض ببـعض الأشخـاص أن يكونـوا ضـائعين إلى الأبد بدليل كهذا." عاد وجه ليصبح رمادي اللون مجدداً. "لا أعرف كيف هي الحال معك، ولكن تعزيتي هي أن الرب يعرف بكل تأكيد. عليه أن يعرف! الأشياء التي تبدو من الناحية السطحية كجريمة قتل، أو انتحار، فقد تبدو مختلفة للرب. ما رأيك؟"

"هذا ما يأمل به دائماً القاتل والمنتحر...على ما أفترض."

"لقد عبرت عن نفسي على نحو أخرق كالعادة. والحقائق كما يعرفها الرب – قد تكون مختلفة – حتى بعد أكثر الأدلة قوة. لقد قلت هذا دائماً – كمحام وكرجل، ولكن بعض الناس لا يصدقونها مطلقاً... ولا أريد الحكم عليهم... سنقول إنهم لا يستطيعون... بينما أقول أنا إن هناك دائماً فرصة ناجعة –حقيقة مؤكدة –أن الأسوأ لم يحدث." توقف وتنحنح. "والآن هيا نتابع! في مثل هذا الوقت من الأسبوع القادم ستكون عطلتي."

"أين الملعب؟" سألت بلهجة لا مبالية، بينما خرج من خط نارنا توأمان في عربة أطفال.

"إنه ملعب صغير ذو ثقوب تسعة في مصح مائي في ميدلاندز. بنات خالتي يقضون وقتهن هناك. وسيفعلن ذلك على الدوام. ولكن الثقبين الرابع والسابع يحتاجان إلى بعض العمل. نستطيع تدبر الأمر على أي حال"، قال مشجعاً. "أنت تلعب جيداً. أما ضربات الاقتراب لديك فهي ضعيفة."

"أنت على حق. لا أستطيع الاقتراب البتة! سأنهار خلال بعادك... فلا يوجد من يدربني"، قلت بلهجة حزينة.

قال: "لم أعلمك شيئاً"، وكان مسروراً بالإطراء.

"أدين بكل ما تعلمته لك على أي حال. متى ستعود؟"

"انظر هنا. لا أعرف ما هي التزاماتك، ولكن ليس لدي من يلعب معي في بيري ميلز. لم يسبق أن كان هناك من يلعب معي. لماذا لا تأخذ لنفسك إجازة وتنضم إليّ هناك؟ أحذرك من أن المكان سيكون مملاً بالأحرى. إنه مكان لمعالجة مرضى الحنجرة والنقرس... حمامات، مساجات، كهرباء وهكذا دواليك. ولكن الشقبين الرابع والسابع يتطلبان بعض العمل."

أجبت بشهامة: "أنا جاهز للعب." بينما السماء تعرف حقاً أني أكره كل ضربة وكل كلمة تتعلق بالغولف.

"هذه هي الروح الملائمة. وكمحام لهن عليّ أن اطلب منك ألاّ تقول شيئاً لبنات خالتي يتعلق بهولمزكروفت. هذا الأمر من شأنه أن يزعجهن. لقد كان يزعجهن دائماً. ولكنني إذ أحادثك كرجل لرجل فسيكون أمراً يسرني كثيراً أن تنال ما تريد...

وقد نلته ما أن سمحت النزاهة بذلك، وشكرته بإخلاص. فحسب نظريتي التي طورتها جيداً، قام هو باختلاس أموال بنات خالته المسنات بموجب وكالة منهن، وقد يكون سبّب لابنة خالته الصغرى حالة الجنون تلك، ولكنني تمنيت لو لم يكن هو شديد اللطف رقيق المزاج بريء العينين.

وقبل أن أنضم إليه في مصح بيري مايلز المائي، أنفقت ليلة في هولمزكروفت. كانت الآنسة ملويد قد عادت من مصحاتها المائية، وقد قضينا وقتاً مرحاً جداً فوق المرج المفتوح تحت أشعة الشمس حسب سلوك

وعادات الإنكليز الذين يلتجئون إلى مثل هذه الأماكن. كانت تعرف عشرات الحمامات، ونبهتني إلى كيفية التصرف فيها، بينما وقف السيد والسيدة ملويد جانباً وراحا يتأملانها بحب.

قال: "آه! هكذا تعود إلينا دائماً، من المؤسف أن هذا ينقضي سريعاً، أليس كذلك؟ عليك أن تسمعها تغني: ((امرح أيها الطير الجميل!))".

كان لدينا المنزل لنواجهه خلال المساء وهناك لم نضحك ولم نغنّ. هبط الغم علينا ونحن ندخل ولم يتحرك حتى الساعة العاشرة، حين زحفنا خارجين من تحت الكآبة.

قالت السيدة ملويد هامسة بعد أن أدركنا أننا أصبحنا أحراراً: "كان الأمر سيئاً هذا الصيف. أعتقد أحياناً أن المنزل سينهض ويصرخ... الأمر سيئ جداً."

"كيف؟"

"هل نسيت ما الذي حدث بعد الكآبة؟"

وهكذا رحنا ننتظر من حول الموقد الصغير، وكان الهواء الميت في الغرفة يملأنا ويضغط علينا بحسّ أشبه (ولكن الكلمات لا فائدة منها هنا) بقوة خرساء ومقيدة تكافح ضد ما يكمّم فمها ويقيد حركتها وذلك لتحرر روحها من كلمة منطوقة. وقد مرّ ذلك خلال دقائق قليلة ورحت أفكر في ضمير السيد باكستر وأغنس مولتري، التي جُنّت في غرفة النوم قوية الإضاءة والتي كانت تنتظرني. هذه الأفكار ضمنت لي ليلة أعدت خلالها اكتشاف كيف أن الإنسان، من مجرد أسباب ذهنية محضة، يمكن أن يصبح مريضاً في جسده. ولكن المرض كان نعمة

بالمقارنة مع أحلامي حين استيقظت الطيور. لدى مغادرتي، أعطاني ملويد قرن كركدن بحر جميل كما تعطي الممرضة طفلاً الحلوى لأنه كان شجاعاً عند طبيب الأسنان.

قال: "لا مثيل له في العالم كله، وإلا لأتى ذلك المثيل إلى حوزة ماكس ملويد العجوز. "ثم وضعه في السيارة. همست الآنسة ملويد عند الطرف البعيد من السيارة: "هل اكتشفت شيئاً يا سيد بيرسيبوس؟"

هززت رأسي.

"إذن سأبقى مربوطة بالسلاسل إلى صخرتي طوال حياتي"، تابعت القول. "ولكن لا تذكر هذا أمام أبي."

افترضت أنها كانت تفكر في الشاب المختص بالسكة الحديد في أمريكا الجنوبية، فقد لاحظت خاتماً على الأصبع الوسطى في يدها اليسرى.

ذهبت مباشرة من ذلك المنزل إلى المصح المائي في بيري ميلز، وأنا أتوق للمرة الأولى في حياتي إلى لعب الغولف، وهذا يكفل إشغال الذهن. كان باكستر قد استأجر لي غرفة تتصل بغرفته، وبعد الغذاء عرفني على سيدة عجوز طويلة القامة ذات رأس كالحصان، ولها سلوك واضح صارم، وكانت فتاة بيضاء الشعر تدفعها في كرسي المرضى عبر منتزهات المصح المائي. كانت هذه هي الآنسة ماري مولتري، وكانت تسعل وتتنحنح مثل باكستر. كانت تعاني - وقالت إن هذه من علامات آل مولتري - من شكل غامض من أشكال التهاب القصبات المزمن الذي تفاقم مع تشنج في زمار الحنجرة. وهكذا بصوت شبه ميت وعين غائرة تنظر ولا ترى، حكت لي ما هي أنواع الغسول والغرغرة والأقراص

والاستنشاق التي تظن أنها الأكثر فائدة. ومنها تعرفت على أختها الأصغر إليزابيث وهي مخلوقة صغيرة منكمشة لها شفتان مرتجفتان، وتعاني أيضاً من حنجرة مشابهة لأختها، ولكنها تعالج نفسها سراً بمجموعة أخرى من الأدوية. وحين مضت بعيداً مع باكستر وكرسي المرضى، قابلت رائداً من الجيش الهندي يعاني من لطخة دم في عينيه الزجاجتين، ومعدة دار بها كل القارة. لقد اعترف لي بكل شيء. وقد هربت منه لأصبح موضع أسرار امرأة كهلة تعاني من لوزات جيبية وأكزيما. اعتنى باكستر بابنتي خالته حتى الساعة الخامسة، محاولاً كما رأيت أن يعوض عن معاملته للأخت المتوفاة. وكانت الآنسة ماري تعامله ككلب.

قال لي حين قابلته في غرفة التدخين: "حذرتك من أن المكان سيكون مملاً ".

قلت: "إنه ممتع جداً. ولكن ما رأيك أن نذهب لنتفرج على ملعب الغولف؟"

"لسوء الحظ تؤثر الرطوبة دائماً على كبرى بنات خالتي. عليّ أن أشتري لها إبريق التهاب قصبات جديداً. لقد حطمت لها آرثرز إبريقها القديم البارحة."

انطلقنا نحو دكان الصيدلي في البلدة، واشترى لها شيئاً كبيراً لامعاً من القصدير راح يشرح لي طريقة عمله.

قال: "أنا معتاد على مثل هذا النوع من العمل. غالباً ما أحضر إلى هنا. أنا أيضاً أعاني بالوراثة من حنجرة مريضة."

قلت: "أنت رجل طيب. طيب جداً."

التفت نحوي تحت نور المساء بين أشجار الزان، وتغير وجهه ليبدو كما كان من شأنه أن يبدو قبل جيل كامل.

قال بصوت أبح: "كما ترى كانت هناك الأخت الصغرى...أغنس. قبل أن تقع فريسة للمرض، كما تعرف. ولكنها لم تكن تحب أن تترك أختيها. رفضت إطلاقاً." أسرع وهو يحمل حمله غريب الشكل وتركني بين خرائب نظرياتي السوداء. لم يكن ذلك الرجل صاحب ذلك الوجه قد أساء قط إلى أغنس.

* * *

لم نلعب الغولف قط. أوقظت بين الساعة الثانية والثالثة صباحاً من سريري الصحي من قبل باكستر المرتدي معطفاً فضفاضاً فوق بيجامة باللونين البرتقالي والأبيض ما كنت أشك في أنه يرتدي مثلها من معرفتي بشخصيته.

قال: "أصيبت ابنة خالتي بنوبة ما، هل لك أن تأتي؟ لا أريد إيقاظ الطبيب. لا نريد فضيحة. أسرع!"

وهكذا مضيت بسرعة تقودني آرثرز بيضاء الشعر في سترة وتنورة، ودخلت غرفة بسريرين تعبق بالبخار و"بلسم الرهبان". كانت الأنوار الكهربائية مضاءة كلها. كانت الآنسة ماري-عرفتها من طولها- عند النافذة المفتوحة تتصارع مع الآنسة إليزابيث، التي كانت تمسك بها من ركبتها. كانت يدها عند حنجرتها، وكانت هذه ملطخة بالدم.

لهثت الآنسة إليزابيث: "لقد فعلتها. لقد فعلتها هي أيضاً! أمسكوا بها! ساعدوني!"

همس باكستر: "عجباً! لا تذبح المرأة نفسها بيدها!"

صرخت الخادم: "يا إلهي! هل ذبحت نفسها؟" ودون إنذار سقطت غائبة عن الوعي. دفعها باكستر تحت المغسلة، وقفز ليمسك بالمرأة العملاقة التي كانت تصيح وتصفر وهي تناضل لتصل إلى النافذة. أمسك بها من كتفها فراحت تضرب بجنون،

قال: "حسناً! لقد جرحت يدها فقط. منشفة مبللة... أسرع!"

وبينما رحت أناوله ما طلب دفعها إلى الخلف. بدت قوتها كقوته تقريباً. مسحت عنقها حين استطعت فلم أجد أي أثر. ثم ساعدته على التحكم بها قليلاً. قفزت الآنسة إليزابيث عائدة إلى سريرها وهي تعول كطفلة.

قال باكستر: "اربط لها يدها على نحو ما. لا تدعها تنزف في كل أنحاء المكان. لقد ..." راح يدوس على زجاج مكسور بخفّة... "لا بد أنها كسرت لوح زجاج."

اندفعت الآنسة ماري نحو النافذة المفتوحة مجدداً، وسقطت فوق ركبتيها ورأسها على حافة النافذة وهدأت وهي تسلمني الجرح.

"ما الذي فعلته؟" التفت باكستر نحو الآنسة إليزابيث في السرير البعيد.

"كانت سترمي بنفسها خارج النافذة. وقد أوقفتها، وأرسلت آرثرز لإحضارك. أوه، لن نستطيع رفع رؤوسنا مجدداً."

تلوت الآنسة ماري وناضلت محاولة التنفس. وجد باكستر شالاً رماه فوق كتفيها.

قال: "هراء! ليست ماري من تفعل هذا." ولكن وجهه كان منفعلاً حين قال ذلك.

قالت الآنسة إليزابيث: "لم تصدق الأمر حين جرى لآغي [اسم التدليل لآغنس]يا جون. ربما ستصدق الآن! لقد رأيتها وهي تفعل ذلك وقد ذبحت نفسها هي أيضاً!"

قلت: "لم تفعل. لقد جرحت يدها فقط."

وفجأة تحررت الآنسة ماري من قبضتنا وهي تنخر على نحو لا يوصف، واندفعت مسرعة، بل ركضت إلى سرير أختها وهناك راحت تهزها كما قد تفعل طالبة مدرسة حانقة بأخرى.

نعقت قائلة: "لاشيء كهذا. كيف تجرؤين على التفكير بذلك أيتها الحمقاء الصغيرة الشريرة؟"

قال باكستر: "ادخلي السرير يا ماري. ستصابين بالبرد."

أطاعته، ولكنها جلست والشال الرمادي من حول كتفها الناحلين، وهي تحدق إلى أختها. صاحت: "أنا أفضل الآن. لقد تركتني آرثرز أجلس في الخارج فترة طويلة. أين آرثرز؟ الوعاء."

قال باكستر: "لا تهتمي بآرثرز. لقد جلبت لك الوعاء." هرعت لأحضره من المنضدة الجانبية. "والآن يا ماري، كما يراك الرب الآن، قولي لي ما الذي فعلته."

كانت شفتاه جافتين، ولم يستطع أن يرطبهما بلسانه.

وضعت الآنسة ماري فمها على فم الوعاء، وبين استنشاقات البخار قالت: "لقد حصلت النوبة الآن، وأنا نائمة. كدت أختنق حتى الموت. لذلك ذهبت إلى النافذة. لقد سبق ولي فعلت ذلك مرات عديدة من قبل، دون أن أوقظ أحداً. إن بيسي [إليزابيث]قد أصبحت عجوزاً حتى تخاف من مجرى الهواء! أقول لكم إني كنت أختنق حتى الموت. لم أستطع أن

أفتح المزلاج، وكدت أقع إلى الخارج. تلك النافذة منخفضة جداً. لقد جرحت يدي وأنا أحاول إنقاذ نفسي. من الذي ربطها لي بهذا المنديل القذر؟ كنت أتمنى لو كانت لك حنجرتي يا بيسي. لم أكن قط أقرب إلى الموت!" عبست تجاهنا جميعاً دون تحّيز، بينما راحت أختها تبكي.

من قاع السرير سمعنا صوتاً مرتجفاً: "هل ماتت؟ هل اصطحبوها بعيداً؟ أوه، لا أستطيع تحمل منظر الدم إطلاقاً!"

قالت الآنسة ماري: "آرثرز، أنت مرتزقة. ابتعدي!"

في اعتقادي أن آرثرز زحفت خارجاً على أطرافها الأربعة، ولكني كنت مشغولاً بالتقاط شظايا الزجاج المكسور من على السجادة.

ثم بدأ باكستر، الجالس قرب السرير، بالتحقيق معها بصوت لم أستطع تمييزه إلا بالكاد. لم يستطع شخص واحد أن يشك ولو لحظة واحدة بالغضب الحقيقي للآنسة ماري ضد أختها وابن خالتها وخادمتها. وأن الطبيب يجب أن يستدعى- فقد أسبغت علي شرف تسميتي طبيباً - وكان ذلك آخر الأمور. كانت تختنق من حنجرتها، واندفعت نحو النافذة طلباً للهواء. وكادت تسقط تقريباً، وخلال إمساكها بقضبان النافذة فقد جرحت يدها. وقد أوضحت هذا الأمر المرة تلو المرة لباكستر المصمم. ثم التفتت إلى أختها وجلدتها بلسانها بوحشية.

تلعثمت الآنسة بيسي أخيراً: "ليس عليك أن تلوميني. أنت تعرفين ما نفكر فيه ليل ونهار."

قال باكستر: "سأصل إلى هذا الأمر. اسمعيني. ما فعلته يا ماري ضلّل أربعة أشخاص فظنوا أنك... أردت أن تنتحري."

صرخت: "ألا يكفي انتحار واحد في الأسرة؟ أوه، فليساعدنا الرب

ويرحمنا! ما كنت لتصدق ذلك!"

"كان الدليل كاملاً. ما رأيك؟" اهتز أصبع باكستر تحت أنفها..." ألا يمكنك أن تفكري في أن آغي المسكينة فعلت الشيء نفسه في هولمزكروفت حين سقطت من النافذة؟ "

"كانت لها الحنجرة نفسها"، قالت الآنسة إليزابيث. "الأعراض نفسها بالذات. ألا تتذكرين يا ماري؟"

"أي غرفة كانت غرفة نومها" سألت باكستر بلهجة خفيفة.

"فوق الشرفة الجنوبية، وتطل على مرج التنس."

قلت: "كدت أسقط من تلك النافذة بالذات عندما كنت في هولمزكروفت...حين فتحتها من أجل أن يدخل الهواء. لم تكن حافتها ترتفع كثيراً عن ركبتيك."

"أتسمعين هذا يا ماري؟ يا ماري، هل تسمعين ما يقوله هذا السيد؟ ألا تصدقين أن ما كاد يحدث لك تقريباً قد جرى لا بدّ لآغي المسكينة في تلك الليلة؟ لأجل الرب- لأجلها هي - يا ماري، ألن تصدقي؟"

ساد صمت طويل بينما راح الإبريق البخاري ينفث البخار.

"لو كان لدي برهان... لو كان لدي برهان"، قالت ثم راحت تبكي بدموع رهيبة.

أشار باكستر إليّ وزحفت بعيداً نحو غرفتي، ثم تمددت مستيقظاً حتى الصباح، مفكراً على نحو خاص بـ "الشيء" الأبكم في هولمزكروفت الذي كان يرغب في تفسير نفسه. كرهت الآنسة ماري وكأني عرفتها منذ عشرين عاماً، ولكني شعرت أنها، سواء كانت حية أو ميتة، فلن

أريدها أن تدينني.

ولكن في منتصف النهار، حين رأيت الآنسة ماري في كرسي المرضى، وآرثرز من خلفها وباكستر والآنسة إليزابيث على جانبيها، في الأرض المحيطة الأشبه بالمنتزه والخاصة بالمصح المائي، فقد وجدت أنه من الصعب ترتيب كلماتي.

"والآن بعد أن أصبحت تعرف كل شيء حول الأمر"، قال باكستر جانباً، بعد زوال أول غربة للقائنا، "فإنه من العدل أن أخبرك أن ابنة خالتي المسكينة لم تمت في هولمزكروفت إطلاقاً. لقد ماتت حين وجدوها تحت النافذة في الصباح. كانت ميتة."

"تحت شجرة اللابورنوم خارج النافذة؟" سألت، فقد تذكرت فجأة ذلك الشيء المعوج الشرير.

"بالضبط. لقد حطمت الشجرة خلال سقوطها. ولكن لم يحدث أي وفاة في المنزل، فيما يخصنا نحن. كانت الألف جنيه الإضافية للسيد ملويد لقاء ما سماه ((فاتورة الصحة النظيفة))، فكانت شيئاً متعلقاً بالعقار الخاص ببنات خالتي حين بعناه. كان من واجبي كمحاميهن أن أحصل لهن عليه... ولقاء أي ثمن أدفعه من صحتي."

كنت على إطلاع جيد بحيث لم أجادل حين يتحدث الإنكليز حول واجبهم. لذلك وافقت على رأي محاميّ.

تابعت قائلاً: "لا بدّ أن وفاة أختهما كان ضربة قوية لهما." كان كرسي المرضى من خلفي.

همس باكستر: "إلى حد لا يوصف. لقد راحتا تتأملان في هذا الموضوع ليلاً ونهاراً. ولا عجب في ذلك. لو كانت نظريتهما عن أن

آغي المسكينة قد انتحرت صحيحة، فقد كان هذا يعني أنها قد فُقدت إلى الأبد."

"هل تعتقد أنها انتحرت؟"

"كلا، والحمد لله! لم أعتقد ذلك قط! وبعد ما حدث لماري في الليلة الماضية، فأنا أرى تماماً ما قد حدث لآغي المسكينة. لقد كانت لديها حنجرة العائلة ذاتها أيضاً. وبالمناسبة، فإن ماري تعتقد أنك طبيب. ولولا ذلك لما كانت ستحبب وجودك في غرفتها."

"جيد جداً. هل هي مقتنعة الآن حول موت أختها؟"

"إنها مستعدة لإعطاء أي شيء لتصدق ذلك، ولكنها امرأة قاسية، والتفكير على امتداد خطوط معينة يجعل المرء روتينياً في مزاجه. لقد خشيت أحياناً على عقلها... من الناحية الدينية، ألا تعرف. إليزابيث لا أهمية لها. عقل دجاجة. هكذا كانت دائماً."

وهنا استدعتني آرثرز إلى كرسي المرضى والوجه المنهك تحت قبعة صوف شتلاند المحبوكة الخاصة بالآنسة مولتري.

"ليست هناك حاجة إلى تذكيرك كما آمل بواجب السرية - السرية المطلقة - في مهنتك"، هكذا بدأت. "وبفضل غباء ابن خالتي وأختي، فقد اكتشفت الأمر..." ثم تمخطت.

قالت آرثرز من الخلف: "أرجوك لا تثرها يا سيدي."

"ولكن يا عزيزتي الآنسة مولتري، أنا أعرف ما شاهدت فحسب، ولكن يبدو لي أن ما ظننته مأساة في حالة أختك تبين أنه حسب برهانك أنت، إذا جاز التعبير، كان مجرد حادث-حادث حزين إلى حد رهيب- ولكنه حادث على نحو مطلق."

صرخت: "وهل تعتقد أنت ذلك أيضاً أم تحاول فحسب مواساتي؟"

" أؤمن بذلك من أعماق قلبي. هيا اذهبي إلى هولمزكروفت لمدة ساعة واحدة - أو نصف ساعة - وبدّدي الشك بنفسك."

"بماذا؟ أنت لا تفهم. أرى ذلك المنزل كل يوم... كل ليلة. أنا دائماً هناك بروحي... سواء كنت أمشي أو أنام. لم أستطع مواجهته في الواقع."

قلت: "ولكن عليك مواجهته. لو ذهبت إلى هناك بالروح فإن الحاجة الأعظم لك هو أن تذهبي بالجسد. اذهبي إلى غرفة أختك مرة أخرى وانظري إلى الشباك ... لقد كدت أسقط منه أنا نفسي... إنه منخفض وخطير جداً. وهذا سيقنعك." هكذا توسلت.

"أجل. لقد نامت آغي في تلك الغرفة سنوات بحالها"، هكذا قاطعتني.

"لقد نمت في غرفتك هنا مدة طويلة، أليس كذلك؟ ولكنك كدت تسقطين من النافذة حين أحسست بالاختناق."

"هذا صحيح. هذا شيء واحد صحيح." أومأت برأسها. "وكان يمكن لي أن أُقتل كما قُتلت - على الأرجح - آغي."

"ولو جرى ذلك لظنت أختك وابن خالتك وخادمتك أنك قد انتحرت يا آنسة مولتري. تعالي إلى هولمزكروفت وعودي إلى المكان نفسه مرة واحدة."

قالت بهدوء: "أنت تكذب. لا تريدني أن اذهب إلى هناك لأشاهد نافذة. إنه شيء ما آخر. أحذرك من أننا إنجيليون. نحن لا نؤمن بالصلاة على الموتى. ((حين تسقط الأشجار...))"

"أجل. أعتقد ذلك. ولكنك تلحين على التفكير بأن أختك قد انتحرت."

"كلا! كلا! لقد توسلت دائماً أن أكون أسأت في الحكم عليها."

تحدثت آرثرز من قرب كرسي المرضى: "أوه، يا آنسة ماري! لقد ظننت من البداية أن الآنسة آغي قد انتحرت. وبالطبع أخذت الآنسة بيسي الفكرة منك. أما السيد جون فقد رفضها، وكان من شأني أنا أن أقسم اليمين على الكتاب المقدس بأنك كنت قد انتحرت في الليلة الماضية."

اتكأت الآنسة ماري نحوي وأحد أصابعها في كمي.

قالت: "إن كان الذهاب إلى هولمزكروفت يقتلني فسيكون اغتيال زميلة لك في الإنسانية عبئاً على ضميرك إلى الأبد."

أجبتها: "سأخاطر بذلك". وإذ تذكرت العذاب الذي يلقيه مجرد انعكاس عذاباتها على هولمزكروفت، وتذكرت على الأخص "الشيء" الأبكم الذي كان يملأ المنزل برغبته في النطق، فقد أحسست أنه قد تكون هناك أمور أسوأ.

دهش باكستر من الزيارة المقترحة، ولكنه بإيماءة من تلك المرأة الرهيبة انطلق للقيام بالإجراءات. ثم أرسلت برقية إلى ملويد أطلب إليه وإلى أسرته أن يخلوا هولمزكروفت فترة العصر من ذلك اليوم. ستكون الآنسة ماري لوحدها وأختها المتوفية، كما كنت لوحدي.

توقعت مشاكل لا تعد ولا تحصى في نقلها، ولكن لو أنصفناها لقلنا إنها أنجزت وعدها بالقيام بالرحلة دون تذمر أو نوبة أو كلمة غير ضرورية. وكانت الآنسة بيسي، وقد انحشرت في زاوية قرب النافذة، قد

راحت تبكي خلف خمارها وتحاول بين الفينة والأخرى أن تمسك بيد أختها. لف باكستر نفسه في سعادته التي وجدها مجدداً بأنانية كأنانية عريس، فقد جلس صامتاً وراح يبتسم.

قال: "طالما عرفت أن آغي لم تنتحر، أقول لك بصراحة إني لا أكترث بما حدث. إنها قاسية كالصخر... ماري تلك، كانت هكذا على الدوام، لن تموت."

قدناها نحو المصطبة مثل امرأة عمياء ثم أدخلناها إلى المركبة الخفيفة. استغرق الزحف نحو هولمزكروفت نحو نصف ساعة ولكنه كان أكثر تجارب اليوم إيلاماً. لقد أطاع ملويد تعليماتي. لم يكن هناك شخص تقع عليه الأنظار في المنزل أو الحديقة. وكانت الباب الأمامي مشرعاً.

نهضت الآنسة ماري من مكانها قرب أختها وتقدمت أولاً ثم دخلت البهو.

صرخت: "تعالي يا بيسي."

"لا أجرؤ أوه، لا أجرؤ."

"تعالي!" تغير صوتها. أحسست بباكستر يجفل. "لا شيء تخشينه."

قال باكستر: "يا للسماء! إنها تصعد الدرج جرياً. الأفضل أن نتبعهما."

"فلننتظر في الأسفل. إنها ذاهبة إلى الغرفة."

سمعنا باب غرفة النوم التي أعرف يفتح ثم يغلق، وانتظرنا في القاعة ذات اللون الليموني، التي أثقلت جوها رائحة الأزهار.

"لم أدخل إلى هنا منذ أن بيع المنزل." تنهد باكستر. "يا له من مكان جميل مريح! لقد اعتادت آغي المسكينة أن ترتب الأزهار."

"مريح؟" هكذا بدأت أقول ولكني توقفت فجأة، فقد أحسست من فوق روحي المليئة بالكدمات أن باكستر كان ينطق بالحقيقة. كان منزلاً مضاء واسعاً مهوّى مليئاً بحس الغنى والسلام وبالسلام على الأخص. دخلت إلى غرفة الطعام حيث كان ملويد حسن الاهتمام قد ترك ناراً صغيرة موقدة. لم يكن هناك رعب حاضر أو متوصد. وفي غرفة الجلوس والتي لم نهتم بدخولها لأسباب جيدة، كانت الشمس والأمان ورائحة الزهور تعمل معاً كما هو ملائم في منزل مسكون. حين عدت إلى القاعة، فإن باكستر كان ينام بعذوبة فوق أريكة، ولا يبدو مثل محام في منتصف العمر قضى ليلة مضطربة مع ابنة خالة كثيرة المطالب.

كان هناك وقت كاف لمراجعة الأمر كله... أن أهنئ نفسي على فطنتي العظيمة (باستثناء بعض الأخطاء حول باكستر كلص وربما كقاتل)، قبل أن يفتح الباب فيستيقظ باكستر قافزاً ويبدو أنه ذو نوم خفيف.

قال وهو يفرك عينيه بظاهر يديه مثل طفل: "لقد نلت غفوة قصيرة سماوية". يا للرب الطيب! ليست هذه خطواتهما!"

ولكنها كانت كذلك. لم يسبق لي أن حصلت على امتياز رؤية "الظل" يتحرك بعكس الساعة -السنوات التي تنتزع من الأكتاف البشرية الضعيفة - عيون غائرة عجوز ممتلئة ومشتعلة - شفاه جافة تبلّلت وأضحت بشرية.

نادت الآنسة ماري: "جون. أعرف الآن. لم ترتكب آغي ذلك! وقد

رددت الآنسة بيسي كالصدى: "لم ترتكب ذلك!" ثم قهقهت.

تابعت الآنسة ماري: "لم أعتقد أنه أمر خاطئ أن أتلو صلاة، ليس لأجل روحها ولكن لأجل سلامنا نحن. ثم اقتنعت."

رددت الأخت الأصغر بصوت حاد: "ثم حصلنا على الاقتناع."

"لقد أسأنا الحكم على آغي المسكينة يا جون. ولكني أشعر أنها تعرف الآن. وحيثما تكون فهي تعرف أننا نعرف أنها بريئة."

قالت الآنسة إليزابيث: "أجل، تعرف. لقد شعرت أنا بذلك أيضاً."

"لم أشك بذلك قط"، قال جون باكستر الذي كان وجهه جميلاً في تلك الساعة. "منذ البداية. لم أشك قط!"

"لم تقدم لي أي برهان قط يا جون. والآن، الحمد لله، لن يكون الأمر كما كان من قبل. أستطيع التفكير من الآن فصاعداً بآغي دون أسى". خطت برشاقة وسرعة عبر القاعة، أجل حدث هذا حقاً. "يا لها من أفكار لدى هؤلاء اليهود عن ترتيب الأثاث!" أبصرتني خلف مزهرية كبيرة ذات زخارف مجزعة.

قالت من بعيد: "لقد شاهدت النافذة. لقد خاطرت مخاطرة كبيرة إذ نصحتني بالقيام بهذه الرحلة. وعلى أي حال، وكما انتهت إليه الأمور.. فأنا أسامحك، وأتوسل ألا تعرف قط ما يعنيه الألم الذهني! بيسي، انظري إلى هذا البيانو العجيب! هل تعتقد أيها الطبيب، أن هؤلاء الناس سيعرضون علينا شرب الشاي؟ أفتقد إلى تناول الشاي."

قلت: "سأذهب وأرى"، ثم استكشفت جناح الخدم الجديد الذي بناه ملويد. كان ذلك في قاعة الخدم حين اكتشفت عائلة ملويد وهي تكاد تنفجر من القلق.

قلت: "شاي لثلاثة وبسرعة. إذا طرحتم أي أسئلة الآن، سأصاب بنوبة!" وهكذا حضرت السيدة ملويد الشاي وكنت أنا كبير الخدم، بين اعتذارات مهمهمة من باكستر الذي كان لا يزال يبتسم وهو مستغرق في التفكير، والرفض البارد للآنسة ماري، التي اعتبرت أن زخرفة الأوعية الصينية كانت من النوع المبتذل. وعلى أي حال فقد أكلت جيداً، بل أنها حتى سألتني إن لم أكن أحب تناول فنجان شاي أنا نفسي.

غادروا في الغسق. الغسق الذي كنت أخشاه. كانوا ذاهبين إلى فندق في لندن للراحة بعد متاعب النهار، وحين وصلت عربتهم إلى نهاية الممر، وثبت مرحاً على عتبة الدار والمنزل المعتم كله ورائي.

ثم سمعت وقع الأقدام غير الواثقة لآل ملويد وأمرتهم ألا يشعلوا الأنوار، بل أن يستشعروا...أن يستشعروا ما فعلته. فقد كان "الظل" قد رحل، مع الرغبة البكماء المتواجدة في الهواء. وقد استنشقوا الهواء أولاً بحذر ثم راحوا يستنشقونه بعمق مثلما يفعل المستحمون الذين يدخلون الماء البارد، وانفصل الواحد منهم عن الآخر، وراحوا يتنقلون في أرجاء القاعة أو يصعدون إلى الطابق العلوي على رؤوس أصابعهم، أو يتسابقون نزولاً، ثم عانقتني الآنسة ملويد وأعتقد أمها أيضاً، رغم أنها تنكر هذا. أعرف أن السيد ملويد فعل ذلك.

كانت أمسية مثيرة للاستياء. أن نقول إننا عربدنا عبر المنزل سيكون تعبيراً ملطفاً. لقد لعبنا نوعاً من لعبة "الغميضة" على امتداد الممرات الأشد عتمة، وفي غرفة الجلوس غير المضاءة، وغرفة الطعام الصغيرة، ونحن ننادي بمرح أحدنا الآخر بعد كل اكتشاف بأن المشكلة قد زالت من هنا وهناك. وصلنا إلى غرفة النوم... غرفتي في الليل ثانية –

وجلسنا: المرأتان على السرير والرجلان على الكراسي، ونحن نتجرع سلام وراحة ونظافة الروح، بينما رحت أحكي لهم حكايتي بالكامل. تلقيت الجديد من المديح والشكر والتبريكات.

حين عاد الخدم من نزهتهم لذلك اليوم قدموا لنا العشاء المؤلف من سمك مقلي بارد. كان لدي ملويد ما يكفي من النباهة فلم يفتح أي زجاجة نبيذ. فقد كنا ثملين عملياً منذ أن هبط الليل وقد فقدنا تماسكنا من شرب الماء والحليب.

قال ملويد: "أحب باكستر ذاك. إنه رجل ذكي. لم تكن الوفاة داخل المنزل، ولكنه أدار العملية بإحكام، أليس كذلك؟"

قلت: "والنكتة هي أنه يفترض بي أني أريد شراء المنزل منكم. هل تبيعون؟"

قال ملويد: "الآن ليس بضعفي السعر الذي دفعته ثمناً له. سأبقى أقدم لك الفراء طوال حياتك. ولكن ليس هولمزكروفت خاصتنا."

قالت الآنسة ملويد: "كلا... ليس هولمزكروفت خاصتنا. سندعوه إلى هنا يوم الثلاثاء يا أمي." ثم ضغطوا على أيدي بعضهم البعض.

قالت السيدة ملويد: "والآن أخبرني... تلك المرأة الطويلة التي رأيتها من نافذة حجرة غسل الأطباق... هل أخبرتك أنها كانت دائماً هنا بالروح؟ أكرهها. هي التي سببت كل هذه المشاكل. لم يكن المنزل منزلها بعد أن باعته. ما رأيك؟"

أجبت:" أفترض أنها كانت تتأمل فيما اعتقدت أنه انتحار أختها ليلاً ونهاراً.. .لقد اعترفت بذلك... وكانت أفكارها المتمركزة على هذا المكان، تعطي إحساساً أشبه بالزجاج المشتعل."

قال ملويد: "الزجاج المشتعل تعبير جيد."

"قلت إنه كان أشبه بنور من السواد ثم توجيهه إلينا"، صرخت الفتاة وهي تدور خاتمها. "لا بد أن ذلك حدث حين كانت تلك المرأة الطويلة تفكر بأسوأ الأمور حول أختها وهذا المنزل."

"آه، آغي المسكينة!" قالت السيدة ملويد. "آغي المسكينة، كانت تحاول أن تحكي لكل شخص أن الأمر لم يكن كذلك! لا عجب أننا كنا نشعر بشيء ما يرغب بقول شيء ما. ثيا، ماكس، هل تتذكران تلك الليلة...؟"

قاطعها ملويد قائلاً: "لا داعي للتذكر بعد الآن. ليس هذه مشكلتنا. لقد تخاطبن فيما بينهن."

قالت الآنسة ملويد: "هل تعتقد إذن أن الامرأتين، اللتين لا تزالان على قيد الحياة، قد أبلغتا بشيء ما -هناك في الطابق العلوي – في غرفتك... أعني في الغرفة؟"

"لا أعرف. وعلى أي حال فقد كانتا سعيدتين وتناولتا وجبة شاي كبيرة لاحقاً. وكما يقول والدك، فهذه لم تعد مشكلتنا الآن...والحمد لله على ذلك!"

قال ملويد: "آمين! والآن يا ثيا هيا نعزف بعض الموسيقى بعد كل هذه الأشهر. « بمرح أيتها الطائر الصغير»، أليس كذلك؟ عليك أن تسمع تلك الأغنية."

وفي القاعة نصف المضاءة غنت ثيا أغنية إنكليزية قديمة لم يسبق لي أن سمعتها:

((بمرح أيها الطائر الصغير، افرح
وعزز الحمد لبارئك.
ارفع صوتك الحاد والجميل
فربك سام جداً.
فقد قدم لك الطعام من قبل
وهو يمنحه على نحو ملائم،
بحيث تكون مكتفياً!
فلماذا تكون الآن مزعجاً
ولماذا تشن حقدك على الرب،
لأنه خلقك طائراً صغيراً،
ولماذا تعذب رأسك الأحمق،
لأنه لم يخلقك بشراً؟
أوه، فليحل السلام! لقد فكر هو جيداً
بالأمر، لذا عليك أن تكون قانعاً))

سهل مثل أ.ب.ج.

(١٩١٢)

تتحكم (أ.ب.ج.)، تلك الهيئة نصف المنتخبة ونصف المعينّة من بضع عشرات من الأشخاص، تتحكم بالكوكب. "النقل حضارة"، هذا هو شعارنا. نظرياً نفعل ما نريد طالما كنا لا نتدخل بالسير وكل ما يتضمنه. عملياً تثبت أ.ب.ج. أو تلغي كل الإجراءات الدولية، وللحكم عليها من آخر تقرير لها، فإنها تجد كوكبنا المتسامح المرح الكسول الصغير جاهزاً جداً لنقل كامل عبء الإدارة العامة إلى كاهله.

"مع بريد الليل"[١]

ألم يحن الوقت لكوكبنا حتى يبذل بعض الاهتمام في إجراءات "الهيئة الجوية للرقابة؟"[٢] يعرف المرء أن الاتصالات السهلة اليوم، وعدم توفر الخصوصية في الماضي، قد قتلا كل الفضول لدى البشر، ولكني بحكم عملي كمقرر للهيئة الجوية للرقابة فأنا مضطر إلى قص حكايتي.

في الساعة ٩,٣٠ صباحاً من يوم السادس والعشرين من آب (أغسطس) من عام (٢٠٦٥)، فإن الهيئة التي يقع مركزها في لندن، قد أبلغها دي فورست أن منطقة شمالي إلينوي قد فصلت كل الأنظمة وكانت ستبقى مفصولة حتى تستلم الهيئة زمام الأمور وتديرها مباشرة.

---

(١) (أفعال وردود أفعال).

(٢) الأحرف الأولى من اسم هذه الهيئة بالإنكليزية هي .A.B.C (المترجم)

كان كل برج للشحن والركاب في إلينوي الشمالية عاطلاً عن العمل كما أفاد. كل أنوار المنطقة الأساسية والمحلية والتوجيهية كانت قد أطفئت، وكل الاتصالات العامة بكماء، والسير المباشر قد جرى تحويله. لم يُعطَ أي سبب، ولكنه علم على نحو غير رسمي من محافظ تشيكاغو أن "المنطقة" تشكو من "ازدحام وانتهاك للخصوصية".

في واقع الأمر، لم يكن أمراً مهماً سواء بقيت إلينوي الشمالية داخل أو خارج الدارة الكوكبية. أما من وجهة النظر السياسية، فإن أي شكوى تتعلق بانتهاك الخصوصية تحتاج إلى تحقيق مباشر، وإلا تبع ذلك ما هو أسوأ.

في الساعة ٩,٤٥ صباحاً فوّض دي فورست ودراغوميروف (روسيا) وتاكاهيرا (اليابان) وبيرولو (إيطاليا) بزيارة إلينوي و "باتخاذ الخطوات الضرورية لاستئناف حركة السير وكل ما يتضمنه ذلك". في الساعة العاشرة صباحاً كان مبنى البلدية فارغاً، والأعضاء الأربعة وأنا كنا على متن ما يلح بيرولو على تسميته "ابني الصغير بالمعمودية"... أي زورق "الفيكتور بيرولو" الجديد. يفضل كوكبنا أن يعرف فيكتور بيرولو كشخص متحمس لطيف أشيب الشعر ينفق وقته قرب "فوغيا"، مخترعاً أو مبتكراً سلالات جديدة من أشجار الزيتون الإسبانية-الإيطالية. ولكن هناك جانب آخر يتعلق بطبيعته: ألا وهو تصنيع اختراعات طريفة لم يكن "الفيكتور بيرولو" على الأرجح أقلها إدهاشاً. وكان لهذا الزورق عشرات من الأخوات من النوع نفسه تجسد آخر أفكاره. ولكنها ليست مريحة. إن زورق أ.ب.ج. لا ينطلق إلى الجو مرتفعاً شأن سفينة مسطحة، بل يندفع صاروخياً مثل "طائرة" أجدادنا،

ثم يصل إلى الارتفاع المطلوب بالسرعة القصوى منذ البداية. لذلك وجدت نفسي جالساً فجأة على الحضن الواسع ليوستاس أرنوت، آمر أسطول أ.ب.ج. يعرف المرء على نحو غامض أن هناك أسطولاً في مكان ما على ظهر الكوكب، وأنه يوجد نظرياً لأغراض ما كانت تعرف باسم "الحرب". قبل أسبوع فحسب، وبينما كنت أزور مصحة على نهر جليدي خلف غوتهافن، شاهدت بعض الأسراب تصنع شفقاً قطبياً مزيفاً بعيداً في الشمال بينما كانت تناور من حول القطب. ولكن بالطبع لم يخطر لي أن هذه االأشياء يمكن أن تستخدم جدياً.

قال أرنوت مخاطباً دي فورست وأنا أترنح لأجلس على أريكة غرفة رسم الخرائط: "نحن ممتنون إلى حد كبير لهم في إلينوي. لم يسبق أن أتيحت لنا الفرصة لجعل الأسطول كله يتدرب معاً. لقد أطلقت النفير العام وأتوقع أنه سيكون لدينا مائتا مركبة محلقة على الأقل هذا المساء".

"محلقة جيداً؟" سأل دي فورست.

"طبعاً يا سيدي. بعيداً عن الأنظار حتى يتم استدعاؤها."

ضحك أرنوت وهو يلف أوراق الخرائط الشفافة حيث كانت خريطة المحيط الأطلسي زرقاء اللون تنزلق درجة فدرجة، في تجاوب دقيق مع تقدمنا. كان قد سبق لمؤشرنا أن أظهر سرعة مقدارها (٣٢٠) ميلاً بالساعة وكنا على ارتفاع ألفي قدم فوق خطوط السير العليا.

"والآن أين منطقة إلينوي خاصتك تلك؟" قال دراغوميروف. "يسافر المرء كثيراً ليرى قليلاً جداً. أوه، تذكرت! إنها في أمريكا الشمالية."

لقد حكى لنا دي فورست المختص بمعرفة المناطق الخارجية أنها تقع

عند سفح بحيرة " ميتشيغان" على طريق لا يؤدي إلى مكان محدد، على مسيرة نصف ساعة من أولها إلى آخرها، باستثناء زاوية واحدة منبسطة كالبحر. وشأن معظم الدول المنبسطة في هذه الأيام، فقد كانت محروسة جيداً ضد انتهاك الخصوصية بالغابات القسرية... أشجار راتنجية وصنوبرية بارتفاع خمسين قدماً نمت خلال خمس سنوات. كان تعداد السكان مليونين تقريباً، وهم يرتحلون على الأغلب بين فلوريدا وكاليفورنيا، مع عمود فقري من المزارع الصغيرة (يسمون ألف آكر مزرعة في إلينوي) يأتي مالكوها إلى تشيكاغو للتسلية وممارسة الحياة الاجتماعية خلال الشتاء. كانوا كما قال أشخاصاً لطفاء وكرماء، ولكنهم كثيرو المطالب، كما هم سكان البلاد المنخفضة في أفكارهم عن الخصوصية. ولم يكن هناك مثلاً أي صحيفة مطبوعة في إلينوي مدة سبع وعشرين سنة. وقد جادلت تشيكاغو أن آلات الطباعة ستتطور عاجلاً أو آجلاً لتصبح آلات انتهاك للخصوصية، وهذا بدوره قد يعيد الرعب القديم للحشود والابتزاز إلى الكوكب. لذلك لم تكن هناك صحف.

ختم دي فورست كلامه قائلاً: "وهذه إلينوي. ترون أنه في غابر الأيام كانت إلينوي في مقدمة ما اعتادوا على تسميته بـ ((التقدم))، وتشيكاغو..."

قال تاكاهيرا: "تشيكاغو؟ هذا المكان الصغير حيث يوجد تمثال ((سالاتي)) الذي يمثل زنجياً يحترق؟ إنه عمل فني قديم وجميل.

سأل دي فروست: "متى رأيته؟ إنهم لا يرفعون الستار عنه إلا مرة في العام."

"أعرف. في عيد يوم الشكر. حدث الأمر يومها"، قال تاكاهيرا وهو يرتجف. "وقد أنشدوا أغنية ماك دوناو أيضاً."

صفّر دي فورست عجباً. "لم أكن أعرف ذلك! أتمنى لو قلت لي ذلك سابقاً. ولكن ربما كان لأغنية ماك دوناو استخدامات أخرى حين نظمت في الماضي، إلا أنها كانت تراثاً جهنمياً لأي رجل يورثها."

"إنها غريزة وقائية يا أعزائي"، قال بيرولو وهو يلف سيجارة. "الكوكب قد تناول ما يكفي من جرعات الحكومة الشعبية. إنه يعاني من رهاب التربة المتوارث. لم يعد للكوكب مصلحة في الحشود."

انحنى دراغو ميروف إلى الأمام ليشعل له السيجارة. قال الروسي أبيض اللحية: "بكل تأكيد، لقد اتخذ الكوكب كل الاحتياطات ضد الحشود في المائة سنة الأخيرة. كم عدد سكاننا الإجمالي اليوم؟ ستمائة مليون، على ما آمل. خمسمائة مليون كما نعتقد. ولكن... ولكن لو كان إحصاء السنة القادمة سيظهر ما يزيد عن أربعمائة وخمسين، فأنا نفسي سألتهم كل الأطفال الصغار الزائدين. لقد قلصنا نسبة الولادات... على نحو حاسم! ولفترة طويلة قلنا للرب الكلي القدرة: "شكراً لك يا سيدي، ولكننا لا نحب كثيراً لعبة الحياة خاصتك، لذلك لن نلعب."

قال آرنوت بتحدٍ: "على أي حال، فإن معدل حياة الناس أصبح قرناً كاملاً للفرد الآن."

"أوه هذا جيد جداً! أنا غني...أنت غني... نحن جميعاً أغنياء وسعداء لأننا قلة ونعيش حياة طويلة. ولكني أعتقد فحسب أن الرب سيتذكر كيف كان الكوكب في زمن الحشود والوباء. ربما سيرسل لنا

مصادر هداية. ما رأيك يا بيرولو؟"

رمش الإيطالي نحو الفضاء. قال: "ربما سبق له وأرسلهم. وعلى أي حال لا تستطيع أن تجادل مع الكوكب. إنه لا ينسى الأيام الغابرة... ما الذي تستطيع فعله؟"

"لا شك أننا لا نستطيع إعادة خلق العالم." نظر دي فورست إلى الخريطة المتدفقة بنعومة عبر الطاولة من الغرب إلى الشرق. "علينا أن نكون فوق الأرض في التاسعة من مساء هذه الليلة. ولن يكون هناك نوم كثير بعد ذلك."

وقد تفرق شملنا بعد هذه الملاحظة، وقد نمت حتى أيقظني تاكاهيرا لأجل وجبة العشاء. لقد ظن أسلافنا أن نوماً لمدة تسع ساعات كان كافياً لحيواتهم الصغيرة. أما نحن الذين نعيش ثلاثين عاماً زيادة عليهم فنشعر أننا تعرضنا للخداع لو نمنا أقل من إحدى عشرة ساعة في كل أربع وعشرين ساعة.

في الساعة العاشرة كنا فوق بحيرة ميتشيغان. كان الشاطئ الغربي دون أنوار، باستثناء وهج أرضي باهت في تشيكاغو، ونور واحد موجّه للسير... كان شعاعه الأساسي يشير إلى الشمال... في واكيغان على قوس جانبنا الأيمن. لم تكن أي من قرى البحيرة تعطي أي علامة على وجود الحياة. وفي ناحية البر إلى الغرب، إلى أبعد حد استطعنا أن نراه، كان السواد سائداً على الأرض المستوية. انقضضنا وانزلقنا إلى ارتفاع منخفض عبر الظلام ونحن نزور الإقليم إثر الإقليم. بين الحين والآخر كنا نلتقط الوهج الضعيف الصادر عن نور أحد المنازل أو نسمع خفقة وضرب أداة العَزْق وهي تستخدم في الحقول، ولكن إلينوي الشمالية كانت

إجمالاً أرضاً مظلمة غير مأهولة على ما يبدو ومغطاة بالغابات القسرية المرتفعة. لم يكن يعطينا أي فكرة عن مكان تواجدنا سوى خريطتنا المضاءة ومؤشرها الصغيرة الذي كان ينتقل من إقليم إلى آخر، ونحن ننعطف ونتثنى. لم تكن نداءاتنا العاجلة المتوسلة المتملقة عبر أداة الاتصال العامة قد جلبت أي جواب. حافظت إيلينوي على خصوصيتها في الغابة التي زرعتها لهذا الغرض.

قال دي فورست: "هذا عجيب! نحن أشبه ببومة تحاول أن تدير حقل قمح. هل هذا ((نهر بورو))؟ فلنهبط ونمسك شخصاً ما."

لامسنا حزاماً من الغابات القسرية -أشجار القيقب المرتفعة ستين قدماً ويبلغ عمرها خمسة عشر عاماً - وهبطنا على رصيف مرج خصوصي، ليس كبيراً جداً، حيث استخدمنا مراسينا، وأسرعنا نخرج عبر الليل الدافئ المعتم نحو نور في شرفة. وحين اقتربنا من باب الحديقة كنت أستطيع أن أقسم أننا كنا قد غرقنا حتى الركب في رمال متحركة، فنحن كنا لا نكاد إلا بصعوبة نستطيع جرّ أقدامنا من التيارات الواخزة التي راحت تعيقها. وبعد خمس خطوات توقفنا ونحن نمسح جباهنا، عالقين دون أمل بالنجاة فوق خث ناعم جاف مثل بقرات في مستنقع.

صرخ بيرولو بغضب: "اللعنة. نحن عالقون في دارة أرضية. وهو نظامي الخاص من الدارات الأرضية أيضاً! أعرف طريقة جذبه."

قال صوت فتاة من الشرفة: "مساء الخير، أوه، آسفة! لقد أغلقنا المكان. انتظروا دقيقة."

سمعنا طقطقة مفتاح وكدنا نسقط مع سحب التيارات من حول أقدامنا.

ضحكت الفتاة، ووضعت حياكتها جانباً. كان جهاز تحكم قديم الطراز عند مرفقها، وكانت تعكسه بين الحين والآخر، وكنا قادرين على سماع شخير وصليل أداة العزق الطيعة على بعد نصف ميل، خلف الغابات الحارسة.

قالت: "ادخلوا واجلسوا. أنا ألعب فحسب بالمحراث. لقد ذهب أبي إلى تشيكاغو لأجل أن... آه! ثم جاء نداؤكم الذي سمعته للتو!"

كان قد شاهدت بزة أرنوت الرسمية الخاصة بالهيئة، فقفزت إلى المفتاح وأدارته ليعمل بكامل قوته.

وفي هذه المرة أوقفنا ونحن نلهث وقد غرقنا حتى خصورنا هذه المرة على بعد ثلاثة ياردات من الشرفة.

"لا نريد سوى أن نعرف ما خطب إلينوي"، قال دي فورست بهدوء.

أجابت: "إذن أليس الأفضل لكم أن تذهبوا إلى تشيكاغو وتروا بأنفسكم؟ لا شيء على خطأ هنا. نحن أسياد مصيرنا."

"كيف نستطيع الذهاب إلى أي مكان إن لم تحررينا؟" تابع دي فورست يقول بينما قطّب أرنوت جبينه. لا زال أمراء الأسطول بشراً حين تُمس كرامتهم.

"توقفوا دقيقة ... لا تعرفون كم تبدون مضحكين!" وضعت يديها على ردفيها وضحكت دون شفقة.

قال آرنوت: "لا تقلقي حول ذلك." ثم صفّر. أجاب صوت من جهاز "فيكتور بيرولو" في المرج.

صاح آرنوت: "مجرد دارة أرضية ذات صمام واحد! استخدميها بلطف من فضلك."

سمعنا دوي مصباح يتكسر. انفجر صمام في مكان ما من سقف الشرفة، مما أفزع عشاً مليئاً بالطيور. كانت الدارة الأرضية مفتوحة. انحنينا وفركنا كواحلنا التي راحت تدغدغنا.

صرخت الفتاة: "لكم هذا فظ... لكم هو فظ منكم!"

"آسفون، ولكن ليس لدينا الوقت لنبدو مضحكين"، قال آرنوت. "علينا الذهاب إلى تشيكاغو. ولو كنت في مكانك أيتها السيدة الشابة، كنت سأذهب إلى القبو خلال الساعتين القادمتين وكنت سأصطحب أمي معي."

سار مبتعداً ونحن على أعقابه، وهو يهمهم بغضب، حتى تبينت له فكاهة الأمر وجعلته يتلوى ضحكاً عند أسفل سلم الممر.

"لم تكن ((الهيئة)) قد أوضحت ما تريده في هذه المرة"، قال دي فورست وهو يمسح عينيه. "آمل أني لم أظهر كأحمق كبير كما ظهرت أنت يا آرنوت! هلو! ما ذاك؟ هل يعود أبوها من تشيكاغو؟"

كانت هناك قعقعة واندفاع ثم انطلقت آلة زراعية ذات خمسة محاريث وشفراتها في الهواء مثل أسنان كثيرة، نحونا من حول حافة الغابة، وهي ترسل الدخان وترمي الشرر بجنون.

قال آرنوت ونحن نقحم أنفسنا عبر الباب غير الواسع: "اقفزوا لا تهتموا بإغلاقه. عالياً!"

ارتفع زورق "فيكتور بيرولو" كفقاعة، واندفعت الآلة الشريرة من تحتنا، وهي تنشر مخالبها عالياً خلال مرورها.

قال آرنوت وهو ينفض الغبار عن ركبتيه: "يا لها من هرة صغيرة لطيفة! نطرح عليها سؤالاً مهذباً. أولاً تسلط علينا الدارة ثم ترسل بآلة

زراعية تطاردنا!"

قال دراغوميروف: "ثم نطير. لو كنت أصغر بأربعين عاماً، لعدت وقبلتها. هو! هو!"

قال بيرولو: "أنا كنت سأصفعها صفعة مدوية! زورقي المدلل يطارده محراث قذر! ما اسمه: أداة زراعية؟"

قال دي فورست: "هذه إلينوي مجدداً. إنهم لا يقنعون أنفسهم بالكلام حول الخصوصية بل يحتاطون للحصول عليها. والآن، أين أسطولك المزعوم يا آرنوت؟ علينا أن نضمن أنفسنا ضد هذه الفتاة."

أشار آرنوت إلى السماء المظلمة.

قال: "إنه ينتظر...هناك عالياً". هل أعطيهم التجهيزات كلها يا سيدي؟"

قال دي فورست: "أوه، لا أعتقد أن الشابة تستحق ذلك بالضبط. تجاوز تشيكاغو وربما سنرى شيئاً ما."

خلال دقائق قليلة كنا معلقين على ارتفاع ألفي قدم فوق كتلة مستطيلة من التوهج الحراري في مركز المدينة الصغيرة.

قال تاكاهيرا: "يبدو ذلك كمبنى بلدية المدينة القديمة. أجل، هاهو تمثال سالاتي مقابله. ولكن ما الذي يفعلونه بالمكان؟ اعتقدت أنهم كانوا يستخدمونه كسوق في هذه الأيام! اهبط قليلاً من فضلك."

استطعنا أن نسمع فرقعة وقرقعة آلات تعبيد الطرق - النوع الغربي الرخيص الذي يدمج الحجر والنفايات محولاً إياها إلى زجاج معرّق أشبه بالحمم يستخدم لطرقاتهم الريفية القاسية. كانت ثلاث أو أربع آلات تسوية السطح تعمل على كل جانب من جانبي مربع من الخرائب. كان

حطام الآجر والحجر قد انهار وانزلق إلى الأمام وانتشر حالياً في برك حارة من الخبث الدبق كانت قضبان التسوية تسطّحه. كان قد سبق لثلث الكتلة أن عولج على هذا النحو، وقد راح يبرد ليتحول إلى لون أحمر كامد أمام أعيننا المندهشة.

قال دي فورست: "إنها السوق القديمة. حسناً، لاشيء هناك يمنع إلينوي من شق طريق سوق. هذا لا يتدخل بالسير، كما أستطيع أن أرى."

قال آرنوت وهو يمسكني من الكتف: "اسمع! إنهم يغنون. لم يغنون يا ترى؟"

هبطنا ثانية حتى استطعنا أن نرى الحافة السوداء للناس عند طرف مربع متوهج.

في البداية كانوا يهدرون فحسب ضد هدير آلات التسوية والتمهيد. ثم صعدت الكلمات واضحة - كلمات "الأغنية المحظورة" التي يعرفها كل الناس، ولم يكن أحد يجرؤ على التلفظ بها - أغنية بات ماك دوناو المسكين التي نظمت في أيام الحشود والوباء - كل كلمة حمقاء من كلماتها محملة حتى نقطة انطلاق الشرر بذكريات الكوكب المتوارثة عن الريبة والخوف والهلع والقسوة. وكانت تشيكاغو-تشيكاغو البريئة القانعة الصغيرة - تنشدها عالياً على النغم الجهنمي الذي يحمل التمرد والوباء والجنون من حول كوكبنا قبل قرون.

((ذات مرة كان هناك الشعب - وقد ولده "الرعب".

ذات مرة كان هناك الشعب، وقد صنع جحيماً على الأرض!))

ثم ضربوا الأرض بالأقدام وتوقفوا:
((نهضت الأرض وسحقته. اسمعوا أيها القتلى!
ذات مرة كان هناك الشعب - ولن يكون مجدداً!))

اندفع عمال التسوية يعملون بوحشية ضد الخرائب بينما راحت الأغنية تجدد نفسها مرة ثانية، ثم أخرى وأخرى، بصوت أعلى من صوت انهيار الجدران المنصهرة.

قطّب دي فورست جبينه.

قال: "لا أحب هذا. لقد عادوا إلى الأيام الغابرة! سيقتلون شخصاً ما سريعاً. أعتقد أن علينا أن نشغلهم ونحول انتباهم يا آرنوت."

"أجل، أجل يا سيدي"، رفع يده إلى قبعته وسمعنا جسم "فيكتور بيرولو" يرن بالأمر التالي: "مصابيح! فليقف الحارسان كلاهما جانباً! مصابيح! مصابيح! مصابيح!"

همس تاكاهيرا إليّ: "ابق هادئاً! الأضواء الوامضة من فضلك أيها الرئيس!"

"حسناً! حسناً!" قال بيرولو من الخلف، ما سبب لي الرعب كان سقوط نوع من القبعة المطاطية من فوق رأسي والتي كانت تقفل بصوت حاد. استطعت أن أشعر بعقد غروية سميكة أمام عيني، ولكني كنت أقف في عتمة مطلقة.

"لإنقاذ البصر"، هكذا شرح لي، ثم دفعني نحو أريكة حجرة الخرائط. "ستبصر خلال دقيقة."

وبينما كان يتكلم أصبحت مدركاً لخيط رفيع من نور لا يمكن

احتماله تقريباً، وقد هبط من السماء على مسافة هائلة - نور عمودي نحيل كالشعرة من البرق المجمد.

"هذه هي سفننا المهاجمة"، قال آرنوت عند مرفقي. "تلك السفينة فوق غالينا. انظر جنوباً- تلك الأخرى فوق كايشبورغ. فنسان خلفنا، وإلى الشمال هناك غابات ونشروب. الأسطول في الوضعية الصحيحة يا سيدي" - وهذا قيل لدي فورست. "ما أن تعطي الأمر."

"آه كلا! كلا!" صرخ دراغوميروف إلى جانبي. استطعت أن أشعر بأن الرجل العجوز كان يرتجف. "لا أعرف كل ما تستطيع فعله، ولكن كن رحيماً! أطلب إليك أن تكون رحيماً مع الناس هناك في الأسفل! هذا رهيب - رهيب!"

((حين تذبح امرأة دجاجة،
تصاب السلالات الملكية والامبراطوريات بالغثيان.))

قال تاكاهيرا: "لم يعد الوقت ملائماً لإظهار الرحمة."

"إذن اخلعوا عني خوذتي. اخلعوا عني خوذتي"، راح دراغوميروف يصرخ بهيستيرية.

لابد أن بيرولو وضع ذراعه من حوله.

قال: "صه أنا هنا. الأمر على ما يرام يا إيفان يا صديقي."

قال آرنوت: "كل ما سأفعله هو أن أرسل إلى فتاتنا الصغيرة في مقاطعة بورو تحذيراً. إنها لا تستحقه، ولكننا سنسمح لها بدقيقة أو اثنتين حتى تصطحب أمها إلى القبو."

في الصمت المطبق الذي تلى الشرارة الهادرة بعد أن أوصل آرنوت جهاز اتصاله مع الأسطول غير المرئي، سمعنا أغنية ماك دوناو من المدينة في الأسفل وهي تخبو تدريجياً ونحن نصعد إلى الوضع المطلوب. ثم وضعت يدي أمام عدسات قناعي، لأن الأمر بدا وكأن أرضية السماء كانت قد امتلأت بالثقوب وراح كل وهج الشموس غير الممكن إدراكها ينصب عبر الثقوب.

قال آرنوت: "لا داعي للعدّ". لم أكن أفكر في ذلك. "هناك مئتان وخمسون سفينة هناك، كل واحدة تبعد خمسين ميلاً عن الأخرى. القوة العظمى من فضلك لاثنتي عشرة ثانية."

كانت السماء، على مد البصر، تقف على أعمدة من النار البيضاء. سقط أحدها على الساحة المتوهجة في تشيكاغو وحولها إلى اللون الأسود.

"أوه! أوه! أوه! هل يسمح للرجال بارتكاب مثل هذه الأمور؟" صرخ دارغوميروف وسقط على ركبتيه.

قال تاكاهيرا للشكل المرتدي الخوذة الذي قفز إلى الأمام: "كأس ماء. لقد أصيب بوهن."

أطفئت الأنوار وحط الظلام كانهيار ثلجي. استطعنا أن نسمع أسنان دراغوميروف تصطك على حافة الكأس.

كان بيرولو يواسيه.

كان يكرر: "حسناً، حسناً. تعال واضطجع. تعال إلى الأسفل واخلع قناعك. أعدك أيها الصديق القديم بأن الأمر على ما يرام. هذه أنوار الحصار خاصتي. أنوار فيكتور بيرولو الصغيرة. أنت تعرفني. أنا لا

أؤذي الناس."

أنّ دراغوميروف: "عفواً! لم يسبق لي أن رأيت ((الموت)). لم يسبق لي أن رأيت ((الهيئة)) وهي تشرع في عمل ما. هل سنهبط ونحرقهم أحياء أو أن هذا قد سبق وجرى؟"

قال بيرولو: "اصمت". وأعتقد أنه كان يهدهده بين ذراعيه.

وجه آرنوت السؤال إلى دي فورست: "هل نكرر يا سيدي؟"

أجاب دي فورست: "امنحهم استراحة لمدة دقيقة. ربما يحتاجونها."

انتظرنا دقيقة، ثم عادت أغنية ماك دوناو، متقطعة إنما متحدية، لتصعد من تشيكاغو التي لم تهزم.

قال دي فورست: "يبدون مغرمين بذلك اللحن. سأجعلهم يذوقونه يا آرنوت."

"حسناً يا سيدي"، قال آرنوت وتحسس طريقه نحو مفاتيح جهاز الاتصال.

لم تنطلق أي أنوار، ولكن تجويف السماء تحول إلى فم للحن واحد لمس النسيج الفج للدماغ. يسمع الناس مثل هذه الأصوات في حالة الهذيان، متقدماً مثل تيارات من آفاق تقع إلى ما وراء صدور الشواطئ المسطّرة للفضاء.

قال آرنوت: "هذا مزمار نغمنا. قد نكون قليلي الإتقان. لم يسبق لي أن قدت مائتين وخمسين عازفاً من قبل." أخرج المقرنة وضرب نغمة كاملة على أجهزة الاتصال الخاصة بالخدمة .

عادت حزمات النور للقفز إلى الأسفل مجدداً ورقصت، بوقار وعلى نحو مثير للرعب، رقصة طويلة الساقين مجتاحة ثلاثين أو أربعين ميلاً

يساراً ويميناً عند كل رفسة من ساق متيبسة، بينما خلصت الظلمة - لا ميزان هناك لقياس ذلك الكلام - نفسها من اللحن الذي يقيسون به الزمن. بعض الأنغام - يتعلم المرء أن يتوقعها برعب - تخترق نقيّ العظام، ولكن بعد ثلاث دقائق، فإن الفكر والعاطفة ينتقلان إلى ألم لا يوصف.

رأينا وسمعنا، ولكنني أعتقد أننا كنا في نوع من الإغماء. انتقلت الحزمات المائتان والخمسون وتشكلت من جديد، انتشرت وانفصلت، ضاقت واتسعت، تموجت في شرائط، انفرطت لتصبح ألف خط حار متواز، انصهرت ودارت في حلقات متداخلة مثل إدارة المحرك قديم الطراز، صعدت نحو السمت، تظاهرت بأنها تهبط وتجدد العذاب، توقفت في اللحظة الأخيرة، أطلقت نوراً من حول الأفق ثم اختفت لتعيد للمرة المائة عتمة أكثر تحطيماً من نورها المتجدد تواً فوق إلينوي كلها. ثم توقف اللحن والأنوار معاً، وسمعنا نواحاً مدمراً هزّ كل الأفق كما يهز أصبع رطب مفروك حافة وعاء.

قال بيرولو: "آه، هذه هي صفارة إنذاري الجديدة، تستطيع أن تفلق جبلاً جليدياً من منتصفه لو استطعت أن تجد الدرجة الصوتية الصحيحة. سيصفّرون بالأسراب الآن. إنها الريح عبر أغطية مثقوبة في الأقواس."

كنت قد انهرت قرب دراغوميروف، وقد تحطمت ورحت أشرق المخاط من أنفي بضعف، لأني تعرضت قبل أواني إلى كل أهوال يوم الدينونة، وكانت ملائكة البعث تحييني عارياً عبر الكون على صوت موسيقى النجوم.

ثم شاهدت دي فورست وهو يضرب خوذة آرنوت بيده المفتوحة.

توقف النواح بزعيق طويل كظل أسود يجتاحنا، ثم عاد إلى مكانه فوق الغيوم السفلى.

"أكره أن أقاطع اختصاصياً وهو يمتع نفسه"، قال دي فورست. "ولكن في الواقع فإن إلينوي كلها كانت تطلب منا التوقف هذه الثواني الخمس عشرة الأخيرة."

رفع آرنوت قناعه: "يا للأسف. لقد أردت منك أن تسمعنا حقاً ونحن ندندن. يمكن لنغمة (سي) الخفيضة خاصتنا أن ترفع رصيف الشارع."

"إنه الجحيم-الجحيم!" صرخ دراغوميروف ثم بكى بصوت مرتفع.

نظر آرنوت بعيداً وهو يجيب:

"إنها آلاف قليلة من الفولتات من لعبة ((اضربهم وأغرقهم)) القديمة، ولكني لا أستطيع إلا بالكاد أن أدعوها هكذا. ما الذي سأقوله للأسطول يا سيدي؟"

"قل لهم إننا مسرورون ومتأثرون جداً. لا أعتقد أنهم في حاجة إلى الانتظار بعد الآن. لم تبق شرارة واحدة هناك." أشار دي فورست. "سيكونون جميعاً صماً عمياناً."

"أوه، أعتقد ذلك يا سيدي. لقد دام العرض أقل من عشر دقائق."

"رائع!" تنهد تاكاهيرا. "لكنت قلت إنه دام نصف ليلة. والآن، هل سنهبط ونلتقط الحطام؟"

قال بيرولو: "ولكن في البداية سنتناول كأساً صغيرة. لا يجب أن تصل الهيئة باكية إلى معاملها."

"أنا احمق عجوز... أحمق عجوز!" بدأ دراغوميروف على نحو

مثير للشفقة. "لم أعرف ما الذي سيحدث. هذا كله جديد عليّ. نحن نحاول إقناعهم في ((روسيا الصغيرة))".

كان برج هبوط تشيكاغو نورث غير مضاء، وناور آرنوت بزورقه نحو المشابك مستخدماً أنواره الخاصة. وما أن انطلقت هذه حتى سمعنا أنين الرعب والمناشدة من كثير من الناس في الأسفل.

"حسناً"، صرخ آرنوت في الظلمة. "لن نبدأ مجدداً!" هبطنا الدرج لنجد أنفسنا وقد غصنا حتى الركب في حشد يحبو على الأرض، البعض يصيح بأنه أعمى وآخرون يتوسلون إلينا بألاّ نصدر المزيد من الأصوات، ولكن الجزء الأكبر بوجوه ملتوية نحو الأسفل وأيديهم أو قبعاتهم تغطي أعينهم.

كان بيرولو هو الذي جاء لنجدتنا. تسلق جانب آلة التسوية، وهناك وهو يومئ بيديه وكأنهم يستطيعون الإبصار، خطب في شعب إلينوي المفجوع.

بدأ قائلاً: "أيها الأغبياء! لاشيء هناك يدعو للهياج. طبعاً أعينكم ستؤلمكم وتكون محمرة غداً. ستبدون مع زوجاتكم كمن شرب كثيراً، ولكن خلال وقت قصير سترون مجدداً مثلما فعلتم في الماضي. أقول لكم هذا وأنا...أنا بيرولو. فيكتور بيرولو!"

ارتعد الحشد معاً، فهناك كثير من الأساطير المتعلقة بفيكتور بيرولو من فوغيا، المتعمق بأسرار الرب.

"بيرولو؟" رفع صوت متقلقل نفسه. "إذن قل لنا هل كان هناك أمر آخر عدا النور في تلك الأضواء خاصتك؟"

تكرر السؤال من كل زاوية من العتمة. ضحك بيرولو.

هدر قـائلاً: "كـلا!" (لماذا يكون للرجـال صـغـار الحـجم مـثل هذه الأصوات القوية؟) "أعطيكم عهدي وعهد الهيئة بأن لم يكن هناك سوى النور... مجرد نور! أنتم أغبياء! إن نسبة مواليدكم شديدة الانخفاض كما هي الآن. في يوم ما عليّ أن اخترع شيئاً ما لأرفعها، ولكني لن أخفضها قط."

"هل هذا صحيح؟...حسبنا...أن شخصاً ما قال..."

يستطيع المرء أن يشعر بالتوتر وهو يسترخي في كل مكان.

صرخ بيرولو: "أنتم أيها الحمقى الكبار. كان يمكنكم أن ترسلوا لنا نداء وكنا سنبلغكم."

"نرسل لكم نداء!" صرخ صوت عميق. "أتمنى لو أنكم كنتم عند نهاية خطنا."

"يسرني أني لم أكن"، قال دي فورست. "كان سيئاً بما فيه الكفاية خلف المصابيح. لا يهم! لقد انتهى الأمر الآن. هل هناك أي شخص أستطيع أن أتفاوض معه؟ أنا دي فورست...ممثل الهيئة."

"يمكنك أن تبدأ بي... أنا المحافظ"، أجاب الصوت العميق.

نهض رجل ضخم دون ثبات من الشارع، وترنح نحونا حيث كنا نجلس فوق حافة التربة الواسعة أمام سياج الحديقة.

قال: "كان عليّ أن أكون أول من ينهض. هل أنا الأول؟"

قال دي فورست "أجل"، ثم أسنده وهو يهبط ليجلس إلى جانبنا.

"مرحباً أندي، أهو أنت؟" نادى أحد الأصوات.

قال المحافظ: "اعذروني، يبدو هذا وكأنه رئيس الشرطة لدي، بلوثنر!"

"إنه بلوثنر، وهاهما موليغان وكيف...على أقدامهما."

"أحضرهما إلى هنا من فضلك يا بلوت. يفترض بنا أن نكون الأربعة المسؤولين عن هذه القرية. ما نقوله هو الذي يسري. ما رأيك يا دي فورست؟"

"لا شيء...بعد"، أجاب دي فورست ونحن نوسع مكاناً للرجال اللاهثين المضطربين. "لقد خرجت عن النظام. حسناً؟"

"قل للمضيف أن ينزل بعض المشروبات من فضلك"، همس آرنوت إلى وصيف كان يقف إلى جانبه.

قال المحافظ وهو يلعق شفتيه: "جيد. أفترض الآن أننا نستطيع يا دي فورست أن نفهم أن الهيئة ستدير أمورنا مباشرة من الآن فصاعداً؟"

"لن يحدث ذلك لو استطاعت الهيئة تجنبه"، قال دي فورست ضاحكاً. إن أ.ب.ج. مسؤولة عن السير الكوكبي فحسب."

"وكل ما يتضمنه ذلك"، رنّم الأربعة الكبار الذين يديرون تشيكاغو قانونهم الأساسي مثل أطفال في مدرسة.

قال دي فورست منهكاً: "هيا تابعوا. ما هي مشكلتكم الحمقاء على أي حال؟"

قال المحافظ وهو يضع يده على ركبة دي فورست: "الكثير من الديموقراطية اللعينة."

"هكذا إذن؟ ظننت أن إلينوي قد شبعت من هذا."

"فعلاً. ولهذا السبب نشكو. يا بلوت، ما الذي فعلته بمساجيننا في الليلة الأخيرة؟"

"حبستهم في برج الماء لمنع النساء من قتلهم"، أجاب رئيس الشرطة. أنا الآن أعمى إلى درجة لا أستطيع معها الحراك، ولكن..."

"آرنوت، أرسل بعض رجالك من فضلك وأحضرهم"، قال دي فورست.

قال المحافظ: "إنهم محاطون بثلاث دارات. سيكون عليك نسف ثلاثة صمامات. "التفت إلى دي فورست وهيكله الضخم مرئي بالكاد في العتمة الباهتة. "أكره أن أبذل المزيد من العمل على الهيئة. أنا إداري ولكن لدينا بعض المشاكل مع عبيدنا. ماذا؟ في مدينة كبيرة سيكون هناك القليل من الرجال والنساء الذين لا يستطيعون العيش دون الاستماع إلى أنفسهم، ويفضلون الشرب من الأنابيب التي لا يملكون أي طرف منها. إنهم يسكنون في شقق وفنادق طول العام. يقولون إن ذلك يوفر عليهم المشاكل. وعلى أي حال، فهذا يمنحهم المزيد من الوقت لإثارة المشاكل مع جيرانهم. ونحن نسميهم العبيد محلياً. إن لديهم استعداداً للإصابة بالسل الرئوي."

قال الرجل المسمى موليغان: "النقل حضارة"، الديموقراطية مرض. لقد برهنت على ذلك باختبارات الدم في كل مرة."

"موليغان هو مدير الصحة لدينا، وهو رجل تتملكه فكرة واحدة"، قال المحافظ ضاحكاً. "ولكنه أمر صحيح أن معظم العبيد ليس لديهم الكثير من الرقابة. وهم سيتحدثون، وحين يعتاد الناس على الكلام كتجارة، فقد يحصل أي شيء...أليس كذلك يا دي فورست؟"

"أي شيء...باستثناء وقائع القضية"، قال دي فورست ضاحكاً.

قال المحافظ: "سأعطيك هذه خلال دقيقة. إن عبيدنا اعتادوا على الكلام...أولاً في منازلهم ثم في الشوارع، وهم يقولون للرجال والنساء كيف يديرون شؤونهم الخاصة. (لا تستطيع تعليم العبد كيف لا يتدخل

في روح جاره.) هذا انتهاك للخصوصية بالطبع، ولكن في تشيكاغو سنتحمل أي شيء على أن نصنع حشوداً. لم يلاحظ أي شيئاً، لذلك تركتهم وشأنهم. هذا خطأ مني! لقد حذروني من حدوث مشاكل، ولكن لم يكن هناك حشد أو قتل في إلينوي منذ تسعة عشر عاماً."

قال رئيس الشرطة: "بل هي اثنان وعشرون."

"من المحتمل. على أي حال، لقد نسينا مثل هذه الأمور. لذلك من التكلم في المنازل ثم في الشوارع، فإن عبيدنا راحوا يدعون إلى اجتماع في السوق القديمة هناك." أومأ عبر الساحة حيث كانت الأبنية المهدمة تبدو رمادية في وميض الفجر خلف تمثال "الزنجي في الحريق" الموضوع في صندوق مربع. "لا شيء يمنع أي شخص من الدعوة إلى اجتماع باستثناء أنه ضد الطبيعة البشرية أن يقف المرء في حشد، عدا عن أن ذلك ضار بالصحة. كان علي أن أعرف الطريقة التي حضر بها الرجال والنساء أول اجتماع أن المشاكل كانت ستحصل. كان هناك حوالي ألف شخص في السوق، يلمس كل واحد الآخر، يتلامسون! ثم حلّ العبيد كل مفاتيح اللسان وتكلموا، ونحن..."

قال تاكاهيرا: "وعم تحدثوا؟"

"أولاً كم كانت الأمور تدار بكل ذلك السوء في المدينة. وقد سرنا ذلك نحن الأربعة - كنا على المنصة - لأننا أملنا في أن نمسك واحداً أو اثنين من الرجال الطيبين لأجل أعمال المدينة. أنتم تعرفون كم هي نادرة القدرة التنفيذية. وحتى لو لم نفعل، فإنه لأمر منعش أن نجد أي شخص مهتم بما فيه الكفاية في عملنا حتى يعمي أعيننا. أنتم لا تعرفون معنى العمل، كل سنة، دون أي شرارة تدلّ على الاهتمام لدى أي روح حية."

قال دي فورست: "ألسنا نحن مهتمين؟ هناك أوقات في الهيئة نكون فيها مستعدين للتخلي عن مناصبنا إن كان أي شخص سيرفسنا بعيداً ويستلم الأمور بنفسه."

قال المحافظ بحزن: "ولكنهم لن يفعلوا. أؤكد لك يا سيدي أننا نحن الأربعة قد قمنا بأشياء في تشيكاغو، على أمل إثارة الناس، وكان من شأن ما قمنا به أن يبزّ ما فعله نيرون. ولكن ماذا يقولون: ((جيد جداً يا أندي. فلتتصرفوا كما تشاؤون. أي شيء أفضل من حشد. سأعود إلى أرضي.)) لا تستطيع فعل أي شيء مع أناس يستطيعون الذهاب إلى أي مكان يريدون ولا يريدون أي شيء فوق أرض الرب عدا ان يعيشوا كما يشاؤون. لم يبق على ظهر الكوكب رفس ولا من يرفسون."

"إذن أفترض أن ذلك الكوخ الصغير هناك قد انهار لوحده؟ قال دي فورست. كنا قادرين على مشاهدة الخرائب العارية والتي لا زال الدخان يتصاعد منها، وسماع برك الخبث تطقطق وهي تتقسّى وتتموضع.

"أوه، هذا مجرد تسلية. سأخبرك لاحقاً. وكما قلت، فإن عبيدنا عقدوا الاجتماع وسرعان ما اضطررنا إلى نصب دارة أرضية حول المنصة لإنقاذهم من التعرض للقتل. ولم يجعل هذا الناس أكثر هدوءاً."

سألت: " ما الذي تعنيه؟"

قال المحافظ: " لو سبق لك وتعرضت للدارة الأرضية، ستعرف أنها لا تحسّن مزاج الإنسان الذي يبقى واقفاً وهو متوتر لقاء لا شيء. كلا يا سيدي! لقد بقي ثمانمائة أو تسعمائة شخص وهم يضربون الأرض ويئزون كالذباب في دبس السكر مدة ساعتين، بينما هناك عصابة من العبيد

الآمنين تماماً يغزون خصوصيتهم العقلية والروحية، وهذا أمر مسلّ للمراقب، ولكن ليس أمراً ساراً التعامل معهم لاحقاً."

ضحك بيرولو ضحكة خافتة.

"جماعتنا يملكون أنفسهم. كانوا يرون أن الأمور كانت تذهب بعيداً وعلى نحو شديد الاتقاد. لقد حذّرت العبيد، ولكنهم ولدوا كسكان بيوت. وما لم تصبهم الحقيقة في رؤوسهم لا يستطيعون رؤيتها. هل تصدقني، لقد تابعوا الكلام عما سموه ((الحكومة الشعبية))؟ لقد فعلوا حقاً! لقد أرادونا أن نعود إلى أيام الشعوذة، أيام الانتخاب بالأوراق والصناديق الخشبية والناس الثملين من الكلام والصيغ المطبوعة والصحف! قالوا إنهم مارسوا فيما بينهم حول ما عليهم أن يأكلوه في شققهم وفنادقهم. أجل يا سيدي! لقد وقفوا خلف دارات بلوثنر الأرضية المزدوجة وقالوا ذلك، في سنة الرحمة هذه، قالوه لرجال ونساء يملكون أنفسهم في هذه البقعة بالذات! ثم انتهوا" -أخفض صوته بحذر- "بالكلام حول ((العشب)). ثم اضطر بلوثنر إلى السهر الليل بطوله على الدارات لأنه لم يستطع الثقة من أن رجاله سيبقونها مغلقة."

"كان ذلك يزعجهم جداً"، قال رئيس الشرطة مقاطعاً، "ولكننا لم نستطع أن نبقي الحشد ضمن الدارة الأرضية إلى الأبد. لقد ألقيت القبض على كل العبيد بتهمة التحشد، ووضعتهم في برج الماء ثم تركت الحبل على غاربه. لقد اضطررت إلى ذلك! لقد توهجت المنطقة مثل خزان غاز متفجر!"

تابع المحافظ قائلاً: "لقد خرجت الأنباء فوق سبع درجات من البلاد، وحين يكون الأمر مسألة انتهاك للخصوصية، فوداعاً للحق

والمنطق في إلينوي! بدأوا يطفئون إشارات السير الضوئية ويقفلون أبراج الهبوط في ليلة الخميس. في يوم الجمعة، أوقفوا كل حركة السير وطالبوا الهيئة أن تستلم زمام الأمور. ثم أرادوا إزالة تشيكاغو من على جانب البحيرة وإعادة البناء في مكان آخر- وذلك كذكرى لـ ((الشعب)) الذي يتحدث عنه العبيد. لقد اقترحت أن عليهم أن يغرقوا السوق القديمة بالخبث حيث عقد الاجتماع، بينما دخلت لأناديكم في الهيئة. وقد أبقاهم هذا هادئين حتى وصلتم. و... والآن تستطيعون استلام زمام الأمور."

سأل دي فورست: "هل هناك أي فرصة في أن يهدؤوا؟"

"تستطيع المحاولة"، قال المحافظ.

رفع دي فورست صوته في وجه الحشد العائد إلى الحياة الذي راح يقترب منا. كان النهار قد حلّ.

بدأ يقول: "ألا تظنون أن هذه القضية يمكن ترتيبها؟" ولكن كان هناك هدير من الأصوات الغاضبة.

"لقد انتهينا من الحشود! لن نعود إلى الأيام السالفة! استلموا زمامنا! خذوا العبيد بعيداً! قوموا بإرادتنا مباشرة وإلا قتلناهم! يسقط ((الشعب))!"

جرت محاولة للعودة إلى إنشاد أغنية ماك دوناو. ولكن المحاولة لم تتجاوز البيت الأول منها، فقد أرسل عليهم فيكتور بيرولو أزيزاً تحذيرياً على بوق واحد متوقف. تداعى جدار جانبي مهدم في السوق القديمة وسقط إلى الداخل فوق برك الخبث. لم يتحدث أو يتحرك أحد حتى استقرت آخر ذرات الغبار مجدداً، ممّا حول الصندوق الفولاذي لتمثال

سالاتي إلى لون رمادي.

"كما ترى سيكون عليكم أن تستلموا زمامنا"، همس المحافظ.

هزّ دي فورست كتفيه.

قال: "تتكلمون وكأن القدرة التنفيذية يمكن أن تنتزع من الهواء مثل قوة الأحصنة. ألا تستطيعون إدارة شؤونكم بأي شكل من الأشكال؟"

"نستطيع إن قلتم ذلك. ولن يكلف سوى تلك الحيوات القليلة كبداية."

أشار المحافظ عبر الساحة حيث كان رجال آرنوت يوجهون مجموعة متعثرة من عشرة أو اثني عشر رجلاً وامرأة نحو مقدمة البحيرة ويوقفونهم تحت التمثال.

قال تاكاهيرا هامساً: "أعتقد الآن أنه ستحدث مشاكل."

كان الجمهور الذي أمامنا يزمجر كالوحوش.

في تلك اللحظة أشرقت الشمس وكشفت التجمع الذي كان يرمش. وما أن أدرك الحشد أنه حشد حتى رأينا رعدة الرعب والكره المشترك ينتابهم مثل الصدوع الفولاذية التي راحت تنطلق عبر البحيرة في الخارج. لم يقل أحد شيئاً، وبما أنهم كانوا جميعاً نصف عميان، فقد راحوا يتحركون ببطء. ومع ذلك خلال أقل من خمس عشرة دقيقة كان معظم ذلك الحشد الكبير- ثلاثة آلاف على الأقل - قد ذاب مثل الجليد على الشواطئ الجنوبية. أما البقية فقد تمدّدوا فوق العشب حيث يشعر الحشد ويبدو كحشد.

"هؤلاء جديون"، همس المحافظ لتاكاهيرا. "هناك عدد قليل من

النسوة الطيبات هنا ممن حملن أطفالاً. لا أحب ذلك."

كانت الريح القادمة من البحيرة قد حركت الأشجار من حولنا مع وعد بيوم حار. عكست الشمس نفسها على نحو مبهر على الغطاء ذي الشكل العلبي لتمثال سالاتي. صاحت الديكة في الحدائق، واستطعنا سماع مزالج أبواب تطقطق في البعيد حين عاد الناس إلى بيوتهم وهم يتعثرون.

"أخشى أنه لن يكون هناك أي تسليمات صباحية"، قال دي فورست. "لقد سبّبنا في لخبطة الأمور في البلد في الليلة الماضية."

"لا يسبب هذا في أي مشاكل. لدينا جميعاً مؤن تكفي ستة أشهر. لا نخاطر أبداً."

ولا يفعل ذلك أي شخص آخر لو فكرت في الأمر. ويجب أن يكون قد مر ثلاثة أرباع جيل منذ أن واجه أي منزل أو مدينة نقصاً في الطعام. ولكن هل يوجد منزل أو مدينة على الكوكب اليوم ليس فيها مؤونة نصف سنة؟ نحن أشبه بالبحارة الذين تحطمت سفينتهم في الكتب القديمة، والذين بعد أن ماتوا من الجوع تقريباً، راحوا بعد ذلك على الدوام يخفون مواد الطعام والبسكويت. حقاً نحن لا نثق بالحشود ولا بنظام مبني على الحشود!"

انتظر دي فورست حتى تلاشى آخر وقع أقدام. في هذه الأثناء كان السجناء عند قاعدة التمثال يتقلقلون ويتوقفون ويتململون بوقاحة أطفال صغار تماماً. لم يكن أي منهم أطول من ستة أقدام وكانوا كثير منهم بشعر أشيب مثل رؤوس الصور القديمة التالفة المنهكة. كانوا يتجمعون على بعضهم متلامسين فعلياً، بينما كان الحشد يقف متباعداً الفرد عن

الآخر مسافة كبيرة وينظر إليهم بعيون محتقنة.

وفجأة بدأ أحد الرجال بينهم يتكلم. لم يكن المحافظ قد بالغ إطلاقاً. بدا لي أن كوكبنا قد غرق في العبودية تحت كعب الهيئة الجوية للرقابة. حثنا الخطب على أن ننهض بقوتنا فنحطم أبواب السجن ونكسر القيود (كانت كل مجازاته بالمناسبة تعود إلى القرون الوسطى). ثم طلب تالياً أنه يجب تقديم كل مسألة من مسائل الحياة اليومية، بما فيها معظم الوظائف الجسدية، لاتخاذ قرار بشأنها في أي وقت من أوقات الأسبوع أو الشهر أو السنة، إلى أي شخص يصدف - كما فهمت - أن يكون ماراً أو مقيماً ضمن نصف قطر محدد، وأن على كل شخص أن يتخلى عن اهتماماته لحل المسألة، أولاً بالتحشّد وتالياً بالتحدث إلى الحشود التي تجمعت، وأخيراً بوصف إشارات الصليب على قطع من الورق، وهذه النفايات سيتم عدّها لاحقاً بواسطة احتفالات وأيمان سرية. ومن هذه اللعبة المدهشة، فقد أكد لنا، سيبرز آلياً عالم أسمى وأنبل وأكرم، مبني على- برهن على هذا بالوضوح الرهيب للمجانين - مبني على قدسية الحشد ونذالة الفرد. وفي الختام توسل إلى الرب أن يشهد على فضائله وعلى استقامته الشخصية. حين توقف التدفق، التفت حائراً إلى تاكاهيرا الذي كان يومئ برأسه بوقار.

قال: "صحيح تماماً. كل هذا مذكور في الكتب القديمة. لم ينس شيئاً، ولا حتى كلام الرب."

أجبت: "ولكنني لا أرى كيف يمكن لهذا الكلام أن يزعج طفلاً ناهيك عن منطقة بحالها."

"آه، أنت شاب لا تزال"، قال دراغوميروف. "وهناك أمر آخر، لست

أماً، انظر إلى الأمهات من فضلك."

كانت عشر أو خمس عشرة امرأة ممن بقين قد انفصلن عن الرجال الصامتين، واقتربن من السجناء. وقد ذكرني ذلك بالحصار المنجز خلسة قبل الاندفاع في المقلع، وبالذئاب من حول ثيران المسك في الشمال. رأى السجناء ذلك وراحوا يتجمعون على نحو أوثق. غطى المحافظ وجهه بيديه لحظة. تقدم دي فورست، عاري الرأس، نحو الأمام بين السجناء والخط المتحرك ببطء وثبات.

قال للخطيب جاف الشفتين: "هذا مثير للاهتمام جداً. ولكن يبدو أنك كنت تصنع الحشود وتنتهك الخصوصية."

تقدمت امرأة نحو الأمام وكانت تريد أن تتكلم، ولكن صدرت همهمة سريعة موافقة من الرجال الذين أدركوا أن دي فورست كان يحاول أن يعيد الوضع إلى بدايته.

صرخوا: "أجل! أجل! لقد توقفنا لأنهم صنعوا حشوداً وانتهكوا الخصوصية! التزموا بهذا! حافظوا مع هذا المفتاح! أبعدو العبيد عن هذا! الهيئة استلمت زمام الأمور! صه!"

قال دي فورست: "أجل، لقد استلمت الهيئة زمام الأمور. سآخذ دليلاً رسمياً على صنع الحشود، لو أحببتم، ولكن أعضاء الهيئة يستطيعون أن يشهدوا على هذا. هل هذا كاف؟"

كانت النساء قد اقتربن أكثر بطريقة أخرى في السير، بأيد كانت تنقبض وتنبسط على جوانبهن.

"جيد! جيد بما فيه الكفاية!" صرخ الرجال. "نحن راضون. ولكن خذوهن بعيداً بسرعة."

قال دي فورست للأسرى: "هيا، الفطور جاهز تماماً."

ولكن بدا على أي حال أنهم لم يكونوا راغبين في الرحيل. كانوا ينوون البقاء في تشيكاغو وصنع الحشود. وقد أشاروا إلى أن اقتراح دي فورست كان انتهاكاً فاضحاً للخصوصية.

قال بيرولو إلى أكثر القادة هذراً: "يا صديقي العزيز، أسرع أو أن حشدك الذي لا يمكن أن يكون على خطأ سيقتلك!"

"ولكن ذاك سيكون اغتيالاً"، أجاب المؤمن بالحشود. وكان هناك هدير من الضحك من كل النواحي مما أظهر أن الأزمة قد انحلّت.

تقدمت إحدى النساء عن صف النسوة وهي تضحك. أنا أحتج، بدرجة المرح نفسها التي لأي واحدة أخرى من المجموعة. كانت تظلل عينيها بيد واحدة، بينما الأخرى كانت عند حنجرتها.

صاحت: "أوه، لا عليهم أن يخافوا من القتل!"

قال دي فورست: "ليس إطلاقاً. ولكن ألا تظنون أنه بعد أن استلمت الهيئة زمام الأمور فالأفضل لكم أن تعودوا إلى بيوتكم بينما نبعد هؤلاء الناس؟"

"سأكون في البيت قبل ذلك بوقت طويل. لقد كان هذا بالأحرى يوماً منهكاً."

وقفت بكامل طولها، فجعلت حتى دي فورست الذي يبلغ طوله ستة أقدام وثمانية بوصات يبدو قزماً وابتسمت بأعين مغلقة أمام النور الباهر.

قال دي فورست: "أجل بالأحرى. أخشى أنك تشعرين بالوهج قليلاً. سننزل السفينة."

لوح إلى زورق "البيرولو" حتى يهبط بيننا وبين الشمس، وفي الوقت نفسه أن تحيط السجناء بدارة كهربائية مقفلة. وقد شاهدناهم يتيبسون مع مرور التيار حيث كانوا واقفين. كان صوت المرأة يتابع الكلام بصوت عذب وعميق وثابت:

"لا أفترض أنكم معشر الرجال تدركون كم يعني هذا الأمر لنا معشر النساء. لقد حملت ثلاثة. نحن معشر النساء لا نريد لأطفالنا أن يعطوا للحشود. لا بد أنها غريزة متوارثة. الحشود تسبب المشاكل. إنها تعيد الأيام السالفة. الكره والخوف والابتزاز والشعبية، ((الشعب))...ذلك! ذلك! ذلك! "أشارت إلى التمثال، وزمجر الحشد مرة أخرى.

قال دي فورست: "أجل، إذا سمح لهم بالمتابعة ولكن هذه المشكلة الصغيرة..."

"هذا يعني الكثير لنا نحن النساء... أن هذه المشكلة الصغيرة لا يجب أن تتكرر. بالطبع كلمة أبداً ليست بالكلمة الكبيرة، ولكن يشعر الشخص بمشاعر قوية بأنه من المهم إيقاف الحشود منذ البداية. هؤلاء المخلوقات" - أشارت بيدها اليسرى إلى السجناء المترنحين مثل أعشاب البحر في التيار حيث كانت الدارة تجذبهم - "هؤلاء الناس لديهم أصدقاء وزوجات وأطفال في المدينة وفي أماكن أخرى. لا يريد المرء أن يحدث لهم أي شيء لهم كما تعرف. لأنه لأمر رهيب إجبار كائن بشري على التخلي عن خمسين أو ستين سنة من الحياة الجيدة. أنا أبلغ الأربعين فقط. أنا أعرف. ولكن، في الوقت نفسه، يشعر المرء أنه يتوجب صنع سابقة من ذلك، لأنه ليس هناك ثمن أكبر من أن يدفع...

لو أن هؤلاء الناس وكل ما يتضمنونه يمكن أن توضع لهم نهاية. هل تفهم بالضبط، أو هل لك أن تكون لطيفاً بما فيه الكفاية فتأمر رجالك أن يزيلوا الصندوق عن التمثال؟ إنه يستحق المشاهدة."

"أفهم تماما. ولكني لا أظن أن أي شخص هنا يريد أن يرى التمثال على معدة فارغة. إعذرني لحظة." نادى دي فورست على السفينة. "فلتكن دارة كهربائية مغلقة محلقة فوق الباب من فضلكم". ثم قال للمرأة بالرشاقة نفسها: "يمكنك أن تتركي لنا بعض حرية التصرف في هذه القضية."

"بالطبع. شكراً كونك شديد الصبر. أعرف أن براهيني حمقاء، ولكن ..." التفتت نصف التفاتة بعيداً وتابعت بصوت متغير: "ربما سيساعدك هذا على اتخاذ قرار."

رمت بذراعها اليمنى وفيها خنجر. وقبل أن يصل حدّه إلى عنقها أو صدرها فقد نزع من قبضتها والتمع وهو يطير خارج ظل السفينة في الأعلى، وسقط لامعاً في نور الشمس عند سفح التمثال على مسافة خمسين ياردة. كانت الذراع الملوية متوقفة ومتيبسة كقضيب لحظة من الزمن، حتى سمحت الدارة المحررة لها بأن تعيدها إلى جنبها. تراجعت النساء الأخريات بصمت بين الرجال.

فرك بيرولو يديه، وأومأ تاكاهيرا برأسه.

قال: "كان هذا عملاً ذكياً منك يا دي فورست."

"يا لها من وقفة مجيدة!" همهم دراغوميروف، فقد كانت المرأة الخائفة على وشك البكاء.

صرخت: "لم أوقفتني؟ كنت سأفعلها!"

قال دي فورست: "لا شك عندي في ذلك. ولكننا لا نستطيع أن نضيع حياة مثل حياتك على هؤلاء الناس. آمل أن الإيقاف لم يسبب لك التواء في الرسغ. من الصعب جداً تنظيم دارة كهربائية مغلقة طائرة. ولكني أعتقد أنك على حق تماماً فيما يتعلق بنساء وأطفال هؤلاء الأشخاص. سنأخذهم بعيداً معنا إذا وعدت بألاّ تفعلي شيئاً أحمق ضد نفسك."

"أعدك...أعدك". تحكمت بنفسها مع بذل جهد. "ولكن الأمر مهم جداً لنا نحن معشر النساء. نعرف ما يعنيه ذلك. وقد فكرت أنك لو رأيت أني جادة..."

"شاهدتك كذلك وقد ربحت وجهة نظرك. سأصطحب كل عبيدكم معي فوراً. سينظم المحافظ لوائح بأصدقائهم وأسرهم في المدينة والمقاطعة، وسوف يلحقهم بنا عصر هذا اليوم."

قال المحافظ وهو ينهض على قدميه: "بكل تأكيد. يا كيف، إذا كنت قادراً على الإبصار، أليس من الأفضل أن تنتهي من تسوية السوق القديمة؟ لا يبدو مظهره جيداً كما هو الآن، ولن نستخدمه لأجل الحشود بعد الآن."

"أعتقد أنه أجدر بكم أن تزيلوا التمثال أيضاً أيها السيد المحافظ"، قال دي فورست. "لا أريد الاستفسار عن فضائله كعمل فني، ولكني أعتقد أنه كئيب."

"بالتأكيد يا سيدي. أوه يا كيف! أغرق الزنجي بالخبث قبل أن توصل السوق بالصمام. سأصل إلى أجهزة الاتصال وسأبلغ المنطقة بأن الهيئة قد استلمت زمام الأمور. هل لديك أي مواعيد خاصة يا سيدي؟"

"لا. ليس لدينا رجال نستغني عنهم في هذه الغابات الخلفية. تابعوا كما من قبل، ولكن تحت إشراف الهيئة. يا آرنوت، احمل عبيدك إلى متن السفينة من فضلك. اهبط بالسفينة واجعلهم يمرون عبر الأبواب المرشحة. سننتظر حتى ننتهي من هذا العمل الفني."

مرّ السجناء أمامه وهم يتحدثون بتدفق، ولكنهم غير قادرين على صنع إشارات بسبب التيار الكهربائي. ثم تضخمت أجهزة السطح، اثنان منها على كل جانب من جوانب التمثال. وفي وقت واحد أشاح المشاهدون بوجوههم إلى مكان آخر، ولكن لم تكن هناك حاجة إلى ذلك. شغّل كيف كامل الطاقة، فانصهر ذلك التمثال ببساطة ضمن صندوقه. كان كل ما رأيته عبارة عن موجة من المعدن الحار المنصهر ينصب فوق قاعدة التمثال المربعة، ولمحة من نقش سالاتي: "إلى الذكرى الخالدة لعدالة الشعب"، قبل أن تتشقق القاعدة الحجرية وتتحول إلى مسحوق من الكلس الناعم، هلّل الحشد.

قال دي فورست: "شكراً، ولكننا نريد تناول الفطور، وأتوقع ذلك منكم أيضاً. وداعاً أيها السيد المحافظ. يسرني مشاهدتكم في أي وقت، ولكني آمل أني لن اضطر إلى ذلك، رسمياً في السنوات الثلاثين القادمة. وداعاً يا سيدتي. أجل، جميعنا معتادون على فقد أعصابنا في هذه الأيام . أعاني من ذلك شخصياً. وداعاً أيها السادة جميعاً! أنتم تحت العقب الاستبدادي للهيئة منذ هذه اللحظة ، ولكن لو شعرتم بالرغبة في تحطيم قيودكم فعليكم فقط أن تبلغونا. ليست هذه متعة لنا. حظاً طيباً!"

صعدنا إلى متن السفينة بين الصراخ ولم ندقق في حمولتنا حتى

بدأ يتهامسون . ثم رمى دي فورست بنفسه فوق أريكة الخرائط ومسح جبينه.

لهث :"لا يهمني الرجال ، ولكن النساء هن الشيطان!"

قال بيرلو بمرح :" لا يزلن الشيطان . تلك المرأة كانت تريد الانتحار ."

" أعرف ذلك . ولهذا أشرت بأن ترمى عليها الدارة المغلقة الطائرة. أدين لك باعتذار عن هذا يا أرنوت.

لم يكن لدي وقت كاف لأستطيع لفت نظرك إلي وكنت مشغولاً بأوغادنا . بالمناسبة، من أجاب بالفعل على إشارتي ؟ كان عملاً ذكياً."

قال آرنوت :" إنه إلروي ، ولكنه حمّل الموجة حمولة فائضة . ربما يكون العمل فنياً جداً أن تسقط خنجراً من يد سيدة ، ولكن ألم تلاحظ كيف فركتها ؟ لقد أحرق لها أصابعها . أسمي ذلك إهمالاً."

" لا أتدخل بنظام الأسطول ، ولكن لا تكن شديد القسوة على الشاب . لو قتلت تلك المرأة نفسها كان من شأنهن أن يقتلن كل عبد وكل شيء له علاقة بالعبيد في كل المنطقة مع هبوط الليل ."

قال تاكاهيرا: "هذا ما كانت هي تحاوله. وبعد رحيل أسطولنا ما كنا قادرين على فعل أي شيء لمنعهن.

قال آرنوت: "ربما أكون أحمق بما فيه الكفاية لأدخل في دارة أرضية، ولكني لا أطلب من أسطولي الانصراف حتى أكون واثقاً على نحو معقول من أن المشاكل قد انتهت. لا زال الأسطول في مواقعه، وأنوي أن أبقيه كذلك حتى يكون العبيد قد أبعدوا عن المنطقة. كان ذلك الحشد الصغير الأخير ينوي القتل، يا أصدقائي."

قال بيرولو: "إنها أعصاب! كلها أعصاب! لا تستطيع مجادلة رهاب الخلاء."[1]

قال تاكاهيرا: "وليس الأمر أنهم قد شاهدوا الكثير من الموتى...أليس كذلك؟" تكلم دراغوميروف وكأنه يريد أن يعذر نفسه: "في كل سنواتي التسعين لم أر الموت قط. ربما لهذا السبب... جرى لي ما جرى في الليلة الماضية..."

ثم تبين لنا ونحن نتناول الفطور أنه باستثناء آرنوت وبيرولو، لم ير أي واحد منا جثة أو يعرف كيف تخرج الروح من الجسد.

قال دي فورست: "نحن مجموعة لطيفة لنحلق في الفضاء ونحكم الكوكب. أعترف الآن أن الأمر قد انتهى، وأن خوفي الأكبر كان هو ألاّ أكون قادراً على التخلص منه دون خسارة أحد الأرواح."

قال آرنوت: "فكرت في ذلك أيضاً ولكن لم تسجل أي حادثة وفاة، وقد سألت كل الأمكنة. ما المفروض أن نفعله بركابنا؟ لقد أطعمتهم."

تشدّق دي فورست قائلاً: "نحن بين خيارين. لو أسقطناهم في أي مكان ليس تحت سلطة الهيئة، فإن السكان المحليين سيجعلون من وجودهم عذراً للتوقف عن العمل وجعل الهيئة تستلم زمام الأمور. ولو أسقطناهم في أي مكان تحت سيطرة الهيئة سيقتلون ما أن نلتفت مبتعدين."

قال بيرولو متأملاً: "إن قلت ذلك أستطيع ضمان أن ينقرضوا مع تقدم الزمن، بكل سعادة. كم هي نسبة الولادات بينهم الآن؟"

قال دي فورست: "انزل واسألهم."

(١) رهاب الخلاء . خوف مرضي من الأرض الفضاء (المترجم)

"أعتقد أنهم قد يصبحون عصبيين ويمزقونني أشلاء"، أجاب فيلسوف فوغيا.

"ليس فعلاً؟ حسناً؟"

"افتحوا الأبواب النفخ"، قال تاكاهيرا وهو يشير إبهامه نحو الأسفل.

"بشق الأنفس ... بعد كل ما عانيناه لإنقاذهم"، قال دي فورست.

اقترح آرنوت: "جربوا لندن، يستطيع المرء إطلاق الشيطان نفسه هناك وهم لن يفعلوا سوى أن يدعوه للعشاء."

"رجل طيب! لقد أهديتني فكرة. فنسنت! أوه فنسنت!" فتح جهاز الاتصال العام حتى نستطيع جميعاً أن نسمع، وخلال دقائق قليلة امتلأت حجرة الخرائط بالصوت العميق الجذاب لليوبولد فنسنت الذي زود لندن كلها بأفضل أنواع التسلية في السنوات الثلاثين الأخيرة. فأجبنا بابتسامات ملؤها الأمل، وكأننا كنا فعلاً في المقاعد الأمامية من مسرح "ذا كومبينشن" في ليلة العرض الأولى.

"لقد التقطنا شيئاً في خطكم"، بدأ دي فورست بالكلام.

"هذا جيد يا عزيزي. إن كان قديماً بما فيه الكفاية، لاشيء يبزّ الأشياء القديمة في الأمور التجارية. هل شاهدت لندن وتشاتهام ودوفر في بلاط إيرل؟ كلا؟ فكرت في أني افتقدتك هناك. هائل! لقد جعلت المحركات البخارية الحقيقية تبنى من التصاميم القديمة وسكك الحديد التي صبت خصيصاً باليد. وسائد قماشية في العربات أيضاً! هائل! وبطاقات سكة حديد ورقية وبولي ميلتون."

"بولي ميلتون مجدداً!" قال آرنوت بنشوة. "احجز لي مقصورتين

غداً ليلاً. ما الذي تغنيه الآن، فليباركها الرب؟"

"الأغاني القديمة. لاشيء يبزّ اللمسة القديمة. اسمعوا هذه الأغنية أيها الرفاق الأعزاء." غنى فنسنت متباهياً:

((أوه، يا مصابيح لندن القاسية،

لو كانت أنوارك تستطيع إغراق الدموع،

عينا ضحيتك ستبكيانها،

أوه، يا مصابيح مدينة لندن))

"ثم يبكون."

"أترى؟" لوح بيرولو بيديه إلينا، كان العالم القديم يبكي دائماً حين يرى الحشود مجتمعة. لم يكن يعرف السبب، ولكنه كان يبكي. نحن نعرف السبب، ولكننا لا نبكي، إلاّ حين ندفع ليجعلنا فنسنت العجوز الشرير البدين نبكي.

ضحك فنسنت: "عجوز، أنت العجوز! أنا محسن عام، وأبقي العالم مريحاً وموحداً."

"وأنا دي فورست من الهيئة"، قال دي فورست بلهجة حادة. "أحاول أن أنجز بعض الأعمال. كما كنت أقول فقد التقطت بعض الأشخاص في تشيكاغو."

"لقد قاطعتها. تشيكاغو هي...."

"اسمعوا حقاً! إنهم فريدون فعلاً."

"هل يبنون المنازل من كتل طينية محمّصة بينما ينتظرون...ماذا؟

هذا مصدر معلومات قديم."

"إنهم مجتمع بدائي صرف، مع كل الأفكار القديمة."

"آلات خياطة ورقصات حول سارية نوار؟ الطبخ على مواقد غاز الفحم وإشعال الغليون بأعواد الكبريت، وقيادة الجياد؟ لقد حاول جيرولستاين ذلك في العام الماضي. حفلة سمر كبرى مطلقة!"

ضربه دي فورست بغضب، وروى حكاية أفعالنا خلال الساعات الأربع والعشرين الأخيرة بأعلى نبرة.

ثم ختم كلامه قائلاً: "وهم يفعلون ذلك كله في العلن. لا تستطيع أن توقفهم. كلما كان الأمر أكثر علانية كلما كانوا أشد سروراً، سيتحدثون لساعات... مثلك! والآن تستطيع الدخول مجدداً!"

"هل تعني حقاً أنهم يعرفون كيف يصوتون في الانتخابات؟" قال فنسنت. "هل يستطيعون تمثيل ذلك؟"

"تمثيل؟ إنها الحياة بالنسبة إليهم. وأنت لم تر قط مثل تلك الوجوه. إنها مليئة بالندوب شأن البراكين. الحسد والكره والشر في مشهد واضح. أصوات مرنة على نحو رائع. إنهم يبكون أيضاً."

"بصوت مرتفع؟ في العلن؟"

"أضمن ذلك. ليس هناك شرارة عار أو ندم في المنشأة كلها. إنها فرصة كبيرة لمهنتك."

"هل تقول إنك جلبت أدوات الانتخاب معك... تلك الأوراق وصناديق الاقتراع؟"

"كلا، اللعنة عليك! لست حامل أمتعة. قدم طلباً مباشراً إلى محافظ تشيكاغو. سيرسل لك كل شيء. حسناً؟"

"انتظر دقيقة. هل أرادت تشيكاغو قتلهم؟ سيبدو هذا جيداً على أجهزة الاتصال."

"أجل! لقد أنقذوا فحسب بصعوبة من جمهور نابح... إن كنت تعرف ما يعنيه هذا."

"ولكني لا أعرف"، أجاب فنسنت العظيم ببساطة.

"حسناً إذن، سيقولون لك بأنفسهم. يستطيعون إلقاء الخطابات ساعات بحالها."

"كم عددهم؟"

"في الوقت الذي نشحنهم فيه كافة سيكونون على الأرجح مائة بما فيهم الأطفال. عالم قديم مصغّر. ألا تستطيع أن تراه؟"

"يستطيعون إنشاد أغاني الحرب القديمة في الشوارع. يستطيعون أن يشملوا بالكلمات، ثم يصنعون حشوداً وينتهكون الخصوصية بالأسلوب القديم الحقيقي، ويقومون بحيل الانتخاب بعدد المرات الذي تسأل فيه الأسئلة."

قال فنسنت: "جيد جداً!"

"أيها اليهودي غير المصدق! لقد حصلت على اثني عشر شخصاً منهم على متن السفينة هنا. سأجعلك تتصل بهم مباشرة. يمكنك اختبارهم بنفسك."

رفع المفتاح وأصغينا. وقام الركاب في الطابق السفلي من السفينة على الفور، ولكن كل خمسة على الأقل في المرة الواحدة، بشرح حالتهم لفنسنت. لقد أخذوا من أحضان عائلاتهم وجردوا من ممتلكاتهم ومنحوا طعاماً دون آنية الأنامل وأصبحوا أسرى في زنزانة عالية الضجيج.

قـال آرنوت مـذهولاً: "ولكـن انظر هنـا. إنهم يقـولـون مـا هو غـيـر صحيح. إن الطابق السفلي ليس عـالي الضجيج، وقد أشرفت بنفسي على تقديم آنية الأنامل."

قال دراغوميروف: "يتكلم شعبي على هذا النحو أحياناً في روسيا الصغيرة. نستخدم المنطق معهم. لا نقتل أبداً. كلا!"

ألح آرنوت: "ولكـن هذا غيـر صحـيح. مـا الذي تسـتطيع فـعله مع أشخاص لا يقولون الحقائق؟ إنهم مجانين!"

قـال بيـرولو ويده على أذنـه: "صـه! لقـد مرّ وقت قـصيـر جداً منذ أن كان الكوكب كله يروي الأكاذيب."

سمعنا فنسنت متعـاطفاً بنعومة. هل سيكررون هم توكيـداتهم علناً - كما سأل - أمام جمهور كبير؟ فقط دعوا فنسنت يمنحهم الفرصة، والكوكب كما آلوا على أنفسهم، سيدوّي بأخطائهم. هدفـهم في الحياة - شرحت امرأتان ورجل المسألة كلها معاً - هو إصلاح العالم. أمر غريب، كـان هذا هو أيضـاً حلم حياة فنسنت. لقد عـرض عليـهم ميداناً يشرحـون فيه مـا يريدون، وأنهم بمثالـهم الحي سيرفـعون الكوكب إلى مـستـويات أسمى. كان خطيباً مفوهاً حول السمو الأخلاقي لحياة بسيطة حسب طراز العالم القديم التي تقدم بأكملها إلى مدنّية فارغة من الهراء."

هل يسـتطيـعـون - هل سـيـقـومـون - لمدة ثلاثـة أشـهـر، بتـكريس أنفسـهم تحت رعايته، كـمبشـرين، من أجل سمو البشرية في مكان يدعى ((بلاط إيرل))، الذي قـال إنه مع بعض الحـقـيـقـة، واحـد مـن المراكـز الثقافية للكون؟ وقد شكروه، وطلبوا (استطعنا سماع ضحكته التي تدل على السرور) وقتـاً للمناقشـة وللتصويت على القضية. كـان التـصـويت

الذي أدير بجدية بعدّ الموجودين - صوت واحد لكل شخص - مرضياً. كان عرضه إذن مقبولاً، وقد تقدموا إليه بتصويت الشكر في خطابين... واحد سموه "المقترح" والآخر " الثاني ".

تكلم فنسنت إلينا وصوته يرتجف من العرفان:

"لقد حصلت عليهم! هل سمعت تلك الخطابات؟ هذه هي الطبيعة يا أعزائيّ. الفن لا يستطيع تعليم ذلك. وقد صوتوا بسهولة الكذب. لم يسبق لي أن عرفت مجموعة من الكذابين الطبيعيين. فليباركم الربّ أيها الرجال الأعزاء تذكروا، أنتم على لوائحي المجانية إلى الأبد، في أي مكان... جميعكم. أوه، جيرولستاين سيصاب بالغثيان...الغثيان!"

قال دي فورست: "أتظن أنهم سيفعلون ذلك؟"

"يفعلون؟ ستجنّ القرية الصغيرة! سأوقظ سلسلة من مسرحيات العالم القديم لهم. أصواتهم ستجعلك تضحك وتبكي. يا إلهي، أيها الأعزاء، أين تفترضون أنهم التقطوا كل ذلك البؤس على هذه الأرض العذبة؟ سأقيم حفلة راقصة لبدايات العالم وسوف يشرف موزنتال على الموسيقى. سوف..."

"اذهب وأيقظ قرية لهم هذه الليلة. سنقابلكم في رقم ١٥ويست لندينغ تاور"، قال دي فورست. "تذكروا أن الباقي سيأتون غداً."

قال فنسنت: "دعهم يأتوا جميعاً! أنتم لا تعرفون كم هو صعب الآن حتى بالنسبة إلي أن أجد شيئاً ما يجري حقاً تحت الجلد اللعين المصفح بالإيريديوم للعموم. ولكني حصلت على ذلك أخيراً. وداعاً!"

"حسناً"، قال دي فورست حين انتهينا من الضحك. "لو فهم أي شخص الفساد في لندن، لكنت جعلت فنسنت يهاجم جيرولستاين،

وبعت أسراي بأسعار ضخمة. وبما أن الحال على ما هي عليه، فسوف أضطر إلى أكون مستشارهما القانوني الليلة حين توقع العقود. وهما لن يدفعا أي عمولة إليّ أيضاً."

"في هذه الأثناء"، قال تاكاهيرا، "لا نستطيع أن نحبس أعضاء في شركة ليوبولد فنسنت التي التزمت أخيراً. كراسي للسيدات من فضلك يا آرنوت."

قال دي فورست: "إذن سأذهب إلى الفراش. لا أستطيع مواجهة المزيد من النساء!" ثم اختفى.

حين تم إطلاق سراح ركابنا ومنحوا وجبة أخرى (وصلت آنية الأنامل أولاً هذه المرة) فقد أبلغونا بأفكارهم حولنا وحول الهيئة. وشأن فنسنت، فإننا جميعاً تعجبنا كيف استطاعوا أن يستخرجوا ويفرزوا كل هذا السم المر والقلق من الحياة الطيبة التي منحها الرب لنا. لقد غضبوا واهتاجوا وارتجفوا وأنهكوا أعصابهم المسكينة الممزقة ولهثوا حتى الصمت ثم جددوا هجماتهم الخالية من المعنى والخجل.

"ولكن ألا تستطيعون أن تفهموا"، قال بيرولو بلهجة مثيرة للحزن لامرأة زاعقة. "أنه لو أننا تركناكم في تشيكاغو لكنتم تعرضتم للقتل؟"

"كلا، ما كان ذلك سيحدث. لقد كنتم ستسعون لإنقاذنا من القتل."

"إذن كان علينا أن نقتل الكثير من الناس".

"هذا لا يهم. كنا نعظ بالحقيقة. أنتم لا تستطيعون إيقافنا. سنواصل الوعظ في لندن. وعندها سترون!"

"تستطيعون أن تروا الآن"، قال بيرولو وفتح مصراعاً سفلياً.

كنا نقترب من "ليتل فيليدج"، وسكانها البالغ عددهم الثلاثة ملايين نسخة المنتشرين براحة داخل حلقة حزام أنوار السير الرئيسية- تلك الأعمدة الثمانية المثبتة في تشاتهام وتونبريدج ورديهيل ودوركينغ وووكينغ وسانت ألبانس وتشيبينغ أونغار وساوثاند.

نظرت رفقة ليوبولد فنسنت الجديدة بوجوه شاحبة إلى الصمت والحجم والمنازل المنفصلة.

ثم بدأ الجميع بالبكاء بصوت مرتفع، دون خجل...دائماً دون خجل.

أغنية ماك دوناو

سواء استطاعت الدولة أن تحرر وتأسر
في السماء كما على الأرض
إن كانت أكثر حكمة فتقتل البشرية
قبل أو بعد مولدها...
هذه أمور ذات أهمية كبيرة
حيث يكون مدرسو الدولة.
ولكن الدولة المقدسة (لقد عشنا وتعلمنا)
تنتهي في "الحرب المقدسة".

* * *

سواء كان الشعب يقاد من الرب
أو يغويه الصوت الأعلى:
إن كان أسرع الموت بالسيف
أو أرخص الموت بالاقتراع...
هذه هي الأمور التي تعاملنا معها ذات مرة
(وهي لن تخرج من قبورها)
فالشعب المقدس، مهما يكن،

ينتهي ليكون عبداً بالكامل.

* * *

على أي حال، ولأي سبب،
تنشد أن تأخذه أو تعطيه،
القوة فوق القوانين أو إلى ما ورائها،
لا تجعله يعيش!
الدولة المقدسة أو الملك المقدس...
أو إرادة الشعب المقدسة-
ليس لها تعامل مع الشيء الخالي من المعنى.
وجه الأوامر للمدافع واقتل!
وقل ورائي:
ذات مرة كان هناك الشعب-ولده الرعب.
ذات مرة كان هناك الشعب وقد صنع جحيماً على الأرض.
قامت الأرض وسحقته. اسمعوا أنتم المقتولين!
ذات مرة كان هناك الشعب...ولن يكون مرة أخرى.



روديارد كبلنغ

نوبل ١٩٠٧

• ولد في ٣٠ ديسمبر ١٨٦٥ في بومبي في الهند، ونشأ لأب كاتب وفنان.

• درس في بريطانيا وعاد إلى الهند واشتغل بالصحافة في لاهور، وهناك بدأ الكتابة.

• في سنة ١٨٨٩ نشر بعد أن عاد إلى بريطانيا رواية بعنوان «النور الذي خبا».

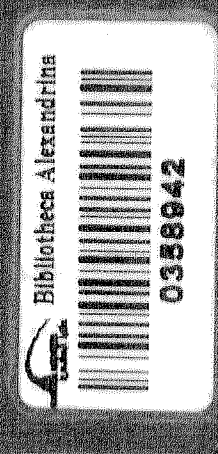
• أظهر براعة خاصة في أدب الأطفال، ووضع عدة كتب انتشرت انتشاراً واسعاً وأشهرها كتاب في جزئين بعنوان «الأدغال». وقد سحر هذا الكتاب الكبار والصغار.

• أشهر كتبه - بعد «شجاعة الكابتن» روايته الممتعة «كيم» التي نشرت في ١٩٠١. ويصور في هذه الرواية انطباعاته عن الهند، وذكرياته عنها وفي الكتاب تنوع كبير في الموضوعات وتفاصيل دقيقة، وخيال واسع.

• استقر في «سسكس» في بريطانيا، وكتب في أخريات حياته سيرته الذاتية «شيء عني» نشرت عام ١٩٣٧ بعد وفاته.

• منح جائزة نوبل عام ١٩٠٧.

• توفي في ١٨ كانون الثاني / يناير ١٩٣٦.



ISBN:2-84305-490 X
9782843054907